د. منير لطفي

حكايات من دفتر الحياة

حقوق الطبع محفوظة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾

[ق: 18]

الإهداء

إلى روح الرّوح..

"زوجتي"

المقدّمة

خلف الأبواب لا يسكن الغرباء، ووراء الجدران لا يقطن الصمت، وجوف الإنسان لا يستكين للفراغ؛ فخلف كلّ بابٍ قصّة، ووراء كلّ جدارٍ حكاية، وفي جوف كلّ شخصٍ رواية؛ مِن هذه القصص ما كُتبت فلَفظَت أنفاسَها علىٰ الورق، ومِن تلك الروايات ما رُوِيت فلاكتْها الألسن وتناقلتْها الأسماع، ومِن تيك الحكايات ما ظلّت مختومةً بخاتم النسيان ومستورةً بغبار الزمان وممهورةً بتوقيعٍ غير عاجلٍ ولا طارئ؛ فعاشَت في

زوايا النفوس تُؤنسها خيوطُ العنكبوت، وبقيت كإضاءةٍ جانبيّةٍ علىٰ حائط اللاوعي المُترَع بزبَد الأيام وأنين الليالي.

وتأتي هذه الحكايات والمواقف التي بين أيدينا؛ لتمزّق تلك الخيوط العنكبوتية، وتتمرّد علىٰ تِيك الإضاءة الجانبية؛ فتتسلّق ذاكرةَ الماضي، وتطلّ من شرفة الحاضر، لتصافح يدَ المستقبل، عبْر مسْبار الباحثِين عن الرشد والمتلمِّسين للخير والحقّ والجمال، وذلك بعدما امتدَّت إليها يدُ التشذيب والتهذيب، وبعدما عانقها قلمُ السبْك والصقْل..

فما قيمة اللوحة الفنية إذا لم تُؤطَّر بإطارٍ بديع؟!

وما قيمة الذهب إذا لم يُطوِّق الجيدَ الجميل؟!

وكيف يبحر إلى الأعالي قاربٌ عتيقٌ نهشتْه الأمواج ومضغتْه الأنواء؟!

هي إذَنْ لمَحاتٌ مِن دقيق الواقع، ودفَقاتٌ من ماء الحقيقة؛ بسيطةٌ كالحياة الأولىٰ التي عقَّدْناها، وعفويةٌ كالطفولة التي باتت في خطر، ومتنوِّعةٌ كألوان الطيف وعبق الزهْر وقسَمات الخلائق؛ فلا تكلُّف فيها ولا تصنُّع، ولا خيال فيها ولا توهُّم. دوَّنتُها بيراع ذلك الإنسان الحكّاء

بطبعه والقاصّ بفطرته، ثمّ رتّبتُها في أربعة دفاتر تناولَت المحاور الإنسانية المشتركة (الدراسة-العمل-الغُربة-المسجد). ولم أقصد من ورائها اجترار الذكريات وتَزجيةِ الأوقات، أو إشعال حرائق الماضي والبكاء علىٰ الأطلال؛ بل حمّلتُها رسائلَ تفتح مغاليق القلوب وتطرق أبواب العقول وتشرع نوافذ الأرواح، فكانت أقرب للمقالات منها إلىٰ السرديّات، وتَعانق فيها الموضوعي بالذاتي؛ علىٰ أمل أن تأخذ بأيدينا إلىٰ أعراس النفوس وأفراح الرّوح، وتدخل بنا إلىٰ عالَمٍ بهيجٍ قال عنه الإمام الجنيد: **"الحكايات جند من جند الله عزّ وجل يقوّي بها إيمانَك"**، وقال عنه كاتب أرجنتينيا الشهير (ألبرتو مانغويل): **"لولا الحكايات لبقيت الأديان جميعها محض وعْظ، فالحكايات هي التي تقنعنا"**.

أمّا (أفونسو كروش) **فقال: "نحن نتشكّل من الحكايات، وليس من الجينات، ولا حتىٰ من اللحم والجلد والعضلات والمخ"**.

ولعلّ في هذا دعوة للانتباه إلىٰ منمْنمَات حياتنا الدقيقة التي نحسبها هامشا علىٰ المتْن، وزائدة دوديّة في الأحشاء؛ فنطوّقها بسيْل من الأسئلة المناسبة: متىٰ؟ وأين؟ وكيف؟ ولماذا؟ وماذا؟ لنصنع منها حكايات برّاقة نُثري بها حياتَنا وحياةَ الآخَرين حولنا، فما الحكايات سوىٰ تاريخ في صورته البِكر وتربية في هيئتها العذراء. وهنا أشير إلىٰ أنّ الذاكرة المثقَلة

بالذكريات تنحني انحناء السنابل المَلْأىٰ، وكما نعالج انحناء السنبلة بالحصاد فإّن علاج انحناء غصن الذاكرة يكون بالبوح والحكْي. مع الانتباه إلىٰ أنّ (كليلة ودمنة)، ما اكتسبَت سطوتها علىٰ مرّ العصور، إلّا بفضل هيئتها السردية التي ساقها الحكيم بيدبا علىٰ ألسنة الطيور والبهائم والسباع. ثمّ التأكيد علىٰ أنّ الحكّاء الماهر يَلقىٰ القبول الأكثر ويترك التأثير الأشدّ، حتىٰ إنّ أفلاطون اعتبره من الخطورة بمكان، ونادىٰ بطرْده من المدينة الفاضلة حتىٰ لا يشوّش عليه ويقلب طاولتَه الفكرية!

هيّا بنا إذَن نحكي لنعيش ونعيش لنحكي؛ فبيْن الحياة والحكايات من المشترَكات ما هو أكثر من حرف الحاء الذي يتربّع في صدريْهما..

هذا والله سبحانه خيْر مقصودٍ وأفضل مُعين

د. منير لطفي

سلطنة عمان/ 2020م

الدفتر الأول

(الدّراسة)

(1) فُوتومانيا ..الهوَس بالتصوير

شتّانَ بين الأمس واليوم، وما أبعد الليلة عن البارحة؛ والأمس الذي أقصده يَعود إلىٰ أربعين عامًا خلَت، حين اضطُرِرتُ للمشي بضعة كيلومترات علىٰ أمل الوصول إلىٰ أقرب محلّ تصوير في القرية بعد المجاورة[1]، ومِن ثمّ الظفَر بستّة صورٍ شخصيّةٍ صغيرة، لازمةٍ للتقدّم لشهادة المرحلة الابتدائية آنذاك، وأتذكّر كيف كان لاستلام تلك الصور فرحة جامِحة هانَت أمامها بضعةُ كيلو مترات أخرىٰ مِن المشي والركض، وكيف أنّ إحدىٰ قريباتي توسّلَت للحصول علىٰ إحداها حتىٰ طفرَت الدّموع مِن عينيها، رغم أنّ الصورة ليست سوىٰ وجهي المألوف مطبوعًا علىٰ ورقٍ لامعٍ مصقول! أمّا البارِحة فتعود إلىٰ أيام وفاة جدّي -رحمه الله- قبل نحو ثلاثين عاما، وكيف أنّنا لم نعثر له سوىٰ علىٰ صورةٍ مهترئة

(1) قريتي هي قرية كفر الروك بمركز السنبلاوين التابع لمحافظة الدقهلية، والقرية المجاورة المقصودة هي قرية صافور التابعة لمركز ديرب نجم بمحافظة الشرقية.

لا يزيد حجمها عن حجم علبة الكبريت، بذل المصوّرُ فيها وقتًا وجهدًا وفنًّا لتصبح صالحةً للمثول داخل إطار يُعلَّق علىٰ جدار الرحيل ورَفّ الوفاء.

أمّا اليوم والليلة؛ وبعد أن اقتحمَت الكاميراتُ الرقميّة كلّ زوايانا الحادّة والقائمة والمنفرِجة، حتىٰ باتت لا تخلو منها حقيبةُ امرأة أو بنطالُ شاب أو جيْبُ رجل، وبعدما أضْحت كبسةُ زرٍّ كافيةً لالتقاط عشرات الصور في ثانية واحدة، ودون الحاجة إلىٰ مصوّر يقيّدك فوق كرسيّ في وضع أبي الهول؛ فقد انقلب الأمرُ رأسًا علىٰ ذنَب، وأصبحنا نصارِع طوفانًا مِن صور فردية وجماعيّة غمرَت منصّات التواصل الاجتماعي وأغرقَت مواقعَ تبادل الصور، لدرجة أنَّ شهرًا واحدا فائتًا التقط فيه الأمريكيون ما يَزيد علىٰ عشرة مليار صورة! وإلىٰ حدّ أنّ أربعة أشهر فقط في عمْر إحدىٰ الحفيدات، كانت كافيةً لالتقاط ما يزيد علىٰ ألف صورة لها، حسبما قالت الجدّة الموقَّرة! ولْيهنأ في قبره الكاتب الفرنسي (دي موباسان) الذي كان يفضّل العمىٰ علىٰ نشر صورة له.

ولأنَّ في الجنون فنونا؛ فقد تعدّدت المناسباتُ والأوضاعُ التي تُلتقَط فيها الصور.. وكما وجب غسْل اليديْن قبل الأكل وبعده؛ وجَب التصوير قبل الطعام وبعد التهامه، ولا مانع أيضا من التصوير أثناء الانقضاض

عليه. وكما نطوف بالبيت الحرام سبع مرّات في الحجّ والعمرة؛ فلا بدّ من التقاط سبعين صورة وربّما أكثر لتوثيق اللحظة الباهرة أمام الكعبة الطاهرة، ثمّ المتابعة علىٰ النسق نفسه داخل الروضة الشريفة وأمام قبر النبيّ الكريم وصاحبيْه. ناهيك عن أوقات الفسحة والسّفر والسّمَر، التي لا تصحّ ولا تجوز إلّا إذا تعرَّت تحت ضوء الكاميرا، ثمّ انبرَت علىٰ شاشة الجوّال، وشقّت طريقها إلىٰ بَنان المعجَبين وأنامل المُعلِّقين علىٰ صفحات الكوكب الأزرق المُسَمّىٰ فيسبوك أو الأحمر المُسمَّىٰ إنستجرام وربيبه سناب شات؛ حتىٰ باتت خصوصيتنا محلّ شكّ، وصارت حياتنا أشبه ما تكون بجوربٍ مقلوب وكتابٍ مفتوح وبيتٍ من زجاج.

ويبلغ الجنونُ مداه؛ حين يَلزم تمييز الصورة بحركات الوجْه التعبيرية المصطَنَعة، مِن قبِيل إخراج اللسان وذمّ الشفتيْن ورفع الحاجبيْن وما شابه. أو حين يَلزم التصوير في لحظاتٍ حرِجة وأوضاعٍ خطرة؛ كهذا الذي أَلحّ عليه شيطان تصويره وهو علىٰ قمّة جبل يبلغ ثمانية عشر مترا؛ ففقد اتّزانَه ولقي حتفه بين الصخور! وهذا الذي طغت عليه النشوةُ أثناء القيادة السريعة علىٰ الطريق؛ فاستقرّ به المقام أشلاءً تحت عجلات السيارات! وثالث تفنَّن في تصوير نفسه أثناء الغوص؛ فغافله الموج، وخانه البحر،

ومات غريقا! ولعلّ هذا غيضٌ مِن فيْض وموجٌ في بحر، ضمن حوادث عديدة كان وراءها جوّالٌ ذكيّ في يدٍ غيْر ذكيّة.

وفي الوقت الذي تُفصح فيه استطلاعاتُ الرأي بين الشباب -باعتبارهم أكثر الفئات تصويرا- عن أنّ الأمرَ عاديّ ولا يَعدو كونه ملفّا لذكرىٰ تجلب المتعة، ووسيلةً للتشارُك وتوطيد العلاقات، وأداةً للتعبير ومسايَرة العصر؛ فإنّ خبراء نفسيين دخلوا علىٰ خطّ الظاهرة بعد أن استفحلَت فجاوزَت المعقول، وتفاقمت حتىٰ شارفَت حدّ الهوس والهستيريا؛ وفسّروها علىٰ أنّها إغراقٌ في التعبير عن الذات وصل إلىٰ طوْر النرجسية المرَضية، وأنها تُنبئ عن ضعف الثقة بالنفس، وتُشكّل بابًا خلفيّا لتعويض النقْص وإشباع غريزة التملُّك وجذب الانتباه والاهتمام، وتؤشِّر علىٰ الخواء الفكري والروحي. كما يتّهمونها بالسبب وراء الارتفاع الجنوني في معدّل إجراء عمليات الجراحات التجميلية، نظرًا للانشغال بالشكْل واللهاث وراء الصورة.

وفي هذا سطّرت الفيلسوفة والمحلّلة النفسية الفرنسية ألسا غودار كتابها **"أنا أصوّر (سِلْفي) إذن أنا موجود"**، وذلك علىٰ طريقة كبيرها الذي علّمها الفلسفة الفرنسي ديكارت في قوله **"أنا أفكّر إذن أنا موجود"**؛ وفيه حذّرت من هذه الظاهرة الاستعراضية الغارقة في المَشهدية؛ لأنها

تجنح بنا نحو ثقافة ضحلة خرساء تحلّ فيها الصورة محلّ الكلمة والفكرة، وتعيدنا إلىٰ طور المرآة الذي تسكنه الطفولة، وتخلع علينا عباءة النرجسيّ نرسيس في الأسطورة اليونانية القديمة والشهيرة.

وقد أدلىٰ الرسّامون بدلوهم باعتبارهم أولاد عمومةٍ للصورة؛ فقال الرسّام الإنجليزي (جون راسكن): **"الكاميرا تُعمينا عن رؤية جمال ما يُحيط بنا، بينما الرسم يَجعلنا ندرس الجمال بدقة وتأمّل، عبر إعادة خلْق ما نراه في العالَم علىٰ الورق"**. وقال الرسّام الإسباني (بابلو بيكاسو): **"الصّور أسلحة للدفاع أو الهجوم علىٰ الأعداء، وليْست للتعليق في البيوت"**.. والواقع أنّ اللحظات الجميلة تتمدّد بالتفاعل معها روحيّا وفكريّا، وتتضاعف إذا أقبلْنا عليها بكلّ حواسّنا وعِشناها بكلّ تفاصيلها؛ فالزمَن لا يتجمّد، والمُتعة لا تُؤجّل، والرياح إذا أقبلَت وجب اغتنامها قبل أن تُدبر ولا تعود.. وعندها سيختزن العقلُ الذكريات وتنقشها الروحُ علىٰ صفحة الفؤاد، وتبقىٰ جاهزة للاستدعاء شهيّةً كخبز التنّور وسائغةً كعصير طازج، لا مجمَّدةً كطعام البرّاد ولا محفوظةً كاللحم المستورَد، وذلك حينما يَضنّ الزمن بالسعادة ويَغبرّ وجهُ الواقع، ودون الحاجة إلىٰ ألبوم الصور وذاكرة الجوّال. مع العِلم أنَّ الذكرياتِ -أيّا كان مصدرها- يُمكن أن تُضمّد الجراح وتُنعش الروح للحظات؛ بينما الإنجاز تلْو

الإنجاز هو وحده الكفيل بالحفاظ علىٰ عافيتِنا وإنعاشِنا علىٰ مدىٰ الزمان.

يقولون: اضحك لِتكون الصورة أحلىٰ، والحقيقة أنّ أجمل الصور وأنفعها هي صورة العقل لا البدن؛ وبالتالي علينا أن نفكّر لتكون الصورة أحلىٰ، ونعمل لتكون الصورة أنفع، ونرتقِي لتكون الصورة أجمل، ثمّ نُصوِّر أفكارَنا وأعمالَنا بكاميرا الحياة وجوّال الفِعل، لِتبدو علىٰ هيئة كتابٍ أو منتَجٍ أو إبداعٍ أو اختراع، فالله لا يَنظر إلىٰ صورٍ ليس لنا دخْلٌ في تشكيلها، بل يَنظر إلىٰ قلوبٍ وُكِّلنا بسلامتها وإلىٰ أعمالٍ كُلِّفنا بها، وذلك حسبما ورد في الحديث الشريف: **"إنّ الله لا ينظر إلىٰ أجسامكم ولا إلىٰ صوركم ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم وأعمالكم"**.

لا شكّ أنّ الندرة تصنع القيمة، ولو كان التّبرُ ترابًا لَما سجد أمام محرابه المال ولَما اشتاقت لبريقه أجيادُ النساء؛ وعلىٰ هذا فقليل الذكريات أجْدىٰ مِن كثيرها وأدْعىٰ لاسترجاعها والتمعّن فيها، خاصة أنّ الواقع يشهد بأنَّ آلافَ الصور التي تملأ جوف جوّالاتنا قلّما نجد الوقتَ والظّرْفَ للطواف حول طيْفها والسعْي بين أطلالها، هذا إذا افترضْنا أنَّ المادّة الخام لتلك الصور وهي الأحداث والمواقف والشخوص لم يُصبها التجعّد بالتقادُم، ولم تتسرّب مِن الثقوب مع مرّ السنين، ناهيك عن

أنَّ حالَنا اليوم يُؤكّد علىٰ أنّ العالَمَ بعد هذه الثورة الصُّوَريّة والانفجار الكاميراتي -إن جاز التعبير- لم يَعُد أسعد حالًا ولا أكثر تآلفًا ولا أشدّ تعارفًا عن ذي قبل، بل صار أبْأس حالًا وأكثر تشتُّتًا وأشدّ صخبا!

أَضِف إلىٰ ذلك أنّ ما تفعله الكاميرا ليس إلّا محاولة بائسة لتجميد الحدَث داخل إطار الصورة، وسجْنه خلف قضبان اللحظة؛ وبالتالي فإنّ ما يَبقىٰ مِن الحدث خارج الصورة أكثر بكثير ممّا بداخلها، أي أنّنا صرنا إزاء حدَث مبتور ولحظة مشوَّهة، أمّا فكرة **"الصورة لا تكذب"** والتي اعتقدْناها طويلا قبل بزوغ الحواسيب، واعتمدْناها كناقلٍ حقيقيٍّ للواقع المَلموس، فقد باتت محلّ شكّ وبشدّة، وصارت موضع تضليلٍ وتدليس، خاصة بعد وجود البرامج القادِرة علىٰ تعديل الصورة؛ تارة بتجْميلها حتىٰ لَتبدو الخنفساء ملكة جمال، وتارة بمسْخها لتصبح الغزلانُ قرودًا وفئرانا.

وهنا جاز للمنطِق أن يتوقّف عند سبب الهروب من العالم الواقعي الملموس إلىٰ العالم الافتراضي الوهمي، ويتساءل عن جدوىٰ إغراق ذاكرة الأجيال القادمة بهذا الإرث الثقيل مِن صورنا، و يتعجّب مِن الحكمة وراء كتْم خيالهم بحضورنا الكثيف مِن أمامهم وخلفهم وعن أيمانهم وشمائلهم، ويتخوّف مِن كسَل الذاكرة الحيّة باعتمادها علىٰ

الذاكرة الإلكترونية، ويُحذِّر مِن أن تَقضي سطوةُ الصورة على قوّة التصوّر الذي يَنبني عليه الإبداع والابتكار. كما جاز له أن يَتأسّف لِذكرياتٍ بلغت مِن الزخم ما لو تمعَّن فيها اللاحقون مِن المُحبِّين بعد رحيلنا؛ لتقطّعت نياطُ قلوبهم، ولَفتك الأسى بأكبادِهم، ولصارت الذكرى -التي وصفتْها الكاتبة (غادة السمّان) بأنّها هويتنا الأخرى التي نُخفِي حقيقتها عن الآخَرين- عائقًا لا دافعا وعثرةً لا خُطوة ولهيبًا لا نُورا... ولِم لا والذكريات الجميلة تُحزننا لأنّها رحلت عنّا ولا سبيل لعودتها، وكذلك الذكريات الحزينة لأنّها تنكأ جرحا ربّما كان في طريقه للاندمال!

وهكذا يبقى السّرَفُ مذمومًا في كلّ وقتٍ وحال، حتى لو تَخفَّى وراء شعاراتٍ تُدغدغ العاطفة وتَخطب ودّ الأفئدة، بينما يَبقى الاعتدال دستور حياةٍ وضَع بنودَه العليمُ بأحوال العباد، ودعا إليه الأنبياءُ والمرسلون، وتَبنّاه المصلِحون في كلّ صقعٍ وحِين.

(2) مُعلِّمون مِن ذهَب

"القارئ كالحالِب والسّامع كالشّارب"؛ مقولة يقطر منها شهْد البلاغةُ ويفوح عبير الحِكمة؛ إذْ إنَّ القارئ يَنصبّ اهتمامُه علىٰ الحروف والكلمات، ويركِّز همَّه في علامات الإعراب؛ ليَسلَم مِن الزّلَل ويتلافىٰ الخطأ ولا يُفتضَح. بينما السامع متفرِّغ للتدبُّر فيما يَسمع، ومُنشغِل بالتأمّل فيما يُقرأ له؛ فيَجنِي بذلك يانعَ الثمر ويَنعم بأطيب الفوائد. ورغم عدم معرفتي بمَن طرّز تلك المقولةَ علىٰ ثوب اللغة القشيب، ونحَتها علىٰ جبين البلاغة الأَشمّ الأغرّ؛ حتىٰ سار بها الركبان وغرَّد بها الخطباء والفصحاء؛ إلّا أنّي أعلم عِلم اليقين أوَّل مَن ساقها إلىٰ أُذني وسكبها في رَوْعي.. ولِتلك قصّة تُروَىٰ.

ففي المرحلة الإعدادية، وقبل نحو أربعة عقود[1]، دأب مدرِّسُ التربية الإسلامية علىٰ اختياري من بين أقراني لقراءة الدرس قبل البدء بالشرح،

(1) أرجو أن لا يَعجَب قارئ من ذاكرة تسترجع ما حدث قبل أربعين عاما، فالمرء وإن بلغ من العمر عتيا، يكون لذكرياته البعيدة أحفظ ولاسترجاعها أيسر ولتفاصيلها الدقيقة حاضر البديهة، فيما عدا أسماء الأشخاص التي سرعان ما تعطب وتتسلّل من ثقوب الذاكرة.

وذلك علىٰ عادة المدرِّسين آنذاك في كتابة الدرس علىٰ السبورة ثمّ تكليف أحد الطلّاب المُجِيدين بقراءته قبل أن يَشرع في الشرح والنقاش. ولمَّا تكرَّر الأمرُ دوالَيْك حتىٰ صار مِن المُسلَّمات، تَملْمل بعضُ الطلبة فأَبْدوا امتعاضَهم ولوّوْا رؤوسهم، مطالِبين بحقِّهم في كعكة القراءة ومُتشوِّفين إلىٰ إشباع شهوة الظهور وحيازة شرف التحدُّث. فما كان مِن المدرِّس عندها، إلَّا أنْ ساق لهم هذه المقولة: **"القارئ كالحالب والسامع كالشارب"**، ثمّ سألهم: أيّهما يُفضِّل العاقل: الحَلْبَ الذي يكدّ صاحبُه في القبض علىٰ الضّرع وإحكام الآنية تحته ثمّ بذْل الجهد في اعتصار الثدي تلْو الثدي، أمْ الشُّرْبَ الذي يَهنأ فيه صاحبُه بغنيمة باردة المَنال ولبن سائغ المذاق؟ فاختاروا الشُّرْب علىٰ الحَلْب، وطابت الخواطر، ومرَّ الأمرُ مرور الماء في الغدير والنسيم علىٰ الخدود.

والحقّ أنّه-رحمه الله- كان مُعلِّما صبوح الوجْه هادئ القسَمات خفيض الصوت حَيِيَّ الطبْع سمْح الخُلُق، وكان له مِن اسْمه نصيب إذْ يُدعَىٰ **"مطيع"**، ولولا هذه السّمات الخِلقية والخُلقية لَما جرؤ أحدٌ من الطلبة علىٰ إبداء الاعتراض تلميحا أو تصريحا. ولولا تلك الشمائل التي انطبعَت بها شخصيّةُ الرجل؛ ما تَولَّد عنه هذا الردّ الليِّن الرفيق الذي احترم السؤال ولم يُعنِّف، وحَكَّم العقْل ولم يُسفِّه، وعالج بالحِكمة ولم يَجرح. ولولا سماحة جانِبه، وتَمكُّن حُبّه مِن قلوب طلّابه، حتىٰ صارت

الصلةُ بينهما كيمياءَ لا فيزياء وديناميكا لا ميكانيكا؛ لَما تَقبَّلوا الأمْر إلّا علىٰ مضض، ولَعادوا إليه ولو بعد حين.

بل ولولا ثقافته العالية، واطّلاعه الواسع؛ لَما أَسعفتْه القريحةُ بهذا الردّ الجامع، ولَما أُلهِم هذا الجواب الماتع. ذاك الجواب الذي نحّىٰ فيه عصًا غليظة كانت يومئذ سيدةَ المواقِف بلا مُنازع، حتىٰ لَتتهاوىٰ علىٰ الرؤوس والظهور، وتلهب المؤخِّرات وأطراف الأصابع، لأسباب أتفه مِن ذلك بكثير. علاوة علىٰ أنه فضَّل مبارزة الروح للروح والعقْل للعقْل، لا الكفّ لِلقَفا والقدَم لِلعَجُز؛ بعدما خاصم دستور القهْر والكبْت، وطلَّق حنجرة التخويف والوعيد؛ والتي كانت آنئذ أسواطا جاهزة للحلّ وأبواقا عالية للربْط. ولا يظنّن أحدٌ هنا أنّ الرجل كان شخصية سائلة مهزوزة تفتقر إلىٰ هيبة تُعدّ مكوّنا أساسيا في شخصية كلّ معلّم ومربّ وأب وأمّ، وتضمن لهم القدر الكافي من التقدير والتوقير؛ بل كان علىٰ الضدّ من ذلك، سواء علىٰ مستوىٰ الهيئة البدنيّة أو السلوكيّة.

وهنا نضع أيدينا علىٰ فهم مغلوط؛ مفاده أنَّ الاستماع عملية سلبيّة ينتظر فيها السامعُ دورَه في التحدُّث لا أكثر، وأنَّ المستمِعَ مفعول به لا فاعل ومستقبِلٌ لا مُرسِل، وأنَّه بهيئته هذه ليس إلّا طائرا منتوف الريش مهيض الجناح كَسير الخاطِر، وبالتالي فإنّ نصيبَه مِن التركة التعليميّة أقل

مِن نصيب الإناث في الميراث زمن الجاهلية! وهذا علىٰ خلاف ما يراه خبراءُ التربية وأربابُ التعليم، الذين يُقِرون بأنّ الاستماع الجيّد هو البوابة المَلَكية لِتلقِّي الرسالة التعليمية، ومِن ثمّ إحداث الأثر التربوي والسلوكي المُراد. ناهيك عن أنّ هذا الفهم يُنافي ما أشار إليه (ابن المبارك) حين بوّأ الاستماع أعلىٰ مراتب العِلم بعد النيّة، وجعله الحلقة الأقوىٰ في سلسلة الطلَب، **فقال: "أوّل العِلم النيّة، ثمّ الاستماع، ثمّ الفهم، ثم الحفظ، ثمّ العمَل، ثم النشر"**. وينافي أيضا حقيقة السماع التي وصفها (ابن القيم) في (مدارج السالكين) **بأنها: "تنبيه القلب علىٰ معاني المَسموع، وتحريكه طربا وهرَبا وحُبًّا وبُغضا"**. وفي هذا، كثيرا ما نسمع **قولَهم:** رُبّ سامع أوعىٰ مِن قارئ، ورب مُبلَّغ أوعىٰ مِن سامع...ومعلوم أنَّ المُبلَّغ سامِعٌ ثان تَلقّىٰ عن سامع أوّل.

وبالرجوع إلىٰ مهارات اللغة الأربع؛ **وهي:** الاستماع، والتحدّث، والقراءة، والكتابة؛ نجد أنَّ مهارةَ الاستماع هي الأكثر هيمنة مِن حيث الاستعمال والذيوع؛ فبلغة الأرقام، نحن نقضي نصفَ أعمارنا في الاستماع، بينما نقضي النصف الثاني إمَّا متحدِّثين بنسبة تقارب 30٪ من أعمارنا، أو نقرأ ونكتب فيما تَبقَّىٰ لنا من النسبة الكليّة من أوقاتنا وهي 20٪، أو بلغة الأدباء: **"نستمع إلىٰ ما يُوازي كتابا كلّ يوم، ونتحدّث ما**

يوازي كتابا كلّ أسبوع، ونقرأ ما يوازي كتابا كل شهر، ونكتب ما يوازي كتابا كلّ عام"، ولهذا عُدَّ الاستماعُ مِن عادات العقلاء وصفات الحكماء[1]، وثمَّنه الشاعر الإنجليزي (جون ميلتون) عاليا **فقال: "الاستماع درس الحياة الذي وددتُ لو أنِّي تعلّمتُه منذ زمن بعيد"**.

علىٰ أنّ الاستماعَ المقصود هنا هو ما اقترن بالفهم واقترب مِن الاستيعاب وتَفاعل مع الوجدان، فكان إصغاءً أدرك به صاحبُه المعاني، وإنصاتا قبض بموجبه علىٰ الأفكار، ثمّ أَوْدعها بنظام في خزانة الذاكرة، ليَسهُل استرجاعها وقت الحاجة إليها، بما يَعني أنَّ الاستماع كان عقليا وقلبيا، وأنَّ الحواسّ جميعها كانت حاضرة وبقوّة، وأنّ الأُذن لم تكن إلّا أداة توصيل وجسر عبور ونفق وصول. وربّما هذا هو النوع الذي عناه (سليمان بن موسىٰ) ومدحه **بقوله:**

"يجالس العلماءَ ثلاثة: رجل يسمع ولا يكتب ولا يحفظ؛ فذاك لا شيء. ورجل يكتب كل شيء؛ فذلك الحاطب. ورجل يسمع العلم فيتخيّره ويكتب؛ فذلك العالِم".

(1) في معرض حديثه عن طه حسين، وصفه صاحب دار المعارف بقوله: كان رحمه الله يحسن الإنصات، وكان إنصاته من النوع الجميل.

وهنا يُفرِّق اللّغويون بين السَّماع والاستماع، باعتبارهما مُختلفيْن في النوع لا في الدرجة؛ إذْ يفتقد السماع إلىٰ الإرادة والإيجابية، ويؤدِّيه صاحبُه بطريقة آليّة، بينما يَتوفَّر الاستماعُ علىٰ المهارة والإرادة، ويتّسم بالإيجابية والمِصداقيّة. وكذلك يُميِّزون بين الاستماع والإنصات؛ اللذيْن يتفاوتان في الدرجة لا في النوْع، وبالطبع يُعتبر الإنصاتُ أعلىٰ درجة وأرفع مقاما؛ إذْ به يَكمُل الفهم ويَحسُن الجواب، ومِن ثَمّ مِن مزالق المثل **القائل: "مَن أساء سمْعا أساء إجابة"**.

وإذا كان ربُّ العزّة والجلال قد ضَمِن الرحمةَ لِمَن يَستمع ويُنصت للقرآن الكريم ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾[1]، فإنَّ حِكمةَ المُربِّين الذين يَصنعون الناشِئة علىٰ أعينهم، وتجاربَ الخبراء الذين عركوا الحياة وخبروا دروبَ النفوس، تُبشِّرنا بأنَّ إجادة مهارة الاستماع كفيلةٌ بإهدائنا فهْما أفضل، وتَعلُّما أسرع، وتَواصُلا أجْمل وأرْقىٰ، بل وعالَما أهْدأ وأسْعد. وإذا كان (أفلاطون) في مدينته الفاضلة قد حجز المكانة الذهبيّة لطبقة أهل الحُكم الذي يَسوسون الناس ويُسيِّرون شئونَهم؛ فإنَّ الذهبَ أليق وأجْدر بهؤلاء الثلَّة مِن المعلِّمين الذين

(1) الأعراف 204.

يَصوغون أجيالا مِن عقيق؛ فيُعلِّمونهم الحكمة قبل المعرفة، والثقافة قبل التعليم، والأدب قبل العِلم، وهُم بهذا أحقّ الناس صِدقا وعدْلا بقول أمير الشعراء:

"قُــم للمعلِّــم وفّــه التبجــيلا كـاد المعلـمُ أن يكـونَ رسـولا"

(3) معلِّمون مِن ورق

في كتابه (بهجة المجالس)، ذكَر (ابن عبد البرّ) رحمه الله، أنَّ أربعةً تَقبُح، وهي في أربعة أقبَح؛ أوّلها البخل في الأغنياء، ثمّ الفُحش في النّساء، والكذب في القُضاة، والظُّلم في الحُكّام. وذلك لأنّ العقلَ يحتار والمنطقَ ينتحر؛ أمام غنيّ أفاء الله عليه وبسَط له العيْش، ومع ذلك يقبض يدَه ويغلّها إلىٰ عنقه! وإزاء النساء اللائي فُطِرن علىٰ الحياء وجُبِلْن علىٰ العفاف، ومع ذلك يَتفحَّشْن ويَتبذَّلْن! وتُجاه قاضٍ مُوكَّل بالبحث عن الحقيقة، ومع ذلك يدلّس فيدهس الحقيقة! وحيال حاكِم ملَّكه الله البلادَ والعباد، ومع ذلك يسوس بعصا البغْي وسوْط الظلم! والحقّ أنّ الإمام (ابن عبد البر) الذي أنار شعلة الفقه والحديث والتاريخ في دروب الأندلس قبل ألف عام تقريبا (368-463هـ)، لو أُعْطِي عُمر نوح عليه السلام؛ واطّلع علىٰ ما سأرويه، لَأضاف خامسةً تكتمل بها عدّة أصابع يد القُبح، وهي الغِشّ في المُعلِّمين!

ذلك أنَّ مدْرستِي الإعدادية المُوقَّرة، وفي مطلع الرُّبع الأخير من القرن الفائت؛ استضافت مدْرسةً أخرىٰ ضمن ما يُعرف بالزيارات الطلابية، وأَعدّت لذلك برنامجا حافلا دُعِي له الأكابر من الرؤوس والأعيان، كما عُلّقت الراياتُ في الطرقات، واحتَشد الطلّابُ من كافّة الصفوف، حتىٰ بدا الحدَث احتفاليًّا بامتياز. ولمَّا كانت الفقرة الرئيسة هي مسابقة علميّة بين فريقيْن يُمثّلْهما أوائلُ الطلبة في كِلتا المدْرستيْن؛ فقد كُلِّف أحدُ مدرّسينا بإعداد أسئلة المسابقة ووضْع الإجابات النموذجيّة، وهو ما قام به المعلِّم خيْر قيام، ولكن ما إنْ فرغ مِن مهمّته، حتىٰ جمع فريقَ مدرستنا في حصّة غِشّ جماعي مِن فئة الخَمس نجوم، وقام خلالها بتحفيظنا الأسئلة والأجْوبة واستظهارها غيْبا بين يديه!

بل وأَسْدىٰ إلينا نصائحَ عَشر تقضي بأن نطلب مِن المدرِّس الذي يُوجِّه إلينا الأسئلة إعادة السؤال والاستيضاح! مع التظاهر بالتشاور بين أعضاء الفريق قبل الإجابة! والتأكيد علىٰ عدم البوح بالإجابة إلّا قُبَيل انتهاء الوقت المسموح للجواب! بل وأَوصىٰ بطلب تمديد الوقت أحيانا! كما نبّه علىٰ أن نُبالغ في إظهار الفرح والابتهاج عندما نحصل علىٰ درجةٍ نظير إجابة صحيحة! والحقّ أنّنا مثّلنا الدوْرَ كما طلَب المُخرج، فنجح

الفيلمُ باقتدار، وفاز فريقُ مدرستنا فوزا ساحقا، وانْتشىٰ الجميع علىٰ أنغام الغشّ وألحان الخداع! وصدق فينا قولُ (ابن التعاويذي):

إذا كـــان ربّ البيـــت بالـــدفّ ضـــاربًا

فـــشيمة أهـــل البيـــت كلّهـــم الـــرقصُ

ويبدو أنّ الأمر ليس فريدا في بابه ولا غريبا من نوعه؛ إذْ ذكر الشيخ (علي الطنطاوي) أنّ مدرّس الخطّ أراد أن يبرز تضلّعه في مادّته ومهارة تدريسه لطلّابه، فدعا كبار الخطّاطين إلىٰ المدرسة، ثمّ وزّع علىٰ طلّابه أوراق الامتحان، وأَملىٰ عليهم سطرا يكتبوه مرّة بالخطّ الفارسي ومرّة بخطّ الثّلث ومرّة بخطّ الرقعة، وبعد الامتحان أَطلع الحضورَ علىٰ مهارة الطلبة وإبداعاتهم التي نالت الإعجاب والاستحسان، ولا يدري هؤلاء الحضور أنهم وقعوا ضحية لتمثيلية رخيصة ملؤها الغشّ، إذْ كتب المدرّسُ السطور الثلاثة في أوراق الامتحان ولكن بالقلم الرصاص، ولم يكن علىٰ الطلّاب –بعد الاتفاق معهم– إلّا أن يمرِّروا أقلامهم علىٰ الخطّ الرصاص وكأنهم هُم مَن كتبوا الحروف!

وبعد التأكيد علىٰ أنّ التعميم ينمّ عن ضيق الأفق، ويفتقر إلىٰ الإنصاف، ويضرب عميقا في أسس المحاكمة العقلية السليمة؛ فإنَّ مِن

الإنصاف أن نعترف بأنّ ثمّة نماذج بين المعلِّمين تُثير الاستياء وتَبعث علىٰ النفور وتجلب العار، نماذج أخْلدَت إلىٰ الأرض ولم تبرح طوْر التكسّب والارتزاق الوظيفي، فلا تدرِي مَن تكون؟ ولا كيف تكون؟ ولا إلىٰ أين تذهب؟... وكفىٰ بالمعلِّم ضياعا أن يَجهل هويّتَه ويَضلّ قصدُه وتَفسد وسيلتُه، حتىٰ لَيصبح لسانُ حاله: للراتب وحدَه يعمل الأستاذ! وعن التعليم وحدَه يُسأَل المعلِّم!

فالواقع الذي يغفله بعضنا؛ أنّ التربية والتعليم يرتبطان معا برباط مقدّس يَحرُم فكّه، ويتّصلان سويّا عبر حبل سُريٍّ يستحيل قطعه، وفكّ هذا الرباط وقطْع هذا الحبْل لا يعني إلّا الموت المحقّق لكليْهما.. فالتربية التي هي وعْيٌ نفسيّ وروحيّ؛ تتنفّس مِن رئة التعليم، والتعليم الذي هو وعْيٌ ذهنيّ فكريّ؛ ينبض بقلب التربية ويتغذَّىٰ من شرايينها. والتربية المَعنيّة هنا، هي تلك التي غرفت مِن معين الحضارة الإسلامية، وصنَّف فيها الأقدمون: أمثال (ابن سحنون) و(الجاحظ) و(الفارابي) و(الغزالي)، وغيرهم مِن المُحدَثين الذين ساروا علىٰ دربهم وحذوا حذوهم. لا تلك التربية التي ترتكز علىٰ نظريات غربية؛ بنَت قواعدها علىٰ أسس يونانية ورومانية، وعلىٰ شواهد مُستقاة من التوراة والعهد الجديد، بينما خاصَمت الموروث الحضاري الإسلامي العريق.

ومع أنَّ الأيّام أكبر معلِّم، وكلّ مسؤول في موقعه يُعدّ معلِّما بصورة أو بأخرىٰ؛ إلّا أنّ الدور المركَّب الذي يلعبه المعلّمُ يمنحه أبعادا أوسع مدىٰ وأشدّ خطرا، إذْ إنّ فئات المجتمع برمّتها تمرّ مِن تحت يده، فتستنشق هواءَه وتَحُوز بعضا مِن صلاحه أو طلاحه. علاوة علىٰ أنّ كلّ متعلِّم سيصبح معلّما غدا أو بعد غد في مجال من مجالات الحياة المتعدّدة، ولك أن تتخيّل تَسلسل القِيم في تلك المتوالية التعليميّة إذا اختلّ أصلُها ونخر السوسُ جذعَها، وما الأصل والجذع هنا إلّا معلّم قامت علىٰ أكتافه العملية التعليمية والتربوية. فرغم أنّ البيئة التربوية تتشعّب لتشمل خماسيّة (الأسرة والمدرسة والأصدقاء والإعلام والمسجد)؛ إلّا أنّ نصيب الأسد (60٪) محجوز للأسرة والمدرسة. وكما يقوم الآباء مقام العُمُد في الأُسَر؛ فإنَّ المعلِّمين هم عُمُد المدارس وأوتادها، أمّا المباني الإسمنتيّة والمناهج الورقيّة والوسائل الإيضاحيّة، فليست إلّا جوامد ساكنة وجثثا هامدة، ولا يَبعث روحَها ويُوقد فتيلَها إلّا المعلِّم. وقد قِيل للإمام (أبي حنيفة): في المسجد حلقة ينظرون في الفقه، فقال ألهم رأس (أي معلِّم) ؟ **قالوا:** لا، **قال:** لا يفقه هؤلاء أبدا. وعندما سُئل القائد الألماني بسمارك: كيف استطعتَ هزيمة الفرنسيين بعد أن كانوا يهزمونكم؟ **قال:** هزمتُهم بالمدرّس الألماني.

وإذا كنا نثمِّن ما يَمتاز به بعضُ المعلِّمين من خصائص معرفيّة تمكّنه من الإلمام بمادّته وتوصيلها بأنجع الطرق، إضافة إلىٰ مهاراتٍ إداريّة تؤهّله للتحكّم في حركة الطلاب وحُسْن قيادتهم؛ فإننا نثمِّن أكثر تلك الخصائص الشخصيّة التي تُحدِث الأثر التربويّ لدىٰ الطلّاب، فتحفر عميقا في بنائهم النفسي والعقلي والروحي، وتأخذ بأيديهم نحو الكمال الذي يحقّق لهم سعادة الدارَيْن، وهو ما أكَّد عليه المفكِّر (عبد الكريم بكار) صاحبُ الباع التربويّ الطويل **بقوله: "التعليم المُثمِر مرتبط بالخصائص النفسية للمعلِّم أكثر من ارتباطه بالمهارات الفنية وكميات المعلومات التي لديه"**، بما يَعني أنَّ المعلِّم ناقلٌ قِيَمي قبل أن يكون ناقلا معلوماتيا، وصاحبُ رسالة قبل أن يكون صاحبَ شهادة، وكفاءةٌ تربوية قبل أن يكون كفاءةً عِلميةً وإداريّة.

ولأنّ صلاح الزروع مرتبط بصلاح البذور، وصحّة البنيان تعتمد علىٰ سلامة الأساس؛ فلا صلاح لمُجتمع إلّا بصلاح تعليمه، ولا صلاح لتعليم إلّا بصلاح معلِّم يَعي أنه وريثٌ للأنبياء فيتسلّح بالفضيلة، ويتذكّر أنَّه معلِّمٌ للخير فلا يُفوِّت الأجْر، ويدرك أنّه بانٍ للحضارة فيشمّر عن عقْل وقلب وروح، وليته يتمثّل الصفات التي اشترطها (ابن سينا) في المؤدّب حين **قال:**

"ينبغي للمؤدِّب أن يكون عاقلا ذا دين، بصيرا برياضة الأخلاق، وقورا رزينا بعيدا من الخفّة والسخف، قليل التبذّل والاسترسال، غير كَزٍّ ولا جامد، حلوا لبيبا ذا مروءة ونظافة ونزاهة".

وعلىٰ أن لا يَغيب عن ذهنه، أنّ تلك العقول التي بين يديه مازالت غضّة نديّة، لم تبرح قفص المحاكاة والتقليد، ولا زالت في طور البحث عن الأسوة لتصنع النموذج الخاص بها في مقتبل أعمارها، وبصدد التنقيب عن القدوة لتتخلّق بأخلاقها وتقبس من فيض نورها وطِيب ثمرِها. بمعنىٰ أنَّ البضاعة التي يقلِّب فيها يديه ليل نهار، والعجينة التي يُعمِل فيها جهده علىٰ مدار الأيام؛ أطْيع من ماء وأَخْفض مِن أرض وألين من زُبد، وهو ما يجعل مسؤوليته مضاعفة وثوابه ضِعفيْن. وهذا ما أكّد عليه الإمام (الغزالي) في الإحياء حين **قال: "قلب الطفل جوهرة نفيسة ساذجة، خالية عن كل نقش وصورة، وهو قابل لكلّ ما يُنقش، ومائل إلىٰ كلّ ما يُمال به إليه، فإنْ عُوِّد الخير وعُلِّمه؛ نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة، وشاركه في ثوابه أبوه وكلّ معلم له ومؤدّب. وإنْ عُوِّد الشرّ**

وأُهمِل إهمال البهائم؛ شقي وهلك، وكان الوزر في رقبة القيّم عليه والوالي له".

ولهذا أرشد (عمرو بن عتبة) معلِّمَ ولدِه قائلا: **"ليكن أوّل صلاحك لِبنيَّ إصلاحك لنفسك؛ لأنّ عيونَهم معقودة بعينك، فالحَسَن عندهم ما صنعْت، والقبيح عندهم ما تركْت"**، ويُعضِّد هذا روايةُ (الحسيْن بن إسماعيل) عن أبيه حين **قال: "كان يجتمع في مجلس الإمام (أحمد بن حنبل) زهاء خمسة آلاف أو يزيدون، نحو خمس مائة منهم يكتبون، والباقي يتعلّمون منه حسن الأدب والسمت"**، وقول (أبو بكر بن المطوعي): **"اختلفتُ إلىٰ أبي عبد الله ثنتَي عشرة سنة، وهو يقرأ (المسند) علىٰ أولاده، فما كتبتُ عنه حديثا واحدا، إنّما كنتُ أنظر إلىٰ هدْيه وأخلاقه"**، أمّا (ابن وهب) **فقال: "ما نقلْنا مِن أدب الإمام مالك أكثر ممّا تعلّمْنا مِن عِلمه"**.

ورغم ما أسلفْتُ من رواية الغشّ التي باء بكِبْرها أحدُ المعلِّمين غفر الله له، وأكّدَت علىٰ ما ذكره طه حسين من أنّ فساد التعليم ينبع من جعْل الامتحان غاية لا وسيلة؛ فإنّ قناعتي تظلّ راسخة بأنَّ الخيرَ بين معلِّمينا لم ولن ينفَد، وأنَّ ذهبَهم إبريز لا يصدأ، وأنّ ما يُلبِّد سماءَهم الصافية ويُعكِّر نبعَهم العذب؛ ليس سوىٰ بيئة ضاغطة ظالمة؛ أَسْهمت في تثبيط

الهِمم، وقلَبت الأمورَ رأسا علىٰ عقب، وعصفَت بالتربية والتعليم معا. فالعملة الجيدة تطرد العملة الرديئة ولا ريب، والثوب الأبيض يظلّ أبيضا وإن شابَه بقعةٌ سوداء، والشمس الساطعة لا يَحجب السحابُ ضوءَها ولا يَطمس الغيمُ بأيّ حال وجهَها. وبهذا فإنّ في الإمكان-بإذن الله- أبدع كثيرا ممّا كان، وستبقىٰ المدارس والجامعات تجُود بأفاضل المعلِّمين الذين يَحمون الثغور ويَرأبون الصّدوع ويَبنون الحصون.

(4) الهواية حياة

أكاد أجزم أنّ أحوالنا المتردّية ستتغيّر إلىٰ الأفضل لو أَصغينا إلىٰ شغف يعتمل بين جوانحنا تجاه نشاط ما، هذا الشغف والولع الذي نسمّيه هِواية، ولكننا في كثير من الأحيان لا نتسمّع صوتها ولا نتلمّس صداها ولا نصغي لشدْوها، لتَضمر علىٰ أثر هذا الإهمال وتنكمش، ثمّ تخرس تحت وقع تفريط ولامبالاة عقيمة يمارسها بعضنا تجاهها، بزعمها زائدة دودية لا ضيْر من بترها، ودرهما عقيما لا يشتري خبزا ولا يرفع للبورصة سهما! مع أنّ العقّاد لم يكن كذلك إلّا لأنّه أذعن لشغف اكتشفه فيه الإمام محمد عبده ونبّهه إليه، بل وبشّره بأنه سيكون كاتبا يُشار إليه بالبنان، ولولا هذا الميْل والإذعان لظلّ موظّفا في أرشيف مصلحة الأوقاف، يدور في فلك المنصب ويجري وراء لقمة العيش. وقِس علىٰ ذلك مبدعين كُثُر انتصروا لهواياتهم؛ فجدّوا في السّهر علىٰ صقلها وتطويرها، حتىٰ لثموا خدّ المجد وعانقوا قمم السحاب. ولعلّنا نذْكر أنّ الهُواة كانوا وراء

العديد من اكتشافات وابتكارات خدمَت الإنسانية وغيّرت وجه الحياة البشرية، مستفيدين في ذلك بسجايا الدافعيّة والحريّة والمرونة التي تُميّز الهواية وتُعَدّ رمّانة الميزان في ولادة الحسّ الإبداعي ونضوجه.

والهواية مِن الهوَىٰ الذي هو حبٌّ وميْل قلبي، وهي نشاط طوْعي تهفو النفسُ إلىٰ ممارسته بين الفينة والأخرىٰ، وتطمح إلىٰ إتقانه واحترافه، نظرًا لِما تَأنَس فيه من عبير الراحة وشذا المتعة؛ فمِن خلالها يتمكّن المرء من قضاء أوقات الفراغ بأمان يحقّق له المنفعة، ويجد متنفّسا لتفريغ الطاقات بشكل إيجابي يعود عليه بالفائدة، ويدير مشاعره بطريقة فذّة يخدم فيها المحسوسُ الملموسَ والمعنويُّ المادّي. كما يستطيع الخروج من دوّامة العمل، والإفلات من ضغوطات الحياة، وقهْر أشباح القلق والتوتّر، ودرْء عساكر الملل والحزن، وفتْح الباب لعلاقات وصداقات جديدة. إضافة إلىٰ اكتساب مهارات وخبرات تُثري الحياة الشخصية، وتُنمّي القدرات العقلية، وتَنفث في الروح الحيويّة، وتضع صاحبها علىٰ عتبات التميّز وأبواب النبوغ. ولا مبالغة في القول أنها التعبير الحقيقي عن شخصيّة المرء، والمرآة المستوية التي تعكس طموحاته وأحلامه المجرّدة من قيود الواقع وأغلال الظروف والإمكانات. وفيها تتعدّد المشارب حسب البيئة والنّشأة، فتشمل هوايات أدبيّة بطلها القلم

والكتاب، وفنيّة تعزف على أوتار الرسم والنحت والتصوير، وبدنيّة ترقص على أنغام المشي والركض والسباحة وغيرها من الرياضات، وأخرى ذهنيّة وثقافيّة وسياحيّة وتقنيّة وحركيّة.

وفي هذا رُوي أنّ أعجوبة الفيزياء أينشتين كان يعزف على البيانو والكمان كوقتٍ مستقطَع يستعيد به نشاطه تجاه قوانين الفيزياء، بينما وجد لاعب الكرة الإنجليزي ديفيد بيكهام ضالّته في الطبخ وتحضير شتّى أنواع الطعام، في حين كان صيد السمك النيلي هو الهواية التي استحوذت على لبّ شاعر العامية الشهير عبد الرحمن الأبنودي، على النقيض من صاحب نوبل في الأدب (إرنست همنجواي) الذي هوَى صيد الحيتان، وصنوه بابلو نيرودا جامع القواقع، وابن جلْدتنا أحمد شوقي الذي كان يهرع إلى المزادات العامة ويشتري منها الأثاث العتيق والتحف الثمينة ويكدّسها في بيته الأشبه بالفندق. أمّا ونستون تشرشل رئيس الوزراء البريطاني، وصاحب شعار لا للرياضة الذي عُمّر بموجبه أكثر من تسعين عاما! فكان يقضي عطلة نهاية الأسبوع في بناء سور حول بيته الريفي، ثمّ يعكف على تزيينه بلوحات فنيّة يرسمها بالألوان المائيّة.

وعلى صعيد الحكّام العرب، نجد حاكم الإمارات الشيخ زايد بن سلطان متيَّما بالصيد في البراري منذ نعومة أظفاره، على عكس الرئيس

العراقي صدام حسين المولَع بالقراءة، والرئيس جمال عبد الناصر المغرَم بالتصوير، والرئيس السادات العاشق للسباحة، وخلَفه الرئيس مبارك الذي هام بلعبة الاسكواش ولم يقلع عن إدمانها إلّا بقرار طبي. وبينما انكبّ الملك فؤاد علىٰ هواية جمع الطوابع البريدية حتىٰ توفّر له منها مجموعة نفيسة لا يباريه فيها إلّا ملك إنجلترا، فإنّ ابنه ووريثه علىٰ العرش العلَوي (فاروق) قد أنفق الأموال الطائلة علىٰ هوايات اقتناء التحف الأثرية والساعات والعملات المعدنية.

هذا إذا نحّينا جانبًا هوايات أخرىٰ غريبة تجلب المتعة دون الفائدة، مثل بعض المشاهير الذين استهواهم صيد الضفادع، وجمْع الهياكل العظمية للحمام، واصطياد الحشرات الزاحفة، واقتناء الدُّمىٰ القديمة والثياب البالية!

والواقع أنّ التعاطي مع الهواية يأخذ شكلا من ثلاثة أشكال؛ إمّا الاقتصار علىٰ المتعة، أو الظفر بالفائدة إلىٰ جانب المتعة، أو المستوىٰ الثالث وهو الأرقىٰ والذي تتحوّل فيه الهواية إلىٰ حرفة فيعمل الشخص وكأنه يلعب ويرقص ويعزف، ممارِسا بذلك دور فنّان مبدِع يعمل بيده وعقله وقلبه، لا دوْر موظّف مؤدِّي يكتفي بعمل اليد والعقل.

وقد جاء في تقرير صحفي نشرتْه جريدة التليجراف البريطانية قبل سنوات قلائل، أنّ المشروعات الصغيرة القائمة علىٰ استثمار الهوايات الشخصية، تضخّ في شرايين الاقتصاد البريطاني نحو ثمانية مليارات من الجنيه الاسترليني سنويا، ويأتي علىٰ رأس هذه الهوايات تلك المتعلّقة بالتصميم الالكتروني، والقائمة علىٰ فنّ التصوير، وتدريس اللياقة البدنية، وإعداد المأكولات المنزلية الجاهزة، وصناعة المنتجات الفخارية، وتصميم المجوهرات، وأدوات الزينة الشخصية. وهو ما يؤكّد علىٰ الفائدة المزدوجة لممارسة الهواية، وينبّه إلىٰ ضرورة تبنّيها علىٰ المستوىٰ الرسمي في صورة مؤسّسات راعية ومنظّمات داعمة، ويؤيد مقولة ستانلي كوبريك: **"أكثر الناس حظًّا في العالم هم مَن ينالون فرصة كسب رزقهم من شيء يمارسونه كهواية"**.

ورغم وجود بعض اختبارات تميط اللثام عن ميولنا المبهَمة وشخصيّتنا الدفينة، ومع أهمية دور الأسرة والمدرسة[1] والأصدقاء في الدلالة علىٰ كنْه ونوع الهواية التي نمتلكها؛ إلّا أنّ الإحساس الغامر بالفرحة أثناء عمل ما، والشعور بالهدوء النفسي تجاه نشاط ما، جدّ كافٍ

(1) في كتابه (نبأ يقين) يقول أدهم شرقاوي: إن مهمة المدرسين هي البحث عن أي طالب له جناحين ومحاولة غرس ريش إضافي فيهما ليحلق عاليا.

لوضع خطّ بارز تحت هذا النشاط، واعتباره هوايةً ندلف إلىٰ بلْورتها وتنْميتها بمزيد من الدراسة والمران، قبل أن ننتقل بها إلىٰ مستوىٰ الاحترافية المثمِر علىٰ المستويْن المادي والمعنوي. مع عدم إغفال دور التجربة التي كثيرا ما تفتح أعيننا علىٰ ما نجهله من قدراتنا ومواهبنا الكامنة، علىٰ اعتبار أنه لم يُولد بعد ذلك الإنسان الغفْل من الهواية والقفْر في الموهبة، مع ملاحظة أنّ المواهب فطريّة المنشأ أمّا الهوايات ففطريّة ومكتسَبة.

ومِن الإجحاف هنا أن نضيِّق واسعا فنقصر حديث الهواية علىٰ فئة المراهقين والشباب، بالنظر إلىٰ ما لديهم من خيالٍ جامحٍ وفراغٍ عريضٍ وبالٍ خال، وبالنظر إلىٰ سعْيهم الدؤوب لإثبات وجودهم وتعزيز ثقتهم بأنفسهم.. إذْ تنسحب أهمية الهوايات ومردودها الإيجابي في فنّ صناعة الحياة علىٰ كافّة الأعمار والأجناس، وهو ما يتضّح بجلاء في فئة المسنّين بعد تقاعدهم من العمل الوظيفي، ورحيل الكثير من أصدقائهم ومُجايليهم إلىٰ غير رجعة، وانشغال الأبناء بحياتهم الخاصة، وبروز حاجتهم الملحّة إلىٰ هواية بل هوايات تبتلع هذا الوقت المترهّل وتعيد إلىٰ الزمن نبضه وللعيْش حرارته، ناهيك عمّا خلصت إليه دراسةٌ علميّة

حديثة، مِن أنّ كبار السنّ الذين يمارسون هواياتٍ شخصية هم الأكثر سعادة، والأقلّ عرضة للإصابة بمرض ألزهايمر المفترس.

زِد علىٰ ذلك، أهمية الهواية ولزومها في حقّ بعض النساء اللائي يتمطّىٰ الزمن بين أيديهنّ، ولا يجدْن سوىٰ ثرثرة القِيل حلًّا ولغْو القال علاجًا. وفي حقّ هؤلاء العاطلين قسْرا من الكادحين الباحثين عن عمل وأعْيتْهم في ذلك الحيل، أو العاطلين اختيارا مِن المترَفين الذين هبطت عليهم الثروة من حيث لم يحتسبوا فكفتْهم مؤونة العمل والكدْح. بل إنّنا نلحظ أنّ التقنيّات الحديثة وما في جعبتها من جوّالات وسيّارات ومصاعد وحكومات الكترونية؛ قد وفّرَت من الوقت وخلقَت من الفراغ ما يجعل الهواية فرضًا لا سنّة وواجبًا لا اختيارا. وإلّا وقعْنا فيما حذَّرنا منه نبيّ الرحمة صلوات ربي وسلامه عليه **بقوله:**

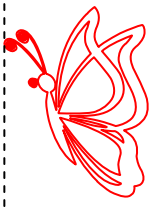

"نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحّة والفراغ".

وكمثال علىٰ التقصير في اكتشاف الهوايات وإزاحة اللثام عن وجهها؛ أعود بالذاكرة إلىٰ أيّام الصِّبا، حين استولت عليّ هواية جمع ملصقات

تُباع مع نوع رخيص مِن العلكة، ومطبوع عليها أعلام الدول بجانب معلومات عن العاصمة وعدد السكان والعملة المتداوَلة، بما يشي بحبّ دفين للجغرافيا لم يُكشف عنه الستار ولم يُستثمر كما يجب. وكذلك وقتما شغفْتُ بجمع أمثال شعبية اجتمع لديّ حينها المئات، وحينما أُلهمتُ بوادر الكتابة الأدبيّة من نوع الزجل والقصة القصيرة. أذكر هذا وأتحسّر كيف مرّت تلك الهوايات وبقيَت طيّ الكتمان دون اكتشافٍ من أسرة أو مدرسة، في إدانة كاملة لمعلّمين ومربّين وأولياء أمور لا يُولون الانتباه الكافي للكشف عن هوايات قد تمثّل نواة موهبة واعدة، يمكن البناء عليها لاحقا ووضعها في إطارها الصحيح ضمن احتياجات المجتمع التنمويّة والنهضويّة.

وهذا ما لمسه الكاتب الياباني نوبوأكي نوتوهارا حين شرّح المجتمع العربي وقارنه بالمجتمع الياباني في كتابه (العرب وجهة نظر يابانية) **فقال:** في البادية السّورية عرفتُ ابن صديقي أبي عبد الله واسمه جاسم، كان في السادسة من عمره عندما قابلته أوّل مرّة، طفل هادئ وصامت، يشعّ من عينيه ذكاء خاص وشرود يشبه المتأمّل. كان دائما يراقبني بهدوء ويتحدّث معي بالطريقة نفسها، كلّ شيء في ذلك الطفل كان يوحي بأنه سيصبح كاتبا أو شاعرا لو كان طفلا في اليابان. بعد عشر سنوات رمىٰ جاسم موهبته كلّها وأصبح راعيا نموذجيا كما يتوقّع منه المجتمع!

أمّا ما يخصّ العدوان علىٰ الهوايات بعد اكتشافها، ووضع العقابيل في طريقها بعد وقوفها علىٰ عتباتنا؛ فأذكر أنّ لجنة من مشايخ الأزهر وأثناء مرورها علىٰ كتّاب حفظتُ فيه القرآن، رأت فيّ اهتماما وميْلا إلىٰ اللغة والقرآن، فطلبَت من الشيخ استدعاء وليّ الأمر الذي لم يكن سوىٰ جدّتي رحمهما الله، وبعدما أشادوا باستقامة لساني وأثنوا علىٰ ذاكرتي وحافظتي، أعربوا عن رغبتهم في اصطحابي إلىٰ دراسة داخلية بالأزهر متنبِّئين لي بمستقبل باهر فيه. وهنا جاء الردّ صاعقا، إذْ صرخَت جدّتي في وجوههم، ونهرتْهم كأنهم إخوة يوسف ينوون الذهاب بي إلىٰ قعر الجبّ، إذْ لم تكن راغبة في أن أفارق القرية إلىٰ مدينة تتصوّرها بحرًا يبتلع الناس ابتلاع البحر للغريق! وما بالك إذا كانت هذه المدينة هي القاهرة أو المُعِزِّيَّة كما كان يحلو للفقيه ابن دقيق العيد تسميتها.

(5) نزيف قلم

كلما طافت برأسي فكرةٌ قلِقةٌ وهَممْتُ بلفْظها عبْر سِنّ قلمي الشَّغوف، تَذكّرتُ يومًا مُنكَّهًا بنكهة المِسك ومُلوَّنًا بلون اللازورد، يوما سقط مِن قعر التاريخ الذي لا يَفتح آذانَه إلّا للجِسام من الأحداث ولا يُسطِّر في دواوينه إلّا العويص مِن الوقائع. نَعَم سقَط، ولكنّه بَقي ناشبا في ذاكرتي بذات لوْنه وطعْمه ورائحته. يوم كنتُ حدَثا غِرّا بالصف الخامس الابتدائي، وأَهدتْني فيه مُعلّمتي قلمَ حبر جاف، جرّاء تميّزي في مادّة تُدرِّسها، وما كان منِّي-علىٰ عادة الكثيرين تجاه كلّ ثمين ينالونه بشقّ الأنفس- إلّا أن جعلتُ هذا القلم خبيئتي، وذُخري بعد فَخري، فكنزْتُه بين طيات ملابسي، داخل دولاب قلّما تطاله الأعينُ المتلصِّصة، ويَندر أن تصل إليه الأيدي العابثة، بينما اكتفيتُ مِن الغنيمة بما يَتنعّم به خيالي ويَحلو به الذِّكر علىٰ لساني.

مرّت الأيام، فدنَت الثمار، وحان القطاف، وحلّ موعد الإفراج عن الكنز المخبوء؛ ليلوّن صفحة كتاب أو يخطّ سطور نجاح أو يعزف نغم إبداع، فهالني ما وجدتُه علىٰ ملابسي؛ حيث لفظ القلمُ أنفاسَه، ونزف مدادَه، فذهب الكنزُ أدراج الرّياح، وما بكَت عليه أرضٌ ولا سماء، ولا شيَّعه حرفٌ أو قرطاس.

هكذا ذهبَ القلمُ وبقي الدرْس، ووَلّت الهِبَةُ وظلّت العِظَة؛ فما أكْثر معاني الخير التي تكنزها طيّات نفوسنا! وكلماتٍ للحبّ تغفو بين دِفاف قواميسنا! وأفكارا يختزنها دولابُ عقولنا! وطاقات تذخر بها أبدانُنا! بل وما أوفر اللحظات الحميمة والفرص السعيدة التي تمرّ أمامنا، فتتسرّب كالماء مِن بين أيدينا، وتَنزلق كالبُسُط مِن تحت أقدامنا!

تُرَى.. لماذا لا ندَع الشمسَ تُشرق على هذا الخير؟!

ولِمَ لا نُفسح الدربَ لذاك الحُبّ؟!

ولِمَ لا نَأذن للنورَ بالتوهّج عبر تلك الطاقات ؟!

ولماذا نُلبس أفكارَنا ثوبَ العنوسة ونُسبغ عليها رداءَ التوحّد؟!

ولماذا نَضنّ على أنفسنا وعلى الآخَرين بسعادة أخذت زخرفَها، وفتحت ذراعيْها، ومَدّت لنا كلتا يديها؟!

يقينًا... لو ارتحلنا داخل نفوسنا، وحَفرْنا في أعماقنا؛ لظفرْنا بأنهار من ماءٍ فرات وعسلٍ مُصفًّىٰ ولبنٍ لم يتغير طعمُه، ولو فتّشْنا في حقائبنا لاكْتشفنا مناجمَ من ماس يَتلألأ ولَعثرْنا علىٰ ذهب يَبرق. ولو أخرجْنا أقلامَنا المخبوءة وكنوزَنا المدفونة؛ لغرّدت أيامُنا فرحًا وبهجة، ورقصَت لياليا غبطة وسرورا؛ فلحظات السعادة حين تَذبل لا تَنبُت مِن جديد، والفرص بعدما تَمرّ يصعب استدعاؤها بعد فواتها، وما أشبهها بأيّام دفنها الرَّدَىٰ وليس لها في البعث والنشور نصيب..

الواقع أنّ لله أعمالا بالنهار لا يقبلها بالليل، وأعمالا بالليل لا يقبلها بالنهار؛ وأحمقٌ مَن يستبدل الليل بالنهار، أو يستعيض بالنهار عن الليل. والحقيقة أنَّ لِكلِّ جنين موعدُ ولادةٍ يَدقّ ناقوسَه حين يُكمِل نموّه ويَقضي مِن الرَّحِم وطَره، ولو مكث في بطن أمّه أكثر ممّا قُدِّر له؛ لانفجَر الرّحِم ، وتضرّر الحامِل والمحمول، وضاع العِير والنفير؛ وهو ما يدعونا إلىٰ الاستجابة لألم المخاض، والقبْض علىٰ رقبة الآن، واغتنام الريح حال الهبوب؛ فالسعادة عمل لا يُؤجَّل للغد، والفرَح بِرٌّ وخيرُ البِرّ عاجِله...ولله دَرّ الإمام (الشافعي)حين قال:

إذا هبَّت رياحُك فاغتنمْها فعُقبىٰ كلِّ خافقةٍ سكون

ولا تَزهـد عـن الإحـسانِ فيهـا فما تَدرِي السكون متىٰ يكـون

وإنْ دَرّت نِياقُـــك فاحْتلبهـــا فما تدرِي الفصيل لمَـن يكـون

ولعلّ بعضنا قد مرّ عليه قصةُ الصيّادَيْن اللذَيْن خرجا يومًا في رحلة صيد، فاصطاد أحدُهما سمكة كبيرة وهمّ بالانصراف، فسأله صديقه: إلىٰ أين تذهب؟ **فقال:** إلىٰ زوجتي وأولادي، لقد اصطدتُ سمكة كبيرة تكفينا وتفيض. فردّ الصدِيق: انتظِر لتصطاد المَزيد مثلي، فقال الرجل: ولماذا أفعل ذلك؟ فقال الصديق: لتبيع بعضها وتكسب مالا كثيرا، فقال الرجل: ولماذا أفعل ذلك؟ فقال الصديق: لتصبح ثريا ويزداد رصيدُك في البنك، فقال الرجل: وماذا أفعل بالثراء ؟ فقال الصديق: لتَهنأ به وتُسعِد زوجتَك وأولادَك، فقال الرجل: وهذا بالضبط ما أفعله الآن، ولا أريد تأجيله إلىٰ أن أكبر ويَضيع العمر.

بالطبع ليس المجال هنا مجال قلم لا يُجاوز ثمنه ثمن علبة ثقاب، ولكنّها العبرة الكبيرة الكامنة في الأحداث الصغيرة، والحكمة العظيمة التي قد تُزهر علىٰ ثغور الأطفال، أو تُورق علىٰ جبين العوام، أو تسديها إلينا النباتات والحيوانات والجمادات. فلو قُدِّر لهذا القلم أن يبوح **لقال:** إنْ واتتْك فرصةٌ اغْتنِمها، وإنْ زارتْك سعادةٌ عانِقها، وإنْ أزهرَت ورودُك

تَشمَّمها، وإنْ نضجَت ثمارُك اقْطفها؛ فما العُمر إلّا فرصة، وما الحياة إلّا لحظة. أمّا لو أُتيح لهذا القلم أن يستشهد؛ لاقْتبس مقولةَ الطبيب الأمريكي(أوليفر ويندول)حين **قال: "معظم الناس يذهبون إلىٰ القبور ومازالت موسيقاهم في داخلهم"**...وغنيٌّ عن القول أنّ الموسيقىٰ هنا كناية عن الرؤىٰ والأحلام والأفكار والمواهب والطاقات.

القرّاء الأكارم:

مع دوران الكرة الأرضية، يدور دولابُ الزمن؛ فيخلِّف وراءَه دوائرَ ثلاث، وهذه الدوائر الثلاث تتكامل ولا تتداخل علىٰ طريقة الاتصال المنفصِل والانفصال المتّصِل، فمِن الماضي نتعلّم وفي الحاضر نعيش وللمستقبل نخطّط، ومِن الغُبن أن ننسىٰ أنّنا هنا، فنركِّز علىٰ الوصول دون الطريق، ونَحذف الحاضرَ انتظارا لمستقبل قد لا يأتي إلّا مُضرّجا بالدماء، أو مُسجًّىٰ في كفن، أو نازفا كذاك القلم...وساعتها ولات حين مَندَم.

(6) التعليم المستمرّ؟

كما لا تُخطئ العين النتائجَ الكارثية التي خلّفتْها الحرب العالمية الثانية؛ سواء علىٰ المستوىٰ البشري الذي خسر ثمانين مليونا بين قتيل وجريح، أو علىٰ المستوىٰ الاقتصادي الذي شهد تدمير المدن اليابانية وتفكيك ألمانيا الموحَّدة وانهيار الاقتصاد الأوروبي، أو علىٰ المستوىٰ السياسي الذي هيّأ المسرح لبروز أمريكا الاستعمارية وبعْثها مِن مَرقدها فيما وراء المحيط، أو علىٰ المستوىٰ العسكري الذي أرّخ لاستخدام أفتك سلاح عرفته البشرية وهو السلاح النووي.. فإن العين لا تخطئ أيضا التطوّر العلمي السريع الذي تلا تلك الحرب العظمىٰ، حتىٰ أنّ المعارف التي تضاعفت مرّة واحدة بين عامي 1930 و1970م، صارت تتضاعف بنهاية القرن العشرين كلّ ثمان سنوات، ثم تناقصت تلك المدّة إلىٰ النصف مع مطلع الألفية الثالثة، وتقلّصت اليوم إلىٰ أقلّ من عامين! وهو ما دفع إلىٰ تَبنّي ما يُعرف بمبدأ التعليم المستمر.

والتعليم المستمر هو اعتراف بمركزية العنصر البشري في تحقيق التنمية المستدامة، وهو المجداف الذي يمكّننا من الصمود أمام الأمواج العاتية للتقدّم العلمي، فيمنحنا الفرصة لمواكبته وقيادة زمامه، وإلّا جرَفَنا موجُه الهائج إلىٰ ذيل القافلة أو طمرَنا تحت ركام الجهل وغمرَنا في قاع النسيان. وهو النظام التعليمي الثالث الذي يقفز فوق حدود المكان، باعتبار أنّ النظام التعليمي الأوّل هو السابق علىٰ الشهادة الثانوية، بينما النظام التعليمي الثاني هو اللاحق لها، وكلاهما محصوران بين جدران المدارس والمعاهد والجامعات. وهو أيضا التعليم الذي يقفز فوق حدود الزمان؛ فيبدأ من المهد ويستمر إلىٰ اللحد، ولا يفتأ يسير في خطّ متزامن ومتواز مع قطار العمر. وهو ما قصده عبد الله ابن المبارك حين سُئل: حتىٰ متىٰ يَحسن بالمرء أن يتعلّم؟ **فقال:** ما دامت تَحسُن به الحياة. وأشار إليه الفيلسوف وعالم النفس الأمريكي جون ديوي **بقوله:** التعلّم الحقيقي يأتي بعد ترك المدرسة، ولا يوجد مبرّر لتوقّفه قبل الموت. ونصح به رائد المال والأعمال بيل جيتس **قائلا:** نصيحتي هي الحصول علىٰ تعليم رسمي جيّد، ثم مواصلة التعلّم بعد ذلك لاكتساب اهتمامات ومهارة جديدة طوال الحياة.

ويَهدف التعليم المستمرّ إلىٰ خلق وعي تعليمي لدىٰ كافّة الأفراد، باعتباره ضرورة حضارية وحتمية عصرية. وتمتدّ مظلّته لتشمل كلّ القطاعات العاملة في مفاصل الدولة، لِما له من مردود إيجابي علىٰ إنتاجية الفرد ورفاهية المجتمع وتقدّم البلاد وجودة الحياة. ويتضمّن دورات تدريبية وكتبا تعليمية وورشا عملية؛ ترمي إلىٰ اكتساب المعارف العلمية، والمهارات المهنية، والسمات الشخصية، كلٌّ حسب احتياجاته ومتطلّبات عمله، مستفيدين في ذلك بالطفرة التي أحدثتْها ثورة الاتصالات والسيولة التي وفّرتْها الوسائط الرقمية المتعدّدة. علىٰ أن يكون هذا التعليم حقّا مكفولا للأفراد وواجبا محتوما علىٰ الدولة والمؤسّسات، وأن يتّسم بتكافؤ الفرص، ويشتمل علىٰ أدوات للتحفيز، ويعمل علىٰ تذليل العقبات، وينطلق من المرتكَزات الأربعة التي جاءت في تقرير اليونسكو الصادر بهذا الشأن **وهي:** تَعلَّم لتكون، تَعلّم لتعرف، تَعلّم لتعمل، وتَعلَّم لتشارِك الآخَرين. فضلا عن الاسترشاد بنصيحة الكاتب الأمريكي مارك توين في قوله: **"لا تدَع المدرسة أبدا تتداخل مع تعليمك"**، بمعنىٰ أن نضيف إلىٰ التعليم المدرسي تعليما ذاتيا متواصِلا علىٰ امتداد الحياة.

وفي الوقت الذي آمنَت فيه الدّول المتقدمة بأنّ مفهوم التعليم مدىٰ الحياة يشكّل أحد المفاتيح الذهبية للولوج إلىٰ قلب القرن الحادي والعشرين، ويستجيب للتحدّيات التي يطرحها عالَمٌ حثيث الركض وسريع التغيّر؛ ثمّ وضعتْه علىٰ صدر الطاولة وتَبنّته كاستراتيجية ثابتة، فرسمت له الخطط ورصدَت له الميزانيات وأقامت له المراكز.. فإننا لا زلنا ننظر من ثقب الباب، ونترك الأمر لمبادرات فردية تتّسم بالعشوائية وتفتقر إلىٰ المنهجية وتسير بدفع ذاتي لا يُنبت شجرا ولا يُنضج ثمرا! وفي هذا يكمن أحد أسباب تخلّفنا وتقهقرنا إلىٰ ذيل القائمة، إلىٰ حدٍّ بِتنا فيه نستورد ما نأكل وما نلبس وما نركب، واضعين بذلك رقابنا تحت سكّين التبعيّة التي يمارسها الرُّبّان تجاه الركّاب والفاعل قبالة المفعول والرأس نحو الذيل، وكأننا لم نسمع بمقولة جبران خليل جبران:

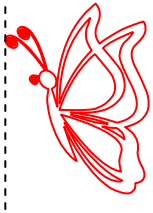

"ويل لأمّة تلبس ممّا لا تنسج وتأكل ممّا لا تزرع وتشرب ممّا لا تعصر".

ومع أنّ القطاع الصحي أنشط قطاعاتنا في مجال التعليم المستمرّ، إلّا أنّ به من القصور ما يعلمه القاصي والداني، وبه من الحكايات ما ترتقي إلىٰ حد المآسي؛ منها أنّني فشلت مرّتين في التسجيل لدرجة الماجستير بدعاوىٰ هزيلة تندرج تحت العشوائية والتخبّط ولا علاقة لها بالدرجات العلمية أو الكفاءة المهنية، وفي المرّة الثالثة عرض بعضُ (ذوي القلوب الرحيمة) إنجاز المهمّة نظير مبلغ من المال، ولكنه أيضا أخلّ بالوعد وابتلع المال الذي ذهب إلىٰ غير رجعة. ومنها أنّني تقدّمت لمسئول بطلب ألتمس فيه التدريب بأحد المراكز الطبية المتخصّصة في علاج مرض السكّري، فتناول الرجل قلمه المُذهَّب ووقّع بيده الكريمة (مرفوض)! فضلا عن ذلك الاقتراح الذي عرضناه لإنشاء مكتبة طبية بالمستشفىٰ، تكون زادا علميا للكادر الطبي، ولم يلق إلّا التسفيه والتحقير!

وحتىٰ في المرّة الوحيدة التي رقّ أحدُهم لحالي، وابتعثني للتدريب علىٰ مناظير الجهاز الهضمي بأحد المراكز الطبية الجامعية؛ فوجئتُ بعدم وجود برنامج تدريبي، وصُعقتُ عندما مرّت الشهور الأربعة المحدّدة للتدريب دون السماح لي بلمس المنظار، بحجّة أنه باهظ الثمن ويخشون عليه من التلف حسبما قال مدير المركز الذي وعد بإعطائنا شهادة

التدريب اللازمة باللغتين العربية والإنجليزية! واقترح –هداه الله– أن نكتفي بالمشاهدة ثمّ نطبّق ما نشاهده علىٰ مناظير المستشفيات التي ابتعثْنا! ضاربا عُرض الحائط بالمقولة الصينية الشهيرة: **"إذا قلت لك فسوف تنسىٰ، وإذا أريتك فقد تتذكّر، وأمّا إذا طبقت فسوف تتذكّر"**.

وبالرغم من أنّ الأحداث السالفة، والتي كنت فيها شاهِدا لا راويا ومُعايِشا لا سامعا، مرّ عليها زهاء عشرين عاما؛ إلّا أنّني أكاد أجزم أنّ الوضع لم يتغيّر الآن علىٰ نحو ملفِت، لسبب وجيه وهو أنّ العقلية التي أدارت قبل عشرين عاما هي نفسها التي تدير اليوم، والنظرة إلىٰ التعليم علىٰ أنه مرحلة منتهية لا رحلة ممتدّة ما زالت هي النظرة، وما النّجاحات التي نلمحها كبقع مضيئة هنا وهناك، إلّا نتاج جهود فردية لأناس فهمت لغة العصر وضحّت بما لديها مِن مال وجهد، في سبيل اقتناص فرصة علىٰ أرض المجد، ورغبة في تثبيت قدم فوق قمّة لا تفتح ذراعيها إلّا للعِلم، ولا تمدّ يدَها إلّا لمَن يعاهدها علىٰ انتهاج سياسة التعليم المستمرّ.. وكما قال الكاتب الفرنسي ألكسندر دوماس: قد ينتهي عمل المرء يوما ما، لكن تعليمه لا ينتهي أبدا.

(7) العصا النبيلة

ضمن مذكّرات ثريّة نشرها تحت عنوان (رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثّمر)، كتب المفكّر الراحل عبد الوهاب المسيري قائلا: **"كنتُ لا أنجح في الدراسة إلّا في الدور الثاني، حتىٰ وصلتُ للمرحلة الثانوية، فقال لي مدرّس التاريخ: أنت عبقري يا عبد الوهاب! فتغيَّرَت حياتي منذ ذلك اليوم، مع أني لا أدري هل اكتشفَني فعلا، أم أنه كان من باب التشجيع وأنا صدّقْته، والمهم أنّ النتيجة واحدة، فقد تغيّرَت حياتي منذ سماعي لتلك الكلمة"**. وفي سياق ذكريات مرحلة التكوين، ذكرت الكاتبة نعمات أحمد فؤاد أن مدرّسها في المرحلة الثانوية سطّر لها كلمات مضيئة وضيئة، رشّت علىٰ طريقها النور وخلقتْها خلقا جديدا وباتت منقوشة في عقلها وقلبها، وذلك حين علّق علىٰ موضوع لها في الإنشاء قائلا: **"ستكونين زهرة في روض الأدباء، وماسة في جبين العلماء، وينبوعا عذبا من ينابيع البيان، فسِيري قدما إلىٰ الأمام"**. أمّا نابليون فسُئل: كيف

حملتَ جنودك علىٰ تحقيق كلّ هذه الانتصارات المدوّية؟ فأجاب: مَن قال لا أستطيع قلتُ له حاوِل، ومَن قال لا أعرف قلتُ له تَعلَّم، ومَن قال مستحيل قلت له جرِّب.

هو إذنْ التحفيز الذي يُهدينا حزمة من المُغريات بغرض حضّنا علىٰ عملٍ ما، وعرّفه (دوايت ايزنهاور) بأنّه فنّ جعْل الناس يفعلون ما تريد لأنهم يودّون فعْله. وعن طريقه صيَّر الإنسانُ الأُسودَ في السيرك أهدأ من قطّ وأطْوع من بنان، وحمَل الدلافينَ علىٰ القفز وسط الأحواض والرقص علىٰ وقْع الأنغام، وصنَع من الكلاب شرطة خارقة تنوب عنه في حراسة القصور وكشْف المجرمين. وفيه ذكرَت الأبحاث أنّ أغلب الموظّفين يعملون بكفاءة تعادل 60٪ ممّا يستطيعون تقديمه، وبالتحفيز الفعّال يمكن جلب الكفاءة الكامنة وقدرها 40٪، فضلا عن الانتقال بهم من طور الأداء الروتيني البارد إلىٰ طور الأداء السريع المتقَن الدائم.

ولا شكّ أنّ الكثير منّا يحمل بين جوانحه بعض إنجازٍ كان التحفيزُ مهمازَ خيْله ووقودَ قطاره، سواء إبّان مرحلة الدراسة أو بعد الخروج إلىٰ معترَك الحياة ومزاولة العمل. فعلىٰ سبيل المثال؛ أتذكّر سنوات الكُتّاب طيَّب الله ثراها، والتي كانت البذرة الأولىٰ لزرع شجرة القراءة والارتباط

بكتاب الله العزيز، وكيف كان جنيه واحد يلوّح به الشيخُ[1] لنا، ملهِما لتحقيق المأمول من الحفظ والإسراع بوتيرة الاستيعاب. وكذلك أيّام الجامعة حين أَوقدت مكافأةُ التفوّق جذوةَ الجدّ وروح الاجتهاد، رغم أنها لم تكن تُجاوز البضعة وثمانين جنيها نتقاضاها بالتقسيط المريح علىٰ مدار العام الدراسي بأكمله. وكم مِن وقت يطلّ فيه الفتورُ برأسه ويوقِّع الخمولُ حضورَه، ولكن ما إن تقع عيني علىٰ شهادة تقدير ظفرتُ بها أو درعٍ نلْته جرّاء إنجاز سابق، إلّا ويهبّ النشاط من عقال ويدخل الفتور في سُبات، ولربّما لهذا السبب يزيّن الكثيرون حوائطَهم ومكاتبَهم بالأوسمة والدروع وشهادات التقدير، لا للتعالي والتباهي، ولكن لمداواة الفتور واستعادة العافية النفسية واليقظة الروحية.

والتحفيز جزَرة نبيلة وعصا سحرية لا بدّ أن يصحبها المعلِّم في مدرسته والأب في أسرته والمدير في مصنعه والقائد في معركته، ولا يُشترط أن يكون ماديّا محسوسا يلعب فيه المال والذهب دورَ البطولة، بل يمكن أن يكون معنويّا يستهدف القلوب لا الجيوب والأفكار لا الأمعاء، إذْ يَعمد كلاهما –أي التحفيز المادي والمعنوي– إلىٰ إشباع احتياجات

(1) الشيخ المَعنيّ، هو الشيخ محمد المنجي –رحمه الله– صاحب الكُتّاب الملاصق لبيتنا، والذي أمضيت فيها قرابة العشر سنوات، وحفظت بفضله سبعة عشر جزءا من كتاب الله العزيز.

إنسانية مشروعة وضعها (أبراهام ماسلو) في شكل هرمي ذي مستويات خمس، بينما اختصرها (إي آر جي) في ثلاث مستويات وحرّرَها من الشكل الهرمي المتسلسِل. وبالطبع تختلف ماهية التحفيز باختلاف الأشخاص والأزمنة والأمكنة؛ فما يحفِّز زيدا قد لا يحفّز عَمْرا، وما يحمِّس عاملا في مصنع قد لا يحمّس طالبا في مدرسة، وما كان يحثّ الأجداد والآباء ويلهب حَميّتهم قد لا يُسيل لعاب أبنائنا ولا يحرّك شعرة في شوارب أحفادنا.

والواقع أنّ التحفيز الخارجي عملية مستمرّة يجب أن تدور عجلته بانتظام كعقارب الساعة وشقَّي الرّحاة، هذا لأنّ مفعوله قصير يحتاج إلىٰ ضخّ الدماء فيه مِن آن لآخر، حتىٰ شبّهه الكاتب الأمريكي زيج زيجلار بالاستحمام قائلا:

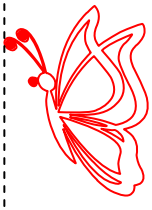

"يقول الناس أنّ التحفيز لا يستمرّ تأثيره طويلا، حسنا، وكذلك الاستحمام، لهذا ننصح به بشكل يومي".

هذا علىٰ النقيض من دوافع داخلية ومحفِّزات ذاتية يمتدّ مفعولها وتُعدّ أساسا متينا نبني عليه وقاعدة راسخة نرتكن إليها، حتىٰ ليُمكننا

الاستغناء بها عن المحفّزات الخارجية، واقرأ في ذلك سيرة الملاكم العالمي محمد علي كلاي وقتما كان يحفِّز نفسه فيهمس لها قبل كلّ مباراة بأنّه الأعظم والأقوىٰ. مع الأخذ في الحسبان أنّ التحفيز المعنوي – رغم قلّة تكلفته– أكثر نجاعة وأشدّ تأثيرا من التحفيز المادي!

وبينما يؤدِّي التعنيف إلىٰ خلْق شخصية معاقة نفسيا وعاطفيا؛ لأنها شخصية محشوّة بالخوف، وناضحة بالقلق، وقابلة للانفجار والعدوان؛ فإنّ التحفيز يخلق شخصية سويّة نفسيا ومتّزنة عاطفيا؛ لأنّه ينبع من الاحترام، وينمّ عن الحبّ، ويبني الثقة في النفس؛ ثمّ يستخلص ذهبَنا ويصفّي ماءَنا ويُخرج اللؤلؤ من أعماقنا؛ علىٰ اعتبار أنّ أداء عمل ما هو محصّلة القدرة والدافعية معا (الأداء= القدرة× الدافعية)، وبحسبان التحفيز يُشعل فتيل الدافعية ويَذهب بالأداء إلىٰ عنان السماء. ولهذا كانت وصية الحكماء للمربِّين في كلّ صقع: **"ربُّوهم لا تعنّفوهم وحفّزوهم لا تعاقبوهم"**؛ فالوقوف علىٰ الإيجابيات بإكبارٍ وتشجيع يعظِّمها وينمِّيها ويضاعف من وتيرتها، بينما المرور علىٰ السلبيات بلطف ولِين ينقلها بمرور الوقت إلىٰ خانة الإيجابيات.. وكما يقول المثل: **"يُؤخَذ بالعسَل ما لا يُؤخَذ بالخلّ"**.

ولأنّ التحفيز مطلب فطري في إنسان ضعيف تعتريه بين الفيْنة والأخرىٰ رياح الفتور[1] أو زوابع الكسل والإحباط؛ فقد أَوْلاه القرآنُ الكريم عنايتَه، وحفلَت بشواهده السنّةُ المطهّرة، بغْية تحريض المسلم علىٰ تحقيق العبادة بمعناها الشامل؛ واقرأ في ذلك عن وعْد الله لعباده المؤمنين الصالحين بجنّة ملؤها الأنهار والحُور والقصور، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ١٠٧ ﴾[2]، ثمّ اقرأ عن التعهّد النبوي بصحبته المباركة لكافل اليتيم في الجنّة، وذلك في الحديث الشريف الذي رواه سهل بن سعد عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم **قال: "أنا وكافل اليتيم كهاتيْن في الجنّة"** وأشار بأصبعيْه يعني: السبّابة والوسطىٰ. بل إنّ الحدودَ التي أقرّتها الشريعةُ الغرّاء وجهنّمَ التي توعَّد اللهُ بها المارقين، ليست إلّا تحفيزا سلبيًّا بلغة العصر أو تخويفا وترهيبا بلغة الفقهاء، بهدف تعزيز السلوك السويّ والاستقامة علىٰ الجادّة والفوز في الدارَيْن.

---

(1) هذا على النقيض من الملائكة الذين وصفهم الحق سبحانه بقوله: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ٢٠ ﴾ [الأنبياء: 20].

(2) الكهف 107.

بقيت إشارة إلىٰ أنّ إهمال التعزيز والتحفيز؛ بإيداعه زاوية النسيان، والاستعاضة عنه بسياسة التوبيخ والزجْر علىٰ طول الخطّ، يجرّنا إلىٰ خانة السّلطعون، ويخلع علينا غريزة سرطان البحر؛ ذلك الحيوان القشري الذي–كما ذكر بسّام تسابحجي في كتابه (أبناؤنا جواهر لكننا حدادون)– إذا وضُع وحيدا في وعاء قليل العمق، استطاع تسلُّق جداره والوصول إلىٰ حافته والتحرّر من ربقته، ولكنه في صحبة المخذِّلين من بني جنسه، يُسحَب بمخالبهن ويُمنَع من التسلّق والوصول إلىٰ الحافّة!

(8) بالمعاناة نصنع الرجال

كانت قريتي الصغيرة التي ضنّت عليها الجغرافيا ولو بنقطة علىٰ خريطتها، مِن الثّراء بمكان حتىٰ لتملِك مدرستيْن: إحداهما ابتدائية نصف فصولها حجرات طينيّة مسقوفة بالخشب، وأخرىٰ إعدادية كانت بيتا مستأجَرا مِن أحد الأثرياء. و كان الذهاب إليهما يكفيه حذاء رخيص من جلد قاسٍ مجهول؛ ليتحمّل وعثاء المشْي والركْض، ويمنع نفاذ الماء إلىٰ القدمين في الشتاء، ويدعس ما يعترضه من أشواك ومسامير، كما يصلح لركْل الأحجار بامتياز أثناء ذهابنا وإيابنا مِن تلكما المدرستيْن. أمّا المدرسة الثانوية، فكانت في قرية مجاورة تبعد بضعة كيلومترات، وفيها رأف الأهلُ بأقدامنا وأحذيتنا، وأعارونا الحمار مطيّةً نبلغ عليه غايتَنا. وأذكر يوم أن ربطْنا الحمار في شجرةٍ بفناء المدرسة الخلفي، وتكفّلَ صاحبي بمراقبته عبر نافذة فصْلنا المطلّة علىٰ الفناء والشجرة، وكيف أنّ مدرِّس الفصل لمحه يتلفّت مِن آن لآخر أثناء الشرح صوب النافذة،

فأمسك بتلابيبه كلصّ وصفعه بلا هوادة كمجرم، بعدما باح صاحبي بمهمّته الجليلة الموْكولة إليه.

ومع فشل مشروع الحمار، استأجرتُ درّاجة هوائيّة ببضعة قروش، وأوهمتُ نفسي أني أتقنتُ قيادتها بعد ركوبها لأوّل مرّة ولمدة ساعتيْن لا غير! ومع أنّي مارستُ أقصىٰ درجات الحذر، وكنت لا أخجل من النزول والوقوف بجانب الدراجة انتظارًا لمرور السيارة القادمة مِن علىٰ بعد مئات الأمتار؛ إلّا أنّي اصطدمتُ أثناء الإياب بحافة أحد الجسور، مع ما ترتّب علىٰ ذلك من فضيحة مدويّة غطّت علىٰ ألم السقوط المروّع. هذا قبل أن تَلطف بنا الأقدار وتَفتح مدرسةُ المدينة[1] لنا ذراعيْها، إذْ صار بإمكاننا السفر عبر سيارة ذات صندوق خلفي مُعَدّ بالأساس لحمل البضائع ونقل الحيوانات، بعدما سيّجه السائق بغطاء بلاستيكي سميك، ووضَع في جنبيْه مقعديْن مستطيليْن مِن أردأ أنواع الخشب، ثمّ شرع في حشْرنا كأسماك السردين داخل أوعيتها المغلَقة، أو في أحسن الأحوال كقطع الجبن المثلَّثة التي لا تسمح للهواء بالتخلل فيما بينها!

(1) المدينة المقصودة هي مدينة السنبلاوين، والقرية المجاورة هي قرية طنبول الكبرى، وقريتي الصغيرة هي قرية كفر الروك الحبيبة. وجميعها تنتمي إلى محافظة الدقهلية؛ الواقعة شمال شرق الدلتا، وعاصمتها المنصورة..

بالطبع مضت هذة المعاناةُ الآن، وصارت مجرّد ذكرىٰ حميمة تطوف بمخيّلتي كلّما سمعتُ ضجيج الحافلات المكيَّفة تطوف بالبيوت صباحا لنقل الطلّاب إلىٰ المدارس، ولكن بقيَت منها قناعةٌ راسخة بأنّ المعاناة – أيّة معاناة– تُعلّمنا الصبر، وتقوّي عضلة الإرادة، وتبثّ روح المسؤولية، وتزرع بذرة القناعة، وتصقل معدن المهارة، وتقدح زناد الفكر، وتشرع بوّابة النجاح. كما تَولّدَ عنها اعتقادٌ وطيد بضرورة سكْب بعض المعاناة في أطباق أولادنا أثناء اجتيازهم سنّي الطفولة والصّبا واليفاعة، وبأهميّة افتعال بعض العراقيل والصّعاب في طريق عروجهم، ليس من قَبيل القسوة الساديّة، ولا علىٰ طريقة السجّان القمْعيّة، بل من قَبيل المنع مع العطاء الذي يجعلهم سعداء، وعلىٰ طريقة **"اخشوْشنوا فإنّ النعم لا تدوم"**، وعلىٰ صنيع الكيميائيِّن الذي يضيفون إلىٰ الذهب نزْرا يسيرا من النحاس ليزداد متانة وصلابة، ونهْج الأطباء الذين يحصِّنون الأطفال ضدّ الأمراض عبر حقْنهم بجرعات مقنَّنة من الميكروبات.

ومِن العجيب أنّ النّسور في تربيتها لصغارها تتْبع غريزيّا هذا النهْج الحكيم؛ فتصنع أعشاشَها علىٰ قمم الجبال في أجواءٍ باردة عاصفة ممطِرة، وما إن يخرج الصغارُ إلىٰ النور حتىٰ يجدون بيتا مُلغَّما بالحصىٰ والصخور والزجاج، ممّا ينغِّص عليهم عيشَهم ويطلبون منه الهرب في

أقرب فرصة، فيتعجّلون تَسلُّق جدران العشّ مندفعين إلىٰ الخارج مرّة بعد مرّة في محاولات دؤوبة للطيران، وذلك تحت مراقبة الأمّ ومساعدتها إن لزم الأمر، إلىٰ أن ينجحوا سريعا وتحت وطأة هذه الظروف القاسية في إتقان الطيران، و مِن ثمّ الانعتاق إلىٰ حياة مستقلّة يحلّقون فيها عاليًا ويملكون حرّيتهم كاملةً غير منقوصة. وهو ما تفعله الزرافة أيضا، إذ لا يكفيها أن يسقط وليدُها من رحمها وهي واقفة، أي من ارتفاع نحو عشرة أقدام، بل تركله سريعا بقدمها الخلفية، لينهض من رقدته علىٰ ظهره ويمشي مع القطيع، فيسلَم بذلك من ضراوة الحيوانات الكاسرة المتربّصة، ويتعلَّم أنّ الحياة كدٌّ وسعْي لا نوم وخمول.

والواقع أنّنا لو أمعنّا النظر في سِير مشاهير العظماء علىٰ مرّ التاريخ، لوجدْنا أنّ المعاناة كانت ملح طفولتهم وعجينة صباهم وخبز شبابهم، فمنهم مَن عانىٰ مرارة اليتم، ومنهم مَن قاسىٰ شظف العيش، ومنهم مَن مرّ بمحنة العجز وضائقة المرض، ولكنهم جميعا وفي نهاية المطاف، أعدّوا مِن هذا الملح والعجين والخبز أشهىٰ مائدة وأفخم وليمة، ليس لأنفسهم فحسب، ولكن لأجيالٍ تلو أجيال وعصورٍ تلو عصور. وكأنهم برهانٌ ساطع علىٰ صحّة مقولة الأديب الفرنسي فيكتور هوجو: **"المحنة**

تصنع الرجال، بينما رغد العيش يصنع الوحوش". وصورةٌ طبق الأصل لما سطَّره عبد الرحمن الأبنودي في كتابه (أيامي الحلوة) قائلًا:

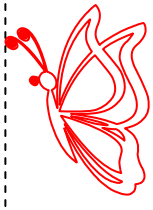

"نحن أبناء الطفولة الفقيرة العبقرية، مَدينون لفقرها بهذا الثراء الكبير الذي تمتلئ به أرواحُنا وذاكرتنا ودفاتر الماضي والحاضر. قد يراه البعض كابوسًا وأراه حلمًا، بل أراه فعلًا (أيامي الحلوة) التي ما ذقتُ حلاوتها في قطعة أخرى من العمر".

ولعلّ في الكبَد[1] الذي كتبه الله علىٰ الإنسان كلّ العبرة والعظة؛ إذْ لم يكن عزيزا علىٰ مَن لا تنفد خزائنُه، ولا مُعجِزا لمَن بيده مقاليد السموات والأرض، أن يخلق الإنسانَ مرفّهًا يرفل في نعيم الحياة، ومترَفًا يسبح في بحبوحة العيش، وجبلًا لا تهزّه ريح المرض، وسعيدًا لا تطوف به سحائب الكدَر؛ ولكنه العليم بصنعته، والحكيم في تدبيره؛ شاء لنا ذلك كمهمازٍ نتحرّك به ولا نكْسَل، ونسعىٰ ولا نتواكل؛ فنتقدّم علىٰ وقْعه الصفوفَ ولا ننتكس، ونقوَىٰ ولا نضعُف، ونتطوّر ولا نتخلّف، ونرنو

(1) ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤ ﴾ [البلد: 4].

إلىٰ الآخرة ولا نركن إلىٰ الدنيا. بمعنىٰ أنّ ذلك الكبَد هو ترياقنا للاستشفاء مِن هشاشة عقيمة تجعلنا عرضة للكسْر والإحباط عند أقلّ أزمة، ومركبنا الفتِيّ لاجتياز بحْر الحياة حين تُوحل الدروبُ ويَنبت علىٰ جنَباتها الشوك.. وقديما قال الشاعر الحكيم:

إذا اعتـاد الفتـىٰ خـوْض المنايـا فـأهْون مـا يمـرّ بـه الوحـول

ولله درّ الفاروق عمر الذي نهج هذا النهج، وحرّض عليه جابر بن عبد الله، حين رآه عائدًا من السوق وبيده اللحم ليومَيْن متتالييْن؛ فسأله متعجِّبا من ذلك، فقال جابر: لحمٌ اشتهيناه فاشتريناه، فردّ عمر رضي الله عنه مستنكِرا: أو كلّما اشتهيتَ اشتريت! كما رُوي أنّه رضي الله عنه كان يمرّ بملحَمة عبد الله بن الزبير بالبقيع، ويعلو بدِرّته مَن يراه منغمسا في حمّىٰ شراء اللحم ومتلبِّسا بسرَف الاستهلاك، قائلا: هلّا طويْتَ بطنك يومَيْن. ومعلومٌ أنّ اللذّة كلّ اللذّة في ريٍّ بعد عطش، وشبعٍ بعد جوع، وعطاءٍ بعد حرمان، وإنجابٍ بعد عُقم، ومكسبٍ في عقب خسارة.

لا أنكر هنا نظريات التربية الحديثة، ولا أروّج لنوستالجيا تستعيد أسلوب تربية أجدادنا، ولكني أدعو إلىٰ التمعّن فيما سطّرته الكاتبة التشيلية إيزابيل الليندي بقولها: **"النظرية القائلة بأن الطفولة يجب أن تكون مرحلة براءة آمنة، بدعة متأخّرة اخترعها الأمريكان: فقد كان الناس**

يتوقّعون فيما مضىٰ أن تكون الحياة قاسية، وكانت أساليب التربية ترتكز علىٰ التدرّب علىٰ الصمود والتحمّل: فكلّما اجتاز الطفل مزيدا من التجارب القاسية، يكون أكثر استعدادا للتصدّي للمخاطر التي ستواجهه في الكِبر. وأعترف بأنّ تلك التربية قد أثمرت نتائج طيّبة في حياتي".

(9) ضدّ التيار

ربّما يكون التقليد الأعمىٰ مقبولًا ولا غضاضة فيه إبّان سنّ الطفولة؛ باعتبار أنّ العقل أثناءه يحبو في طور النضوج، وقدرته علىٰ التمييز والاختيار مازالت تحت الإنشاء وقيْد التكوين؛ ولكنه حتما يُصبح مَسبَّة حين يستوي الإنسانُ علىٰ عوده جسدًا وعقلا، إذْ إنّه بذلك التقليد يرفع شعار: **"اسبح مع التيار تصل بأمان"**، ثمّ يُسْلِم نفسه إلىٰ قطيع من القطعان التىٰ ترعىٰ في أودية الحياة، ليرىٰ بعين هذا القطيع ويفكّر بعقله ويحتكم إلىٰ رأيه، كما يقع أسيرًا للعاطفة التي تشتدّ قوّتها ويعظم تأثيرها ضمن الجُموع؛ وبذا يَحرم نفسه من حرية الاختيار وعمق الرؤية واكتشاف الجديد وتنمية الوعي واكتساب التجربة، كما يخرج بهذا المسلك من تصنيف الأبطال الذين يحلو لهم السباحة بوعي ضد التيار؛ فيسْتشْفون من مرض عضال يُسمَّىٰ ضيق الأفق، ويفوزون بغنيمة كبرىٰ قوامها المتعة والفائدة، ويمهّدون لمَن بعدهم دروبًا بكرا لم تطأها أقدامٌ قبلهم، ويكتشفون بحارًا عذارىٰ لم تقتحم لجّتَها سواعدٌ سواهم.

وفي هذا سألَت سمكةٌ صغيرةٌ من نوع السلمون أمَّها: كيف نتأكّد أنّنا علىٰ قيد الحياة؟ فأجابت الأمّ: لأنّنا نسبح ضدّ التيار.. ومعلومٌ أنّ أسماك السلمون تشدّ الرحال في هجرة جماعية عكس التيار، من المياه الباردة إلىٰ الدافئة، لتقيم هناك أعراس الزواج والإنجاب. كما أذكر أنّني وأثناء فترة التدريب الأولىٰ في الخدمة العسكرية، ونظرًا للأوامر الصارمة التي تقضي بترتيب الأَسِرّة يوميًّا بطريقةٍ متقَنة تبدو فيها المُلاءة مشدودةً وكأنها خرجت لتوّها من فم المكواة، والذي يستغرق بدوره وقتًا ثمينا كنّا في مسيس الحاجة إليه، ويحتاج إلىٰ فرديْن منّا لإتمام هذه العملية الجراحية الدقيقة؛ فقد اتخذتُ لنومي بطّانية فرشْتُها علىٰ الأرض بعد أن جعلْتها طيّات بعضها فوق بعض، موفِّرا بذلك وقتي وجهدي، ومحتفظا بشَّدّة السرير طول الوقت كما هي، خاصة أنّ هذا السرير –ذا الدوريْن– لم يكن وثيرًا بما فيه الكفاية ولا ليّنًا إلىٰ الدرجة التي يُبكىٰ عليه، وهو ما قُوبل بالاستهجان من زملائي في العنبر وعددهم عشرة أشخاص، وكأنّي جحا الذي نزل عن حماره وسار بجانبه، وفي هذا لم أبال وثَبتُّ علىٰ صنيعي، وإذْ بهم واحد تلو الآخر يصنع ما صنعْت ويفترش الأرض علىٰ نحو ما فعلْت!

وبالتفاتة بسيطة إلىٰ المنجَزات الحضارية والابتكارات التي غزت شتىٰ مناحي الحياة حولنا، نجد أنها جاءت علىٰ يد جموع من المبدعين الذين سبحوا ضد التيار وفكّروا خارج الصندوق وغرّدوا بمنأىً عن السرب، ثمّ خاضوا غمار التحدّي وضحّوا بالأمان الكاذب. ورغم ما نالهم من اعتراض وتخذيل بلغ حدّ السخرية والاستهزاء، وشابه ما تَعرّض له نبيّ الله نوح وقت تشييده لسفينة النجاة من الطوفان؛ إلّا أنهم انتصروا في نهاية المطاف ووصلوا إلىٰ شاطئ الإنجاز وقطفوا زهور الربيع من قلب أعاصير الشتاء، فأذعن لهم مُخذِّلوهم وصفّقوا لهم طويلا وتوَّجوا رؤوسهم بأكاليل الغار! إذْ لولا هذا المركب الصعب من التفكير الخلّاق؛ لَما سبح الإنسان ضد الجاذبية الأرضية ووطأ بقدمه عتبات الفضاء، ولَما غاص عميقا في البحار ووصل إلىٰ اللؤلؤ متغلِّبا علىٰ طبيعته البشرية التي تأبىٰ أن تتنفس الأوكسجين المُسال كالأسماك، بل ولَما كانت السيارة والطائرة والتلفاز والحاسوب وأجهزة التبريد، وغيرها.

والواقع أنّ السباحة ضد التيار، تستلزم المشروعية والوعْي والمنطقية، وإلّا كان المصير غرقًا كغرق فرعون وجنوده في البحر الأحمر، أو سقوطا كسقوط أعجوبة السفن (تيتانك) في أقصىٰ قاع المحيط الأطلسي؛ بما يعني أنّ التَّعرِّي ليس سباحةً ضدّ التيار ولكنه خروج علىٰ العفاف الذي

أمر به الدّين، والإلحاد ليس سباحةً ضد التيار بل فسوق عن حقيقة الوجود، والتنكّر للقِيم التي استقرّ عليها العقل والنقل ليس سباحةً ضد التيار بل نقْض لعُرَىٰ الحياة. وبما يعني أيضا أنّ الغاية ليست الخروج عن النسق والسياق، ولا ازدراء كلّ مألوف معتاد، ولا البصْق علىٰ ما هو طبيعي وصحيح؛ فالسباحة مع التيار الصحيح تضيف قوّةً إلىٰ قوّتنا، وتصل بنا إلىٰ الهدف من أقصر طريق وبأقلّ مجهود ودونما مخاطر وخسائر، وهو ما تفعله الأغلبية من الأسماك التي تسبح مع التيار والأكثريّة من الطيور التي تطير في أسراب، ويؤازره ما رواه الحَبر ابن عباس عن نبيّ الهدىٰ والرحمة بقوله صلىٰ الله عليه وسلم: **"يد الله مع الجماعة"**.

كما تقتضي –أي السباحة ضد التيّار– الصبر والثبات، بحسبانهما معبر النجاة وطوق الإنقاذ، وانظر في ذلك السِّندان الذي يدوم –كما قال المثل– أكثر من المطرقة. ولعلّ أهم ثمرة أثمرتْها الشجرة المَكّية والتي استغرق بذرها وريّها وحصادها ثلاثة عشر عاما، كانت الثبات علىٰ المبدأ، وتطليق الحلول الجزئية، ورفْض المساومة علىٰ الكلّ بالنصف ثمّ الربع ثمّ لا شيء، إذْ **"من العبث أن تسبح مع التيار إذا كان الهدف يقع في الاتجاه الذي يأتي منه هذا التيار"**. وهو ثباتٌ ينبع من الإيمان بالمبدأ

والإخلاص له، لا من ثقةٍ عمياء وتعصّبٍ أجوف وعنادٍ بالباطل؛ إذْ ما أسهل أن يتلاشىٰ كلّ هذا أمام تهديدٍ ووعيد، أو إغراءٍ من أيّ نوع حتىٰ لو كان جزرةً تلوح أو برقًا يومض أو وعدًا بليل يمحوه النهار.

وتشتدّ الحاجة إلىٰ هذا النوع من السباحة في الأوقات العصيبة التي يعلو فيها الزبَد ويتكثّف الضباب ويملأ الأفقَ الدخان؛ كتلك الموجة العلمانية التي اجتاحت تركيا إبان سقوط الخلافة العثمانية وسبح ضدّها بديع الزمان النورسي فلاقىٰ ما لاقىٰ من التشريد والتنكيل، وتلك الحقبة الاستعمارية التي اجتاحت المشرق واستكان لها الناس وحسبوا أن لا خلاص حتىٰ برز لها ثائر الشرق جمال الدين الأفغاني، وتلك اللوثة التي مارس فيها البِيض عنصريتهم البغيضة ضدّ السُّود في أمريكا فوقف في وجهها الحاج مالك الشباز (مالكوم إكس). وقِس علىٰ ذلك الكثير من صفحات التاريخ التي اجتاحتها رياح التخلّف والجهل والاستبداد، فأبىٰ السابحون ضد التيار إلّا أن يسطّروا في متْنها وحواشيها حروفًا من ضياء وأعمالًا من قيمٍ ومبادئ. وفي هذا جاءت مقولة المفكّر عبد الكريم بكار:

"على المسلم الذي يريد أن يحيا وفق مبادئه وعقيدته أن يعوِّد نفسَه السباحة ضد التيار، وأن يمتلك طاقة استثنائية على التحمُّل والممانعة".

ومع الصعوبات الجمّة التي يلاقيها السابحون ضدّ التيار، ومنها نظرة الدهماء لهم علىٰ أنّهم مارقون، ووصْفهم بالشريك المخالِف الذي يتنكّب عن طريق السلامة إلىٰ طريق الندامة، وتبكيتهم بأمثالٍ بالية من نوع (الموت مع الجماعة راحة) و (ضع رأسك بين الرؤوس وقُل يا قَطّاع الرؤوس)، واحتجاجهم بقول الشاعر:

كُن في الجماعات حيث كانوا فالموت مع الجمْع عُرس

أقول رغْم هذه الصعوبات الجمّة، إلّا أنّ التكنولوجيا الحديثة وثورة الاتصالات وقفَت في صفّ هؤلاء السبّاحين وانحازت لفعلهم؛ فلم يعودوا جزرًا منعزلة يصعب التواصل بينها، ولم تَعُد أصواتُهم مكتومة

دون مُتنفَّس لها، وهذا ما خفّض الضريبة التي تَوجَّب عليهم دفْعها طواعية بحسبانهم استشهاديِّين يعيشون لغيرهم، وقادة مغاوير كُتب عليهم السيرُ في الخطوط الأمامية بصدرٍ عار وعزْمٍ واثق وإرادةٍ من فولاذ.

الدفتر الثاني

(العمَل)

(1) خادماتٌ لا مُلك يمين!

المالُ والأخلاق؛ ساقان نسعى بهما في مناكب الأرض، وتِرسان تدور بهما عجلةُ الحياة، وفي سلامتهما وعافيتهما يَجري النهرُ عذْبا فراتا، وتَغدو الحياةُ سخاء رخاء، فيَسعَد الأفرادُ وتَرتقِي الأمم. وكما في المال غِنى أُتخِم صاحبُه بالثراء، وفقْرٌ الْتحَف صاحبُه السماءَ وافْترش التراب؛ ففي الأخلاق كذلك غِنى تَدثَّر بشمائل الصفات ومكارم الطِّباع، و فقرٌ ضمر بساحِه الدِّين ومات الضمير، و يا ويْلَ مجتمعٍ اغْتنَى بالمال وافْتقَر في الأخلاق!

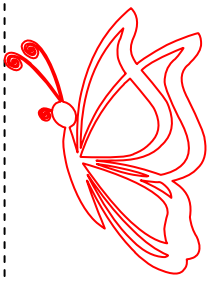

وضمن هذا الإطار الماليّ الأخلاقيّ، يُمكننا الإبحار في جلّ القضايا التي تعترض طريقَنا فتُعكِّر الصفْو وتُعرقل المَسِير؛ ومِن ثمّ نسبر الأغوار ونقف علىٰ البواعث ونقدِّر الأبعاد، وهو ما يشكِّل أساسا للحلّ وركيزة

للعلاج، وبين تلك القضايا التي ارتقَت إلىٰ حجم المشكلة ولكنها لم تصل بعد إلىٰ حجم الظاهرة؛ مشكلة ابتزاز المال للأخلاق عبْر التعدّي غير الأخلاقي علىٰ الخادمات التي غصّت بهنّ البيوت، وبِتنَ – عند بعض البيوت – علامة علىٰ الوجاهة وعنوانا للتباهِي ومحلّا للتفاخُر... والحديث هنا ليس حديث السامع أو القارئ أو المُتخرِّص، بل حديث الشاهِد المُعايِن الذي صادف بحكم عمله قضايا شائكة مِن هذا النوع، فأرّقت ضميرَه، وكلَمت فؤاده، واستحثّت قلمَه، إذْ إنَّ أمّةً دستورها الأخلاق؛ لَحرِيٌّ بها أن تكون خيْر سفير لِأَجلِّ دِين، وأفضل تطبيق لأعظم دستور.

فمعلوم أنّ ملايين الخادمات مِن دول آسيوية كتايلاند وأندونيسيا والفلبين والهند وبنجلاديش وسريلانكا ونيبال، ومِن دول إفريقية كأوغندا وأثيوبيا ونيجيريا، ومِن بعض الدول العربية كذلك، عضّهن الفقر وطحنهنّ العوَز، فأضْحت مدفوعاتٍ إلىٰ البحث عن عملٍ تعول به الواحدةُ منهنّ نفسَها وتسدّ رمق أسرتَها، عملٍ يحكمه إطَارٌ قانوني وإنساني؛ تعتني فيه بأعمال منزل، أو تتولّىٰ تربيةَ أطفال، أو تقوم علىٰ رعاية مُسِنَّة، أو تعين مريضة وعاجزة، وهي بذلك مهنة لها احترامها ولها ضرورتها التي تُبرّرها في الكثير مِن الأحيان، وكما قال الشاعر:

النّـــاسُ للنّـــاسِ مِـــن بـــدْوٍ وحاضِـــرةٍ

بعـــضٌ لـــبعضٍ وإن لـــم يَـــشعروا خـــدمُ

وقد أنعم اللهُ علىٰ بعض بلادنا العربية والإسلامية بالثروة النفطية التي تفجَّرت مِن تحت أقدامهم قبل ثمانين عاما تقريبا، فأهّلتْها تلك الطفرة الاقتصادية لتكون الوجهة الأولىٰ لهذه الجموع الغفيرة التي يُقدَّر عددَها بنحو ثلاثة ملايين، حتىٰ إنّ دولة خليجيّة بلغ تعدادُ الخادمات فيها حسب إحصائية رسمية ما نسبته حوالي 9٪ مِن التعداد العام للسكان! وبدَلا مِن أن تكون تلك الجموع الحاشدة فرصة سانحة لضرب أروع الأمثلة في التعامل الإنساني، وغنيمة باردة للتعريف عن قُرب بقيم الدِّين الإسلامي؛ علىٰ اعتبار أنّ الناس-كما يقول الإمام ابن تيمية- كأسراب القطا مَجبولون علىٰ تشبّه بعضهم ببعض؛ إذْ بنا نقف علىٰ بعض السلوكيات التي يَندىٰ لها الجبين، ونُصادِف بعض الانحرافات التي يَخجل منها الشريف.

فهذا رَبّ مَنزِل مَنّ الله عليه بالزوجة والولد، ولكنّه -وللأسف الشديد- ليس بينه وبين شهواته إلّا جدار من هواء وحاجز من غبار؛ فقد دأب علىٰ مراودة الخادماتِ عن أنفسهنّ، تارة بالترغيب وتارة بالترهيب،

ولا يهدأ بالُه قبل أن تُسَلِّم المسكينةُ منهنّ نفسَها طَوْعا أو كَرْها، وبلسانه هو؛ لم تَسلَم منه خادمة أيّا كان جنسها! وبعد أن يَلعن الشيطانَ الذي ألجمَه بلجامه وقادَه مِن زمامِه فأوْرده المهالك؛ يَرتجف خشية الإصابة بداء الإيدز، ويَطلب الاستشارة الطبيّة في ذلك!

وهذه خادمة يلحظ أربابُها أنها ليْست علىٰ ما يرام، فيحسبونها تتمارض في غير مرض وتتألّم في غير عِلّة؛ ويَظنونها تُدلِّس عليهم طلَبا لبرْد الراحة وهرَبا مِن كدِّ العمل، وإذْ بالفحوص تكشف عن حمْل، تَبيَّن أنّه نتَج عن افتراسها مِن قِبَل شباب المنزل الذين يَرتعون في أتون الفراغ، ويَركضون في ميدان اللهو، ويَحترقون بجمْر الشهوة؛ وكأنّي بهم يَدلِّلون علىٰ صدق الشّاعر القائل:

إنَّ الفـــــراغَ والـــــشبابَ والجِـــــدة

مَفـــــــسدةٌ للمـــــــرءِ أيّ مفـــــــسدة

وهذه أخرىٰ لم تَجد سبيلا لوقْف سيْل التحرّش بها، إلّا ادّعاء المرض، والتعلُّق بالطبيب -الذي هو أنا- تعلّق الغريق بطوْق النجاة ، ثمّ طلَب العوْن في إقناع مخدومها بتسفيرها إلىٰ بلدها، وذلك عبْر سبب وجيه أقترحه أنا...ورغم أنّ حادثةً هنا وحادثةً هناك لا تطعن في أخلاق

مجتمع برُمّته ولا تدين أمّةً بكاملها، إلّا أنّها قد تدلّ علىٰ قمّة جبل من الجليد، تتخفّىٰ في قاعدته حالاتٌ أخرىٰ مشابِهة، بيْد أنّها لم تُواتيها الشجاعة للبوْح، ولم تُسعفها الحيلةُ للتّحرّي عن مخرج والإفلات مِن هكذا محنة.

والواقع أنّ الخادمةَ عامِلة حُرّة، لا عَبْدة مُسترَقَّة ولا أَمَة مُستعبَدَة ولا سلعة مُشتراة، وهي بذلك لها حقّها الإنساني المُعتبَر ولها عِرضها الشريف المَصون، ويَستوي في ذلك المُسلمة وغير المُسلمة، والعربية وغير العربية، فالعدْل -كما قال الإمام ابن تيمية- واجب لكلِّ أحد علىٰ كلِّ أحد في كلّ حال، والظلم مُحرَّم مطلقا ولا يُباح بحال. ومِن هنا نلحظ أنّ أي انتهاك في حقّ الخادمة؛ يبدأ مِن النظرة الدُّونيّة لها، واعْتبارها ملكا كقطع الأثاث، ولعبة كالدُّمية، وملك يمينٍ جاهِز للتسْرية والتسْلية!

ثمّ يَزداد الأمر ضغثا علىٰ إبّالة؛ حين تُعتبَر الخادمةُ امرأة غير أجنبية عن رجال البيت، فتَتكشّف أمامهم وتَخلو بهم وتَسقط الحواجز بينهم. وكذلك حين يلجأ بعضهم بدعوىٰ حفظ الأمن وطلب السلامة، إلىٰ تركيب كاميرات مراقبة تبثّ علىٰ الهواء مباشرة حركة الخادمات في المطابخ والمخادع وربما الحمّامات أيضا! وعندها يفرك الشيطان يديه طرَبا ويُوقد نارَه فرحا وتكون الطامّة التي لا طامّة بعدها، إذْ الشيطان-

كما قال سعيد بن المسيب- ما يَئِس مِن شيء إلّا أتاه مِن قِبَل النساء... خاصة إذا علمْنا أنّ أغلب الخادمات دون الثلاثين؛ وهو سنّ خطِر بما يكفي لتوليد النزغات والنزوات، وأنَّ بعض الخادمات الآسيويّات آية في الحُسْن والتأنّق؛ حتىٰ لَتعجَب مِن توزيع الحظوظ والأرزاق بين المخدومة والخادمة. ناهيك عن أنّهنّ يُستقدَمْن بدون محرم يَرقب ويَحفظ، وأنَّ جزءا كبيرا منهنَّ أُمِّيات جاهلات ومِن بيئات تختلف ثقافةً ومعتقَدًا عما ندين به ونعتقده، بمعنىٰ أنَّ شرطا القوّة والأمانة ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾[1] والتي عليهما مدار الاختيار فيمن نُولِّيه أمرا من أمورنا قد ثُلِما وانتُقِصا.

وهنا وجب العروج علىٰ الهدْي الإسلامي الذي عامَل الخدَم أرقىٰ معاملة، وتَرَفَّع عن إيذائِهن بأيّة صورة مِن الصور الجسديّة أو المعنويّة، بل عدَّهنّ أمانة يتحتّم الحفاظ عليها؛ فقد روَت أمُّ المؤمنين **(أمّ سلمة)** رضي الله عنها أنّ رسولَ الله صلىٰ الله عليه وسلم دعا خادمة فلم تردّ، حتىٰ استبان الغضبُ في وجهه، ولمَّا وجدَتْها تلعب، قالت لها: أراك تلعبين ورسول الله يدعوك؟ فلبَّت النداء وقالت لرسول الله: لا والذي

(1) القصص 26.

بعثك بالحقّ ما سمعتُك، فقال صلىٰ الله عليه وسلم: **"لولا خشية القود (القصاص) لأوجعْتك بهذا السواك"**، كما رُوِي أنّه كان لسيدنا أبي هريرة رضي الله عنه خادمة زنجية غمَّتْهم بعملها، فرفع عليها السوط يوما، ثمّ **قال:** لولا القصاص لأغشيْتك به، ولكن سأبيعك إلىٰ مَن يوفِّيني ثمنك، اذْهبي فأنتِ لوجه الله.

قرّائي الأكارم: بالأخلاق عاشَت الأممُ ودامَت الحضارات، وبها تُصان النِّعم وتُساق البركات ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[1]، ولا شكّ أنَّ الخدَم هم أحدُ تلك النِّعَم التي تتطلّب شكرها والقيام بحقّها، وبأيدينا أن نَجعلَ منهم أبوابَ خيْر لا منافذ شرّ وشمسَ هداية لا ظلامَ غواية ونهْرَ صفْوٍ لا بَحْر كدَر، فلو أنّنا عاملْناهم بما يُمليه دينُنا الإسلامي؛ لَكانوا خيْر السفراء وأوْفىٰ الأصدقاء، ولَتغيَّرت علىٰ خطاهم خارطةُ العالم الدِّينية في سنوات معدودات؛ فالطّبع -كما قال ابن الجوزي في صيد الخاطر- سرَّاقٌ يَسرق مِن أهل زمانِه.

❀ ❀ ❀

(1) الأعراف 96.

(2) بعضٌ مِن دماء الذاكرة

علىٰ متْن أراجيح الزمن تُهدْهدنا الأحداثُ بيَد مِن قضاءٍ وقدر، فننسج مِن خيوطها حكاياتٍ تمتلئ بها خِزانةَ الذكرىٰ وتنبعج منها كنائنُ التجربة، لنُرطّب بها جدْب الليالي، ونعتصرها عبرةً تُنير الدرب وحكمةً تَهدي السبيل. ورغم أنّ لكلّ مهنة حكاياها التي تكتسي بطابعها وتتّسم بسماتها، إلّا أنّ لحكايا الأطباء-في نظري- نكهة لا تُضاهيها نكهة ومذاقا لا يَعدله مذاق، وذلك لأنّها تتسلّل عبر نافذة الروح؛ فتلامِس أعماقَنا وتتحسّس أوجاعَنا، ثمّ تلمْلم شعثنا وتروي عطش قلوبنا. وبالرجوع إلىٰ الحكاياتُ أيّا كان مصدرها ومهما بلغت ذروتها، نجد المجْد دوما للحكاية، والزمانُ أفْضل الحكّائين المُعلِّمين، بينما يَظلّ الإنسانُ أسْوأ السامعين المتعلِّمين!

وحكايتنا تعود إلىٰ قَبل عشرين عام بقليل، ومقرّها مدينة ساحلية نائية علىٰ شاطئ البحر الأحمر[1] تُدعىٰ **(سفاجا)**، حيث يرقد ميناء بحري

(1) للبحر الأحمر مسمّيات عدّة، سمّاه ابن جبير في رحلاته الشهيرة (بحر فرعون) نظرا لغرق فرعون فيه، وسمّاه (بحر عيذاب) نسبة إلى ميناء عيذاب على ساحله، وسمّاه أيضا (بحر جُدّة) نسبة إلى مدينة جدّة السعودية المطلّة عليه.

يودِّع وفودَ الحجيج كلَّ عام، وذلك حين حطَّتْ بنا الرّحالُ ونُصِبتْ لنا الخيام، بغرض تقديم الخدمة الطبيّة لحجّاج بيت الله الحرام الآتين من فجّ الصعيد.

وسبحان مَن يسّر سبل الحجّ علىٰ عباده، فبعد أن كان الواحد منهم يمتطي ظهور الإبل والحمير لشهور، صارت تكفيه بضع ساعات علىٰ مقعد وثير في طائرة مكيَّفة، ليضع بعدها قدميه علىٰ أعتاب مكّة. وبعد أن كان عبور البحْر بسفن عتيقة يستغرق ثمانية أيام كما ذكر ابن جبير الأندلسي في رحلاته، باتت بضع ساعات كافية للعبور والوصول. وبعدما كان الداخل مفقودا والخارج مولودا، حتىٰ ليحمل الحاجّ كفنَه علىٰ راحلته وروحَه علىٰ راحتيْه، إن لم يكن بفعل الأمراض والأوبئة، كان بفعل السلب والنهب وأحيانا القتل، أضْحت الاشتراطات الصحية والأمنية علىٰ قدم وساق، وبدَت الرحلة نزهة لا تشوبها شائبة.

وفي هذا لا يجوز أن يمنّ أحدٌ علىٰ الحجّاج بخدمة يؤدّيها إليهم، ويستوي في ذلك الأفراد والمؤسّسات والدول، بل عليهم أن يعتبروا الحجّاج سفراء فوق العادة، ولْيقتدوا في ذلك بالسلطان صلاح الدين الأيوبي، الذي دأب علىٰ مراسلة واليه علىٰ مكّة مع بدء كلّ موسم حجّ، مذكِّرا إيّاه بأنهما يرفلان في النّعمة ببركة هؤلاء الزوّار الكرام، وهو ما علمه

الحجّاج عنه، وحفظوا له الجميل، فكانوا إذا لهج إمام الحرم باسم السلطان، ضجّوا بالتهليل والتكبير والدعاء له.

ورغم تباعُد الأيّام وتَعاقُب السنين، إلّا أنّ ذكرىٰ تلك المرأة الستِّينية التي جعَّد قلمُ الزمان خدَّها وغضَّن رسّامُ الكِبَر جبهتَها، مازالت محفورة في بؤرة ذاكرتي، وحَيَّة في مقدّمة رأسي، بل مازال صوتُها المتهدِّج بلهجته الصعيديّة ونبرته النحاسيّة يتردّد في مسامعي مع إطلالة موسم الحجّ كلّ عام.

تلك المرأة التي جِيء بها علىٰ عجَل مع زوجها السَّبعينيّ، بعد أن تَهدّلت زاويةُ فمه وارتخىٰ حاجبُه واختلَّتْ مشيتُه وتلعثَمَتْ كلماتُه وخارتْ قواه، وذلك أثناء تكبدّهما عذابات الانتظار وضجّة الزحام ومَلل الإجراءات. ومِنها علمْتُ أنّ زوجَها مصاب بارتفاع في ضغط الدم، ويتناول علىٰ فترات متقطّعة بضعة أقراص يَروي بها ظمأ غريزة البقاء، ويُسكِّن هموم الحياة حين تستفحل الظروف وتستعصِي علىٰ الانقياد. وعندما رجوتُها إخراج الدواء مِن حقيبة أغراضهما القماشيّة التي تعتلي رأسَها تارة وتتوسَّد كتفَها تارة أخرىٰ، طوّحَت يدَها القابضة علىٰ مسبحة، مُستنكِرة أن تحمل الدواءَ في حضرة الطبيب الذي هو الحبيب صلىٰ الله عليه وسلم!

والحقيقة المُرّة أنّ الرجلَ لم يكن ذا نفوذ أو صاحبَ جاه أو كانزَ مال، بل كان مِثلي ومثل ملايين يعيشون ويمرضون ويموتون دون أن ينالوا رعاية كتلك التي تَعهّد بها **(ابن الخطاب)** البِغال، حين عدّ-رضي الله عنه- نفسَه وهو في المدينة مسؤولا عن عثرة أحدها في العراق، وبالتالي لم يكن مِن دواء لهذا المسكين إلّا دواء أبقراط وابن سينا وابن النفيس:**"فالِج...لا تُعالِج"**، إذْ لا وجود لوسيلة نقلٍ طائرةٍ تُسعفه إلىٰ مركزٍ متخصِّصٍ في جراحة المخّ والأعصاب، ليتمكّن مِن إجراء الفحص بالأشعة المقطعية أو التصوير بالرنين المغناطيسي، ثمّ إذابة الجلطة علىٰ وجه السرعة عبر الحقن بمذيبات الخثرة، أو التدخّل الجراحي لإيقاف تدفّق النزيف، خاصة بعد أن براه الداءُ واستعْصت عليه النّأْمةُ، وضاقت حدقةُ عيناه حتىٰ بدَت أضيق مِن سَمّ الخِياط .

ابتلعتُ الحقيقة المُرّة هذه-كما ابتلعتُها مرّات ومرّات مِن قبل- ودلفتُ إلىٰ جوار العجوز التي انحنَت بمحيّاها علىٰ رفيق دربها وأمير قافلة حجّها، تمسح جبهته برفق وتبثّه الأمَل بحدب وتُمنّيه بحقنة أو كبسولة تُعيد إليه ماءَ العافية ومِن ثمّ تكملة المشوار إلىٰ الدّيار المقدّسة، إذْ لم يكن هنالك بدّ من مغالبة حَرَجي وأسَفي، وإيجاز خبَر المرَض وانقطاع حبل السفر، ولكنّها بردائها الأبيض السابغ وسَمْتها الريفي القادم

مِن أعماق الصعيد، أسْلمتْني أذنَها لبرهة ثمّ سافرَت بقلبها وعقلها، فما شغل بالَها كنْه مرض اجتهدتُ في تبسيط وصْفه، ولا أهَمّ فؤادَها خطورةُ سكتة دماغية حاولتُ التخفيف من غلْوائها، ولا عكّر صفوَها إيماءةُ ببلوغ ساحل الحياة والوقوف علىٰ ثنيّة الوداع، بل شَلّ أركانَها وقَطّع أوصالها وأَسال دمعها؛ خيبةُ أمل جاوزَت الجمل كما يقول المثل، إذْ تَيقّنَت أنّ حلمَهما في ركوب الباخرة الراسية علىٰ بعد خطوات قد تبخّر، وتحقيق حلمَ السنين بالإحرام والتهليل والتكبير والحجّ قد ذهب أدْراج الرياح.

يقينًا؛ لا يكتوي بالنار إلّا مَن شبّت بأوصالُه، ولا ينزف الدمَ إلّا مَن تشقّقَت بالجراح أَدَمتُه؛ ولكنّنا قد نعيش بعض آلام الآخرين إذا جلسنا في مقاعدهم، وقد نتخيّل جزءا من مآسيهم إذا خبرنا دروبَهم وألممْنا بأحوالهم. فظنّي أنّ هذه العجوز لم تقطع الفيافي وتتكبّد المشاقّ، ولم تبع مصاغ عُرسها وماشية بيتها وغلال حقلها، لكي تُسقِط عن كاهلها فرض الحجّ فحسب، ولكنها في جوار كعبة أمّ القرىٰ وفي روضة الحبيب بمدينة النور، ستبسط رداء الأماني وتفضّ أختام الرسائل، فترفع كفَّيْن معروقتيْن وتحبس أنفاسا حَرّىٰ، لتستودع الله الأمانات وتُسِرّ له بالأمنيات؛ فترجو زواجًا لعانس، ومولودًا لعقيم، ونجاحًا لدارس، ووظيفةً لعاطل. كما

تطلب عافيةً لمريض، وتفريجًا لمهموم، وحرّيةً لأسير، ورحمةً لميت، وتسأل رِبحًا لتاجر، وغِنىٰ لفقير، وخصوبةً لزرْع، وغيْثًا لأرض، ونُصرة لمظلوم. وكأنها لا تحجّ عن نفس أزّها الحنين إلىٰ مقرّ الحبيب، ولا عن روح صهرها اللهْف والشوْق إلىٰ جوار البيت، بل تحجّ أيضا عن جارات أقعدهنّ المرض، وقريبات حبسهنّ العوز، وعن ملايين آخَرين قيَّدَتْهم الذنوب..فتبسط رداءَها وتطلب مسألتَها، وفي قرارها يقين وفي أعماقها ثقة، بأنها لن تَطوي وسطَه وتلملم أطرافَه كاسفة البال أو خائبة الرجاء ومكسورة الجناح.

وكما لا يَزيد الحِذقُ في الرّزق، ولا يُغني الحذَرُ مِن قدَر؛ فإنَّ الطبَّ لا يُطيل في العُمْر ولا يَنسأ في الأجل، إذْ ما لبث القدَرُ أن قال كلمتَه مِن فوق سبع سماوات، فصوّب الردَىٰ سهمَه في غضون أيام قلائل، وتَداعَىٰ علىٰ أثر ذلك أولادُ الرجُل وأقرباؤه؛ لاستلام جثة أبٍ حانَ قطافُه وطاب ختامُه، ثمّ كفْكفة دموع أمٍّ أظلمَ الموتُ الزُّؤافُ أُفقَ عيشِها وغرَّب نجمَ سَعدِها، بعدما صافحها كفُّ الحزن بحرْقة، واعتصَرها الأسىٰ بذراعيْن ممدودتيْن، حتىٰ باتت تفترش الهمَّ حصيرا وتتوسَّد الغمَّ ذراعا.

وإذا كانت السفينةُ لا تجري علىٰ اليابسة، والطائرة لا تُحلّق في غير الهواء، ولا يَشغل أحدُنا سوىٰ حيّزا واحدا في مكان واحد؛ فإنّ النّوايا

وحدها هي القادرة علىٰ الإبحار بلا ماء، والتحليق بدون هواء، والوصول بغير ذهاب، والحلول في أكثر من زمان ومكان! فلِلّه-كما قِيل- ألطاف تَقضِي بنيْل المَباغِي، ومِن تلك الألطاف الربانيّة ما دلّ عليها الحبيب صلىٰ الله عليه وسلم في حديث بدأ به الإمام البخاري صحيحَه وقال عنه العلماء بأنه نصف أو ثلث أو ربع الإسلام: **"إنّما الأعمال بالنيات وإنّما لكلّ امرئ ما نوىٰ.."**، وكذلك حديث الهَمّ؛ بمعنىٰ عزْم القلب وتصميمه علىٰ الفعل وتَوجّهه إلىٰ تنفيذه: **"وإذا همّ بحسنة فاكتبوها حسنة.."**. فرُبّ حاضِرٍ لم تَحضر نيّتُه فغاب، ورُبَّ غائب لم تَغِب نيّته فحضر.

ولأنّ رَبّ الخيْر لا يأتِي إلّا بالخيْر، ولأنّنا علمنا شيئا وغابت عنّا أشياء؛ فمِن تمام العقل الوعي بأنّ بعضَ الموت أهْون مِن بعض، وربَّما تلك الميتة البيضاء على الشاطئ خيْر مِن ميتة سوداء بين أنياب الحيتان. ومِن تمام الرأي إدراك أنّ الانشغال بكيفيّة الموت أقلّ أهميّة مِن الانشغال بما يجري بعد الموت..ولله درّ (ابن القيم) حين قال: "أساس كلّ خير أن تعلَم أنَّ ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن".

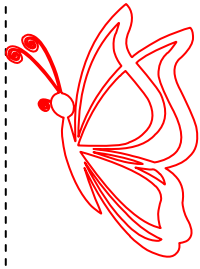

(3) الصراحة راحة

مع أنّ أكثرنا يَستاء مِن العودة بالذاكرة إلىٰ امتحانات أدارتْ رؤوسَنا إبَّان الدراسة؛ فأَمْطرتْنا بوابل من الأسئلة الشفهية والعمَلية والمَقالِيَة والاختياريّة، حتىٰ شابتْ منّا الرؤوس وتقوَّستْ الظهور وكلّت الأبصار.. إلّا أنَّ المنطق السديد، يُحتّم علينا اعتبار الحياة أشبه ما تكون بصالة امتحان كبرىٰ؛ فالأحداث التي نمرّ من بوّاباتها علىٰ مدار الساعة، سواء في البيت أو الشارع أو السوق أو العمل، لا تكفّ عن رشْقنا بأسئلة تتطلّب إجابات عاجلة مِن نوع (نعم) أو (لا). وبناء علىٰ تلك الإجابات تتحدّد معالم حياة نحياها، ونرسم لأنفسنا صورة مجتمعيّة يرانا الناس من خلالها، ومعها تنطلق الأحكام من منصة لا ينقصها القضاة؛ فيوُصف فُلان بأنه مثال للطِّيبة بحجّة أنه لا يُعارض أمرا ولا يَرفض طلبا، وكأنّ (نعم) ابنة كلّ خير! ويُوصَف علّان بأنه شرس ومتمرّد بدعوىٰ أنه لا يتورّع عن الرفض ويُبادر بالنقاش والجدال، وكأنّ (لا) مَنبت كلّ شرّ!

بينما يُوصَف ثالث بأنه ذو شخصية هشّة متردّدة؛ بذريعة أنه يتروّىٰ ويتوقّف عند إبداء رأي قاطع! وهي أحكام أقلّ ما تُنعَت به أنّها سطحيّة وجائرة.

فالحريّة جوهر الروح، والتخيير قدَر الإنسانية، والاختلاف سنّة الكون وطبيعة البشر؛ بمعنىٰ أنّ إجاباتنا علىٰ أسئلة الحياة لا يجب أن تسير علىٰ وتيرة واحدة، بل تتراوح بين الرفض والموافقة (وأحيانا التوقّف)، وتتطلّب (نعم) تارة و(لا) تارة أخرىٰ، وذلك بعد تحكيم النقل واستشارة العقل واستخارة القلب؛ فلا يُقبَل أن يكون أحدُنا السيّد (لا)[1]، ولا يجوز أن يكون أحدُنا إمّعة يهزّ رأسه صامتا واجما ثمّ يمضي يجرّ ذيلَه ضمن القطيع، ولا يُتصوَّر أن يصبح أيُّنا مستودعا لا يختزن إلّا (نَعَم) و(نَعمَيْن)؛ حتىٰ لو كان ذلك بدعوىٰ الحفاظ علىٰ شعرة معاوية، أو بدافع الرغبة في مدّ حبال المودّة وبناء جسور العلاقات الطيبة، أو كان تطبيقا للحكمة القائلة: **"مَن لان عودُه كثفت أغصانه، ومَن لانت كلمتُه وجبَت محبّته"**...

(1) يُطلَق لقب السيّد (لا)، على الطفل في عمر السنتين ونصف، والذي يقول عنه بعض خبراء علم النفس والتربية أنه يكثر من قول (لا).

فالصدق منجاة حتىٰ لو لبس ثوب الرفض، والصراحة راحة وإن جاءت علىٰ طبق مِن (لا)، والمنْع الجميل أحسن من المُطْل الطويل. وأن تجرحني ب (لا) وأنت صادق، خير لي ألف مرّة من أن تُداويني ب (نعم) وأنت كاذب. وكما قال(روبين شارما) في كتابه (دليل العظمة): **" هناك قيمة ضخمة في تَعلُّم قول (لا)؛ فالموافقِين دائما لا يمكنهم أبدا فعل أيّ إنجاز عظيم، وفي كلّ مرّة تقول فيها (نعم) لشيء غير مهمّ، تقول فيها (لا) لشيء مهمّ"**.

والواقع أنّ الجواب (لا)؛ يتطلّب وعيا نقديّا وحضورا ذهنيّا وشجاعة روحيّة، ويؤشِّر علىٰ امتلاك الإرادة واحترام الذات وتقدير الهويّة، ويحمينا مِن تحمّل مسؤوليّات لسنا أهلا لها، ومِن تقمُّص مواقف لسنا في وفاق تامّ معها. أضِف إلىٰ ذلك أنّ (نعم) حين تأتي مِن تحت الأضراس ووراء الحجاب ودونما اقتناع منّا؛ غالبا ما نبخسها حقَّها ونُخْلِف وعدَها؛ وساعتها ستُصبّ علينا اللعنات القادمة رأسا من قعر الجحيم، دونما اغتفار لعذر أو إقالة لعثرة، ودون أن يشفع لنا خجلُنا الذي ورَّطَنا في هكذا موقف ظاهرُه (نعم) وباطنه (لا). وفي هذا أُثِر عن المهاتما غاندي قوله:

"إنّ كلمة (لا) التي تُقال إثر اقتناع عميق، لها اثر افضل وأعظم من (نَعم) التي تقال للإرضاء أو تفادي المشاكل".

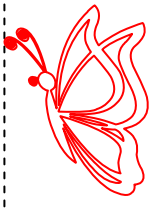

كما نظَم الشاعر(المثقّب العبدي) ذلك المعنىٰ، فقال:

حسنٌ قول (نعم) بعد (لا) وقبيحٌ قول (لا) بعد (نعم)

وإذا قلتَ (نعم) فاصبر لها بنجاز الوعد إنّ الخلفَ ذمّ

ومن منظورٍ أوسع، نتخطّىٰ فيه الفرد الواحد إلىٰ الفرد الجماعة؛ نجد الأمم التي جاوزت طور المراهقة، وحلّقت عاليا في مثلّث الاحتياجات الإنسانية لِواضِعه عالِم النفس الأمريكي (ماسلو) في منتصف القرن الماضي؛ تتنفّس الكرامة وتقتات الحرية وتحترم العقل وتحضّ علىٰ الإبداع؛ وفي رحابها نجد الإجابة (لا) حاضرةٌ وبكامل عنفوانها؛ تَهدر كالموج وتدوِّي كالرصاص وتسير آمنة بلّا حرّاس. وفي هذا يكمن سرٌّ

نهضتها التي ارتقت علىٰ سلّم العصف الذهني، وأرضيّة الرأي المخالِف، وشفافية المواقف، وقوّة وحيويّة المجتمع.

هذا علىٰ النقيض من أمم أخرىٰ لازالت ترسف في القيود وتتمدّد تحت ظلِّ الكبت؛ إذْ تجد فيها (نعم) هي الخيار المفضَّل والزيّ الموحَّد والنغمة الأكثر رواجا؛ وذلك بعد أن ألبَسها بعضُ السّدَنة زيّ الاحترام وسربال الأدب، فساقوها -كذبا ودجلا- في ألفاظ ديناصورية يُبهَت سامعُها ولا يَخجل قائلُها؛ كالوحدة الوطنية والسلام الاجتماعي والأمن القومي واللحمة الداخلية (وهي كلّها معانٍ سامية ومقدَّرة)، بل تَمادىٰ بعضُهم وألبسوها مسوح الدِّين وأنزلوها منازل الفتوىٰ؛ فهادنوا حزبَها وعادوا مَن خرج عن إطارها، بحسبانه مارقًا وخوارجيّا. بينما (لا) في قاموسهم المحرَّف وتنزيلهم المؤوَّل؛ ليست إلّا نصل سيف وحدّ سكّين ومطرقة هدم! وهو ما يعكس تغوّل سلطة الدولة وانسحاق قوىٰ المجتمع.

والحقّ أنّ مجتمعات تلك أحوالها وذاك رسمها؛ لَهي مجتمعات بائسة، إذْ لا تمانع في اختناق (لا) وراء الضلوع، وانحباسها مع غُصَص الحُلُوق، وجريانها مع الدمع المالح والأنّات المكبوتة والزفرات المحمومة. ولا تدري أنّ في أجواءٍ مسمومة كهذه، تعلو شأن (نعَم)

المتسلِّطة؛ ليقهر الأبُ أبناءَه باسم الأبوَّة، ويمتهن الزوجُ زوجتَه تحت بند القوامة، ويُبعثِر المعلِّم إنسانيةَ تلاميذه بحجّة التعليم، ويقبض الرئيسُ علىٰ رقاب مرؤوسيه بدعوىٰ المسئولية، ولا مانع من غشيانها أروقة السياسة لتُخرِس كلّ معارضٍ بزعم المصلحة العامة، وهيمنتها علىٰ ناصية الصحافة لتَقصف قلمًا خرج عن النصّ بتهمة التهييج والإثارة! وقِس علىٰ ذلك ما يسبح فيه خيالك ويمتدّ إليه بصرك، من مواصفات عالَم (أورولي) رسمه جورج أورويل في روايته العبقرية المسمّاة (1984).

مُؤسِف أن ترقد (لا) وسط غرفة إنعاشنا المكتظّة؛ فتستصرِخ مَن يَنفخ فيها الروح ويَمنحها قبلة الحياة ويَسوقها إلىٰ مقدّمة الركب؛ باعتبارها بوابة التغيير وبوصلة النهوض، وبحسبانها يد حقّ تفقأ عين الظالم وتردّ الغاصب وتمسك بتلابيب المخطئ، ناهيك عن كوْنها جرَسا ينبِّه الغافل ويحرك الماء الراكد.. علىٰ أن لا تكون إرادةً سالبة تُوهن العزم وتُروّج للجمود، ولا تركب مطيّة الفوضىٰ فتبدّد هيبة الدولة، ولا نُحلّها لأنفسنا فنجترّها ونُحرِّمها علىٰ غيرنا فنتأفّف من سماعها؛ بل يجب أن تتمتّع بنُبل الفرسان وحكمة الفلاسفة؛ فتقترن بجميل الفعل وأدب الحوار ومهارة

التواصل وصدق الطَّوِيّة وحنكة الموقف، وتشكّل جزءا من حلّ لا مقدّمةً لإشكال، وتطرح البدائل ولا تكتفي بوضع العِصيّ في الدولاب؛ فليس بخافٍ أنَّ بعض الصراحة وقاحة، وأنّ بعض (لا) الخشنة والعنيفة قد تقصِم الظَّهر وتُحبط النَّفس وتُطفئ نور الأمل. ولْنتذكّر جيّدا أنّه لا وجود لـ (لا) الأبديّة التي ترافقنا كتوأم ونرافقها كظلّ. ثمّ نقرّ ونعترف بأنّ تقدُّم الدول مرهون بالتوازن بين الحقوق والواجبات، وبالموازنة بين قوّتَي السلطة والمجتمع. ولا ننسىٰ أنّ من فنون القول ذكر أسباب الرفض؛ لِما يمثّله ذلك من تخفيفٍ لوقْعه واحترامٍ لمتلقِّيه.

ولعلّنا نلحظ أنّ شهادة التوحيد تبدأ بـ(لا)، وأنّ أبانا آدم لم يهبط مِن علياء السماء إلىٰ سفح الأرض إلّا بعد أن قال (نعم) في الوقت الذي تَوجَّب عليه قول (لا).كما نلحظ أيضا أنّ التاريخ لم يحتفِ كثيرا بمَن أجابوا (نعم)، ولكنّه سطّر في أضابيره، وبحروف من نور، هؤلاء الذين قالوا (لا) في زمانها ومكانها الصحيح، فأناروا شعلة العدل وأضاؤوا وجه الحريّة؛ أمثال العزّ بن عبد السلام الذي أنكر بها خيانة حاكم دمشق، وسيد قطب حين صدح بها في وجه الطغيان، وغاندي عندما جأر بها قبالة الاحتلال، ومانديلا وقتما حارب بها العنصريّة، وألبرت أينشتاين الذي مجَّدها وأَقرّ بفضلها، **بقوله: "أنا مُمتنّ لكلّ هؤلاء الذين قالوا لي (لا)**

لأنّني بسببهم فعلتُها بنفسي". وربّما قرأ أحدُنا عن الأمريكية روزا بارك التي قالت (لا) لسائق حافلة طلب منها إخلاء مقعدها لشخص أبيض، ثمّ كرّرَت (لا) في وجه شرطيّ استدعاه سائق الحافلة لتنفيذ عنصريّتهم البغيضة، وهو ما شجّع الملوَّنين المضطهَدين في أنحاء أمريكا علىٰ أن يقولوا (لا) للعنصرية، فقاطعوا الحافلات وفضّلوا المشي بكرامة علىٰ الركوب بامتهان، ممّا أجبر الحكومة الأمريكية علىٰ الرضوخ لمطالبهم في نهاية الأمر.

ومن باب الطرافة، قال أحد البخلاء: (لا) خيرٌ من (نعم)؛ لأنها حرفان، فتقتصد حريْراتك وجهدك في التلفّظ بها! أمّا خير ختام وأفضل إيجاز لِما سلَف، فهو دعاء الفيلسوف الشاعر محمد إقبال: اللهمّ أَعطني القوّة لأقول (لا)، وأَعطني العقل لأعرف كيف أقولها، وأَعطني الكفاية لأعرف متىٰ أقولها.

(4) فنّ التكيُّف

قبل نحو ربع قرنٍ من الزمان، وضمن عرْسي الميمون الذي أحياه الأصدقاء كأفضل ما يكون، دون الحاجة إلىٰ قاعة أفراح يذوب فيها الحياء حين يختلط الحابل من الرجال بالنابل من النساء، أو فرقة هزليّة تفتعل السرور علىٰ طريقة النائحة المستأجَرة وسجْع الكهّان، أو غيرهما من مظاهر الترف المعجون ببعض المنكر؛ سألني مقدِّمُ الحفل ضمن ما أسماه فقرة (مع العريس)، عن أغرب حالة مرضية لقيتها، ولأنّ الذاكرة في مثل هذه الظروف تتلعثم ومعها يطيش اللسانُ في صحْفة البيان، هأنذا الآن أجيب بعد أن ذهبَت السّكْرة وجاءت الفكْرة، مع الاعتذار عن هذا التأخير، فأن تأتي متأخّرا ربع قرن خير مِن أن لا تأتي أبدا!

ومريضي العجيب والغريب، هو ذاك البدوي الممشوق القوام، اليابس القسمات، الطاعن في السنّ، المتّكئ علىٰ عصاه، والمفعَم بصلابة الجبال وخشونة الرمال وطِيبة النّدي، تماما كفرسان الزمن البعيد، عنترة بن شدّاد

وسيف بن ذي يزن وأبي زيد الهلالي، الذين جمعوا بين قسوة الملامح ورقّة المشاعر ونبل الفضائل. جلس علىٰ كرسيّه بهدوء يُحسد عليه، وراح يسرد بصوته الأجشّ حكايته المزمنة مع المرض، سردا جَسورا يخلو من آهات أو دمعات يحلو للبعض أن يضمّخ بها شكواه، ظنًّا منهم أنّ ذلك يثير انتباه الطبيب ويستدرّ مزيد عطفه ورعايته! ثمّ أخرج من جيبه أنبوبا بدت عليه آثار الزمن كوجه صاحبه المجعَّد؛ و**قال:** أريد مثل هذا فقط ... تفحّصتُ الأنبوب وقلّبتُه ظهرا لبطن، فوجدتُه صنفا من الأنابيب المطّاطية (القسطرة)[1] التي تُستخدم في إفراغ المثانة بشكل طارئ، وبواسطة طبيب أو ممرِّض متمرِّس. خمّنتُ أنه مصاب بتضخُّم البروستاتا أو اعتلال في حركيّة المثانة، يؤدّىٰ إلىٰ انحباس متكرّر في البول، وهناك ما يمنع من إجراء عملية جراحية له، فاضطُر للتّأقلم والتكيُّف مع استخدام هذا الأنبوب ثلاث أو أربع مرات يوميا ليفكّ أسْر بوله المنحبِس، وذلك بنفسه ودونما مساعدةٍ من أحد.. مع أنّه كفيف!!

(1) كانت القسطرة من النوع المعروف في الأوساط الطبية بـ (قسطرة نيلاتون)، والتي يعود ابتكارها إلى الجراح الفرنسي (أوغست نيلاتون) في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، وبها كُتب السطر الأخير في إفراغ المثانة عبر الأنابيب المعدنية التي عانى منها المرضى طويلا وولّت إلى غير رجعة.

والحديث هنا ليس عن غرائب وعجائب، فبالتأكيد هناك ما هو الأعْجب بين جنبات الحياة العريضة، والأغْرب ضمن موسوعة جينيس الشهيرة؛ ولكنه عن فنّ من فنون الحياة يفتقده بعضنا، وعن قوّة نفسية وذهنيّة لازمة كالماء والهواء، وعن أداة اتّصال فعّالة مع النفس والناس والحياة بوجه عام، وعن إدارة ذكيّة لبركان الضغوط اليوميّة. عنه قال عالِم التاريخ الطبيعي تشارلز دارون: **"ليس أقوىٰ أفراد النوع هو الذي يبقىٰ، ولا أكثرهم ذكاء، بل أقدرهم علىٰ التأقلم"**. واعتبره الشاعر الفرنسي دو لامارتين نصف النجاح **بقوله: "الناجح لا يشتكي الظروف، بل يفكِّر في تغييرها أو التأقلم معها"**. ولا تَعارُض هنا بين ما ذكره علماء الاجتماع من أنّ التأقلم يركّز علىٰ تَلاؤم السلوك الإنساني وتوافُقه مع ظروف البيئة الطبيعية، بينما يرتبط التكيُّف بظروف البيئة الاجتماعية والعلاقات الإنسانيّة.

وتأتي ضرورة التأقْلم من أنّ الحياة ليست خطّا مستقيما أو بساطا من حرير، بل هي منحنيات كالطرق الوعرة بين الجبال، ومسرحٌ كبير كما شبّهها الشاعر الإنجليزي وليم شكسبير؛ فيها التراجيديا المُبكية والكوميديا المُضحكة، وفيها ملهاة تُبهجنا ومأساة تُحزننا، وفيها ما نستطيع تغييره وما لا طاقة لنا بتعديله، وهذا الأخير هو ما يجب التأقْلم

معه بالقبول، والتكيّف معه بالرضا، تماما كما تفعل الدّببة في سُباتها الشتوي والقنافذ في بياتها الصيفي، وإلّا صرنا عالقين في مرحلة من الإنكار تُضنينا وتَستنزفنا، وبعيدين عن مرحلة من الرضا تصون بيضتَنا وتعزّز طاقتَنا، فعدم الرضا –كما تقول الحكمة الصينية– أعظم النكبات.

ومعلوم أنّ التعرُّض لصدمةٍ أيًّا كان نوعها، مثل فقْد عزيز أو خسارة ثروة أو مرض عضال، يجابهها المرءُ شعوريًّا عبر خمس مراحل، وفق ما ذكرتْه الخبيرة النفسية إليزابيث كوبلر قبل نحو نصف قرن؛ فتبدأ بمرحلة الإنكار، ثمّ مرحلة الغضب، فالمساومة والتفاوض، ثمّ الاكتئاب، قبل أن يحطّ الرّحالَ بأمان في مرحلة الرضا والقبول. وهي مراحل طبيعية تتفاوت في شدّتها ومدّتها من شخص إلىٰ آخَر، ومن خلالها يتعافى الشخص تدريجيا ممّا ألمّ به، شريطة أن لا يعلَق في إحدىٰ حلقاتها، ويحرِم نفسَه من سلامة الوصول إلىٰ شاطئ التأقلم ومرفأ التكيّف.

وهو فعل واعٍ يتميّز بالدينامية والإيجابية، ويوسّع قاعدة البدائل والخيارات أمامنا، ونحتال به للولوج إلىٰ واقع يبدو لنا ثقيل الوقْع صعب المراس؛ فيحتاجه المريض المزمن حتىٰ لا يحترق بنار القلق والتوتّر والاكتئاب، ويحتاجه المغترب حتىٰ لا تتحوّل الغربة إلىٰ منفىٰ، ويحتاجه المسجون حتىٰ لا يغتاله الجنون أو يوسوس له الشيطان

بالانتحار، ويحتاجه مَن يعايش هذا العصر اللاهث المتغيّر حتىٰ لا يصبح أثرا في متحف أو جيفة عفىٰ عليها الزمن. ويحتاجه كذلك مَن وضعتْه الأقدار في قالب لا يناسبه وظرف لا يلائمه؛ فيمدّ به جسور التعايش وحبال التواصل، ويستشفي به من نطْح الحائط ومصارعة الهواء ونفْخ الرماد، فيعي أنّ كلّ ما يتمنّاه المرء ليس يدركه، ويَقبل عن طيب خاطر بنصف الحلّ وشطر الغنيمة. خاصة أنّ العالَم كما نرىٰ شاسعٌ بما يكفي لكي لا يكترث بنا، وغنيٌّ بما يكفي لكي لا يأبه لنا، وبالتالي لن يتغيّر من أجلنا ولن يكيِّف نفسه علىٰ هوانا، وعلىٰ عاتقنا نحن يقع واجب الاكتراث والاهتمام ومِن ثمّ التكيُّف والتّأقْلم، وكأننا بذلك المسلك العاقل الناضج ننخرط في الرقص مع الحياة، ونوقِّع مع أطرافها معاهدة صلح شامل وسلام دائم.

وفي هذا رُوي أنّ عجوزًا صينيّة دأبَت علىٰ نقل الماء من البئر إلىٰ البيت، عبر إنائيْن مربوطيْن بعمود خشبي تحمله علىٰ كتفيها، ولمّا كان أحد الإنائيْن مشروخا ولا قدرة لها علىٰ استبداله، وعزّ عليها هدر الماء علىٰ جانب الطريق دون فائدة، فقد احتالت لهذا الماء وتكيّفَت مع ذاك الشرخ، فنثرَت بذور أشجار الورد، التي ما لبثَت أن نمت وأزهرَت علىٰ جانب الطريق بفعل الماء المتسرّب، ليتجمّل بالورد الطريق ويتعطّر

النسيم ويزدان به بيتها ويتطيّب.. وكأنها صنعَت من ليمونة حامضة يتقزّز منها اللسان، عصيرًا لذيذا تهفو إليه النفس وتشتاق.

ولتقوية عضلات التكيُّف وشدّ أزْر عزيمة التأقلم؛ يجب العلم بأنّ كلّ ما يجري تحت السماء مقدّر ومكتوب، وأنّ الرضا بالمكتوب من دعائم الإيمان. كما يتوجّب الإقرار بأنّ الأقدار لا تنام، بل تعمل في لطف وخفاء، وفي الوقت الذي نظنّ فيه أن اللعبة انتهت وأنّنا بإزاء سدّ منيع كسدّ ذي القرنين، إذْ بالأقدار تتحفنا بكل ما هو جديد وسعيد، لتؤكّد لنا أنه ما مِن حزن يبقىٰ وما مِن سعادة تدوم، بل هي جولاتٌ من الكرّ والفرّ نتأرجح بها مع الأيام، وأشواطٌ من الإقبال والإدبار يختبرنا فيها الزمان. ومن نافلة القول أنه ما مِن أحد علىٰ وجه البسيطة إلّا وناله من كدر الدنيا حظّ كثُر أو قلّ، ومَن نظر إلىٰ بلوىٰ الناس هانت عليه بلواه، ولو خُيِّر الناس في اختيار مصائبهم ما اختاروا إلّا ما هم فيه، والواقع أنّ الفكاك من تلك الأكدار والتخفيف من وطأتها ممكنٌ إذا ما غلَّبنا البصيرةَ علىٰ البصر، والمنطقَ علىٰ الهوىٰ، والعقْلَ علىٰ العاطفة.

والتأقلم والتكيّف المعنيّ هنا، هو ما يعامَل معاملة الدواء؛ فيُقدَّر بتوقيتات مقرَّرة وجرعات محدَّدة. ويعامَل معاملة الضرورة التي تُقدَّر بقدرها؛ فيوضَع في إطاره الصحيح ونسقه المنضبِط، ولا يشوبه تنازل عن

مبدأ، أو إعراض عن هويّة، أو تفريط في حقّ، أو مهادنة لباطل؛ وإلّا صار تركيعًا للطموح، وتقزيمًا للإرادة، وسقفا واطئا لا يرتضيه حرّ ولا يقبله إلّا ذليل.. وهو ما يراهن عليه دعاةُ الباطل كثيرا، حين يجعلون الزمن مطيّتهم، فيتوهّمون أنّ استمرار الباطل كفيلٌ بالتعوُّد عليه والتكيُّف معه، ناسين أنَّ الجمال قد يزول باعتياد رؤيته لأنّ شفيف رقيق، بينما الباطل لزجٌ وثخين، ولا يزول قبحُه ولا يذهب نتْنُه حتىٰ لو طال الزمن سرمدا.. وهذا ما تَمرّد عليه الشاعر العراقي الساخر أحمد مطر وقال في حقّه:

وضعوني في إناء
ثمّ قالوا لي تأقلَم!
وأنا لستُ بماء
أنا من طين السماء
وإذا ضاق بي إنائي
بنموّي يتحطّم!

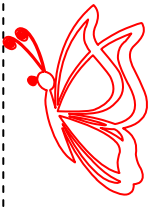

(5) أزمةُ رجولة

رُوي أن طفلًا سأل أباه: ما معنىٰ رجُل؟ فقال أبوه: هو مَن يحبّ أبناءه، ويسهر علىٰ راحتهم، ويضحّي من أجلهم. فقال الطفل: أريد أن أصبح رجلًا مثل أمّي. والواقع أنّ هذا الطفل الداهية يقدح –دون قصد– في الأب أكثر ممّا يمدح في الأم، وينعي –ببراءة– رجولةً اختلّ مفهومها عند بعضهم، فخلط بين الذكورة كنوعٍ يشاركه فيه الطيور والحشرات وسائر الحيوانات، وبين الرجولة كصفةٍ يختص بها الصنف العالي من البشر، ثمّ نجَمت عن ذلك مشكلاتٍ هددّت نواة الخليّة البشريّة وهي الأُسرة وقوّضت روح العالَم وهو المجتمع. ولعلّ هذا يشير إلىٰ أنّ الحكمة كما قد تسيل مع لعاب المجانين، فإنها أيضا قد تجري علىٰ ألسنة الأطفال دون أن يدرون، ودون أن يلتفت إليها الكبار ويعيروها أيّ اهتمام.

وضمن السياق ذاته، وجَّهَت امرأةٌ حانقةٌ سؤالها إلىٰ أحد العلماء قائلة: كيف يكون الرجال قوّامون علىٰ النّساء وأنا التي أعمل، وأنفق علىٰ

البيت، وأربّي الأولاد، وأنجز كلّ مهام الحياة اليومية، وأعطي زوجي مصروفه، وأصرخ في وجهه إن لزم الأمر؟! فردّ الشيخ قائلا: القِوامة للرّجال لا للذكور.

وفي هذا، وقفْتُ علىٰ حالة طلاق، بطلها زوجٌ نفض يده من الرجولة واكتفىٰ منها بمنكبٍ عريض وصوتٍ غليظ وشاربٍ كثّ يملأ الوجه ويفيض، فشمّرَت الزوجةُ عن ساعديْها علىٰ مقولة **"مُجبَرٌ أخاك لا بطل"**، وانطلقَت تعول أسرةً من أربعة أفراخ صغار ينتظرون الطعام والكساء والتعليم والعلاج والتربية، فالتحقَت بعمل إضافي إلىٰ جانب وظيفتها كمعلّمة، وبات لزامًا عليها أن تخوض غمار الأسواق فتبيع وتبتاع، وتدور علىٰ المؤسّسات الحكومية لتُنهي هذه المعاملة وتلك، وتلبّي إلىٰ جانب ذلك كلّه ما يتطلّبه المنزل من طبْخ وكنْس وغسيل وترتيب، وهو ما لم تحتمله علىٰ المدىٰ الطويل بعدما جمعَت بين مهام أُمّ العيال ومسؤوليّات رجل الدار، فانهارت علىٰ أثره قواها ونفدت طاقتُها وعِيل صبرُها، وتحوّلت بموجبه من حديقةٍ إلىٰ خرابة ومِن زهرةٍ فوّاحة إلىٰ شجرة يابسة ذابلة، لا لشيء إلّا لأنّها خاضت معترَكًا ليس لها وكلّفت الأيامَ ضدّ طباعها، فالأنثىٰ كما جاء في المعجم الوسيط هي خلاف الذكَر من كلّ شيء، وكما لم يُخلق الإنسان الصالح لكلّ العصور،

فإنّه يستحيل وجود المرء القادر علىٰ أداء جميع الأعمال والمهام. ولعلّ هذا يُوحي بأنّ الوجودَ الفاعل للرجل في حياة المرأة يحفظ لها شبابَها وتتفتّح به زهرتُها، بينما غياب الرجل حسيًّا أو معنويًّا، يَعصف بها عصْف الخريف بالورَق والريح بالشجَر والحريق بالحطب.. وانظر في ذلك إلىٰ عانسٍ يُزيدها اليومُ أيامًا فوق عمرها، ومطلّقةٍ يُزيدها الشهرُ شهورا فوق عمرها، وأرملةٍ يُضيف إليها العامُ سنوات فوق سنّها. وكما وراء كلّ رجل عظيم امرأة، فإن وراء كل أسرة عظيمة رجل، ووراء كلّ أمّة عظيمة رجال.

وبنظرةٍ فاحصة علىٰ التشريح والفسيولوجيا وعلم النفس؛ يتضح لنا أنّ الرجال والنساء كيانان مختلفان فيزيائيّا وكيميائيّا، ومخلوقان متفاوتان تركيبيّا ووظيفيّا، وكلٌّ منهما ميسَّرٌ لِما خُلق له، والتمايز بينهما للتكامل لا للتنافر وللتعويض لا للتفضيل، ومنهما معًا نَبني أنجح مشروع تنموي، ونُشيّد أقوىٰ وأكمل مؤسّسة اجتماعية، وهي مؤسّسة الأسرة التي عليها مدار الحياة السليمة الصحيحة. وبهذا كان كمال عقل الرجل مكمِّلٌ لنقص عقل المرأة، بينما كان تمام عاطفتها متمِّم لنقص عاطفته. وكما كانت خشونته ميزة أمام رقّة المرأة، فإنّ هشاشتها وطراوتها قوّة أمام صلابته وشدّته. ولعلّ أكثر المشكلات الأسرية منْبتها الإدراك الخاطئ

تجاه هذه الحقائق، فينْسىٰ الذكَر أنه رجل وتنسىٰ الموظّفة أنها أنثىٰ، ويختلط الحابل بالنابل والكوع بالبوع. إذْ كيف يحلّ الأوكسجين محلّ الهيدروجين؟! وكيف ينوب الزجاج عن الحديد؟! ولهذا فإنّ المرأةَ ليست نصفَ المجتمع ولا الرجل نصفه الآخر، إذْ لا وجود لهذا النصف في غياب الآخَر، ولا بقاء لحياةٍ تشرق شمسُها بحضور الرجال ويغرب قمرُها باختفاء النّساء.

وقد احتفي القرآنُ بالرجولة كمعني وقيمة ومسئولية، فعلّق في رقبتها قِوامة شرحها شيخ الأزهر المرحوم محمود شلتوت **بقوله:**

"قِوامة الرجال على النساء لا تعدو درجة الإشراف والرعاية؛ بحكم القدرة الطبيعية التي يمتاز بها الرجل على المرأة، وبحكم الكدّ والعمل في تحصيل المال الذي ينفقه في سبيل القيام بحقوق الزوجة والأسرة. وليست هذه الدرجة درجة الاستعباد والتسخير كما يصوّرها المخادعون والمغْرضون".

أمّا الشيخ محمّد الغزالي فقد حدّد ملامح اكتمال هذه الرجولة **بقوله:**

"التلطّف مع الإناث والرفق بهنّ، آية اكتمال الرجولة ونماء فضائلها".

وقد جاء الرجل في ثنايا الوحْي الإلهي تارة بالإفراد: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾[1]، وتارة بالتثنية: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾[2]، وتارة بالجمع: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾[3]، وذلك عبر مواقف طيّبة كريمة تدوم فيها المعاني وتنحسر الشخوص والأسماء، وذلك حين صدعوا بالحقّ ولم يَجبُنوا، ووقفوا في وجه الباطل ولم يداهنوا، وضحّوا بالنفيس دون أن يبخلوا. وما جعل الله سبحانه الأنبياءَ والرسلَ رجالًا ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِيٓ إِلَيْهِمْ﴾[4] ليرفع الرجال فوق النساء درجات، ولكن ليضع كلٌّ منّا نفسه أمام مسؤولياته وواجباته دون اعتساف أو إهمال، وليعلم القاصي والداني أنّ الرجولةَ قرينةُ الرسالة بما فيها من أعباءٍ وتبعات.

والواقع أنّ الرجلَ بحقّ يأنف أن تُنتقَص رجولته أو أن يُطعن فيها؛ باعتبارها شامته وتاجه؛ كهذا الذي قِيل له: لنا حويجة (تصغير حاجة) جئناك تقضيها لنا، فردّ بإباء وشمَم: اطلبوا لها رُجَيْلاً (تصغير رجل).

---

(1) القصص 20.

(2) المائدة 23.

(3) التوبة 108.

(4) الأنبياء 7.

وكما يُلام الرجل علىٰ تقصيره في حقّ الرجولة؛ فإنّ المرأة أيضا تلام وبشدّة حين تنسىٰ أنها أنثىٰ شبَّهها النبي صلىٰ الله عليه وسلم بالقارورة ومثّل لها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بالرّيحانة؛ وذلك حين تُزاحِم الرجالَ في الشوارع والأسواق بلا ضرورة، وتغدو كلاًّ مباحا كالحديقة بلا أسوار والخزينة بلا باب، ثمّ تتحوّل في بيتها مِن أنثىٰ تفيض بالرقّة والجمال إلىٰ غابة تكسو أرضَها الأوراقُ الصفراء والأعشاب اليابسة والجذوع الشائخة!

ويبدو أنّ أزمة الرجولة عابرة للأزمان، وعيون النساء كانت لها دومًا بالمرصاد؛ فقد رصدتْها (عائشة الحرّة) قديما لحظة أفول شمس الإسلام في الغرب عام 1492م، وذلك حين سقطت الأندلس ووقف ابنُها ملك غرناطة (أبو عبد الله) ذليلا باكيا، فقالت له: ابكِ بكاء النساء مُلْكًا لم تحفظْه حفظ الرجال! ورصدتْه مغرّداتٌ علىٰ موقع التواصل الاجتماعي الشهير (تويتر) حديثا بمناسبة اليوم العالمي للرجال، فكتبَت إحداهنّ: هو يومٌ للرجل.. ماذا عن الرجولة؟! وغرّدت أخرىٰ قائلة: كونوا رجالًا حقيقيين لا نريد مزيدًا من أشباه الرجال، بينما غرّدَت ثالثة: يا ذكور العالَم: تَرجّلوا.

ويبدو أنّ الأزمة ليست قاصرة علىٰ الأزواج، بعدما قلّ الرجال الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيْع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وكثُر الرجال الذين تلهيهم شهوات المال والبنون وتلهبهم أهواء النّساء والجاه، ولا أدلّ علىٰ ذلك من شباب يرتدون الأساور ويحفرون الوشم ويُظهرون ما خفي من السراويل ويرتادون صالونات التجميل ويحملون في حقائبهم المرايا كالنساء! وكانوا بذلك جزءا من هزائمنا المتتالية في ميادين الحياة السياسيّة والاقتصادية والعلميّة.

واليوم العالمي للرجال هو أحد الأيام الاحتفاليّة الدولية، وُلد عام 1999م في منطة نائية من العالم تُعرف بجمهورية ترينيداد وتوباجو، وحُدّد له التاسع عشر من نوفمبر كلّ عام، وأَقرّتْه الأمم المتّحدة مناسبة دوريّة لطرح قضايا الشباب والكبار، وتسليط الضوء علىٰ الدور الإيجابي للرجل في الحياة، وهو بالطبع ليس حلّا لأزمة الرجولة التي باتت في خطر، والتي يكمن حلّها في الإصغاء لمقولة عمر بن الخطاب رضي الله عنه: **"لا يعجبكم من الرجل طنطنته، ولكن مَن أدّىٰ الأمانة وكفّ عن أعراض الناس، فهو الرّجُل"**، والامتثال لأديب العربية الكبير مصطفىٰ صادق الرافعي في قوله: **"إنّما الرجولةُ في خِلالٍ ثلاث:** "عمَلُ الرجل علىٰ أن يكون في موضعه من الواجبات كلّها قبل أن يكون في هواه، وقبوله

ذلك الموضع بقبول العامل الواثق من أجْره العظيم، والثالثة: قدرته علىٰ العمل والقبول إلىٰ النهاية".

ولا بأس هنا من إشارة إلىٰ كتاب ساخر بعنوان (أزمة رجّالة)؛ يُلام صاحبُه[1]علىٰ الإكثار من العاميّة، ويُحمد له وبشدّة رصده الصارخ لملامح الأزمة في الشارع والبيت والإعلام والتعليم والأدب والعلم والدعوة؛ فاشترط للرجولة أن تكون للأكتع يدا وللأعرج رِجلا وللطفل أبا وللمرأة حاميا، وألّا تستغل قوّتك وضعف الآخَرين ولا غناك وفقر الآخَرين ولا ذكاءك وبساطة الآخَرين، وألّا تكون ذيلا لأحد ولا تتنازل عن القمّة والمقدّمة في كل شيء. هذا قبل أن يسوق مقترحه بتدريس مادة الرجولة في المدارس، وعقد اختبار في الرجولة لأصحاب المهن كجزء من إجراءات الترخيص بمزاولة المهنة، إضافة إلىٰ مناداته بجائزة للرجل المثالي علىٰ غرار جائزة الأم المثالية!

(1) الكتاب من تأليف الشاعر إيهاب عبد السلام وصدر في عدة طبعات عن دار الفاروق بمصر

(6) وماذا بعْد؟

ذات صباحٍ مشرق باسم، خلّفه وراءه قطارُ العمر بمسافة ثلاثين عاما، ولإنجاز مهمّة تخصّ دراستي العليا في طبّ الأمراض الباطنية، تأبّطتُ حقيبتي وشددتُ الرّحال إلىٰ قاهرة المُعِزّ التي تقبض بيدٍ من فولاذ علىٰ كلّ الوزارات، ولا مفرّ من الحجّ إليها في الملمّات، وما أكثرها! وبعد أن يسّر الله قضاء مأْربي، وأثناء انتظاري بإحدىٰ محطّات قطار الأنفاق لبدْء رحلة العوْدة الظّافرة، التقيتُ زميلًا باعدَت بيننا السّنون وجرىٰ في نهر أيامها أحداثٌ ما بين فراتٍ وأُجاج، فجاء لقاؤه كالماء الزّلال وسْط الهجير والمركب الوثير بعد كلَل المَسِير؛ إذْ تَذاكَرْنا الأيّام الخوالي وما فيها من نشوةِ محبَّةٍ لله وفي الله، عليها اجتمعنا وفي ظلِّها تَفيّأنا.

وعلىٰ مائدة حديثنا العامر سرَت لذّة الخدر في أبداننا وتَسلَّل برْد السكينة إلىٰ نفوسنا، فاجْتزنا معًا سبع محطّات مرّ فيها الوقتُ أسرع من البرْق، وصار عذابُ السّفر أشهىٰ من حلاوة الظَّفَر! وما إن وصلْنا

المحطّة الأخيرة، وأذّن مؤذّن الرحيل، حتىٰ وجَب فينا الفؤاد وترقرق الدمع وتعانقْنا طويلًا علىٰ وعْدٍ بلقاء قريب. وفي عقِبها آب إليّ رشْدي، وأُسقِط في يدي، ومادت الأرض تحت قدماي؛ إذْ أدركتُ أنّي فقدتُ حقيبة يدي بما فيها من مالٍ وبطاقات وشهادات! ودار بخلدي ساعتها كيف لي أن أحلّ مشكلة المال بإراقة ماء الوجه والتسوّل علىٰ ناصية المحطّة؟! وأنّىٰ لي أن أدور كالرّحىٰ هنا وهناك لإعادة استخراج بطاقات وشهادات ذهبَت أدراج الرّياح؟! وكلّ هذا يهون أمام تخيُّل محاكمة صارمة تنتظرني جرّاء فقْد هويّتي العسكريّة، وفضيحة يعلم بها القاصي والدّاني، حيث كنتُ يومها ضابطًا احتياطيًّا بالجيش!

ووسط هذه الدوّامة التي فَتّت في عضدي وعصفَت بشجرة فؤادي وشغَلت سحابةَ ذهني، وفي الوقت الذي لم يُعِرني أحدٌ من الراكضين في المحطّة انتباهَه، ولم يَدْرِ بي واحدٌ من الملايين القاطنة بين جنَبات عاصمةٍ أَضنىٰ جفنيْها طولُ السّهر وأَرهق أديمَها نعالُ هذه الكثرة الكاثرة من البشَر؛ ساقتْني قدماي الواهنتان إلىٰ مكتب شرطة القطار، وشرحتُ لهم ورْطتي بينما يغصّ الكلامُ في جوف حلْقي ويختنق الدمُ في أحشاء وجْنتي وينزّ العرقُ من سطح جبهتي، فمصْمص الضابط شفتيه، وأَلمح إلىٰ صعوبة إرجاع ما فات، وشبّه البحث عن حقيبتي بالبحث عن إبرة في

كومة قش أو عن صديق في يوم الحشر؛ معلِّلًا ذلك بالزحام الكثيف والمحطّات العديدة التي قطعْتُها في رحلة الإياب، ومعقِّبًا بأنّ الأمانة صارت أندر من كبريت أحمر، دون أن يدري أنّه بذلك يسكب زيْتَه علىٰ نارٍ شبّت في كبدي، ويدعس بملْحه جرحًا نافذًا في أعمق أعماقي.

ومع هذا فقد شرع مشكورا في تأدية واجبه بالاتصال علىٰ نظرائه في المكاتب الملحَقة بالمحطّات الفائتة واحدةً تلْو الأخرىٰ، بادئًا بالأقْرب فالأبْعد. ولم يكن لي مِن حيلةٍ عندها سوىٰ أن أتمْتم بالدّعاء وأعلّق بصري وسمْعي بهاتفه، والذي توالَت منه الردود النافية للعثور علىٰ هكذا حقيبة، ومع كلّ ردّ سلبي يأتيه عبر الأسلاك، كان يرمقني بنظرة تُحدِّث بدقّة حدْسه وتَحقُّق ظنّه، حتىٰ حان دورُ المحطّة الأخيرة التي جاءَت بالبشْرىٰ، **فقالت:** سلامًا، وألْقَت علىٰ قلبي قميص يوسف.

وفي لمْح بصرٍ غالبتْه دموعُ الفرحة، كنتُ بداخل مكتب شرطة المحطّة الموعودة، وأمامي الحقيبة العائدة ممَدَّدةً علىٰ الطاولة، بمحتوياتها كاملةً غير منقوصة، المال والبطاقات والشهادات، بعدما عُثر عليها جثة هامدة ملقاةً علىٰ مقعد الانتظار في المحطّة، وهو المقعد الذي تقاسمْتُ فيه مع صديقي نخْب الزمالة وعصير الذكريات. أمّا مَن تَربَت يداه بالعثور عليها واختارتْه الأقدارُ ليكون شاهدا علىٰ أنّ الخيْر باق في أمّة محمّد إلىٰ يوم

الدِّين، فكانت فتاةً عشرينيّة أودعَتْها المكتبَ ورحلَت، دون أن تنتظر منّي شكرًا جرّاء أمانتها، ودون أن تترك لي أثرًا يدلّ عليها، وكأنّي بها تردِّد قول علّام الغيوب: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾[1].

ما أودّ قوله هنا: هو أنّ الدنيا بخير، فلا الأمانة ضاعت ولا المروءة رحلت؛ هناك أتقياء يخافون الله في السرّ والعلن، وأنقياء يحبّون إخوانهم البشَر، وطيّبون يبذلون المعروف دون مَنٍّ وأذىٰ. وهم في العدد كالحصىٰ والرّمل، وفي العمر صغار وكبار، وفي الجنس نساء ورجال، ولا يخلو منهم مجتمعٌ في الشرق والغرب، وبهم ينفع الله البلادَ والعباد. وستبقىٰ نبتة الخير في الأرض خضراء زاهرة طالما أن الشمس تشرق كلّ صباح ويودّعها الليل كلّ مساء، وذبولها بالكليّة يعني انفضاض سوق الحياة وعلامة علىٰ قيام الساعة. وفي هذا شاع علىٰ الألسنة والأقلام مقولة: "الخير فيَّ وفي أمتي إلىٰ يوم القيامة"، وهي مقولة صحيحة المعنىٰ وسليمة الجوهر، ولكنها ليست بحديث كما يعتقد الكثيرون.

بينما يبقىٰ الشرّ حاشيةً علىٰ متْن، واستثناءً في قاعدة، تمامًا كالزّبَد الذي يطفو علىٰ وجه السيل ثمّ لا يلبث أن يذهب جُفاء، مصداقًا لقولّ

(1) المزمل: 20.

الحقّ جلّ وعلا: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [1]. ومن واجبنا أن نُحيي الخيرَ بذكْره، ونُعلي شأنه بنشْره، ثمّ نُميت الشرَّ بتركْه ونقبره بهجْره ونقزّمه بالإعراض عنه ووضعه في حجمه أو حتىٰ دون حجمه؛ وذلك علىٰ قول الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه والذي ورد في كتاب (حلية الأولياء) لأبي نعيم الاصبهاني: **"إنّ لله عبادًا يميتون الباطل بهجْره، ويحيون الحقّ بذكْره"**، وتَأسِّيًا بالشاعر جرير بن عطية الكلبي الذي حكىٰ عنه بشّار بن برد قائلا: هجوتُ جريرًا فأعرض عنّي واستصْغرني، ولو أجابني لكنتُ أشْعر النّاس".. خاصّة إذا علمنا أنّ صوت الشرّ دومًا أعلىٰ من صوت الخير، ولمروره دويٌّ كدويّ الرعود وانفجار البراكين، في دلالة علىٰ أدب الخير ورقّته، وسوء أدب الشرّ وفظاظته، فأنْكرُ الأصوات صوت الحمير الناهقة لا صوت الطيور المغرّدة، وأطْيب الهواء ما كان نسيما يشفي العليل لا ريحًا يَعصف ويُبيد.

الفرْق بين الفتاة الأمينة التي أعادَت حقيبتي في محطّة القطار، وبين الشابّ البائس الذي سرق نعالي في إحدىٰ الصلوات؛ أنّ الفتاة وهبها الله بُعد النظر، **وسألَت نفسَها:** وماذا بعد؟ فعلمَت أنّ الباقيات الصالحات

(1) الرعد 17.

خيرٌ عند ربها ثوابا وخيرٌ أملا، واختارَت الأمانة علىٰ الخيانة والوفاء علىٰ الغدر والخير علىٰ الشرّ. بينما طمس الشيطانُ علىٰ بصيرة الشاب، فأُصيب بقصر نظرٍ سلبه التفكيرَ في المآل، وزيّن له ما بين يديه مِن مكسبٍ عابر ومتاعٍ زائل، بعدما غاب عنه أن يسأل نفسه: وماذا بعد؟

لو أدرك التاجرُ الغشّاش ما ينتظره من كسادِ تجارته في الدنيا وبوارِ حظّه في الآخرة لمَا غشّ، ولو تَفكّر الزاني في ما يحلّ به من رجْمٍ أو جلْدٍ في الدنيا ونكالٍ وشقاءٍ في الآخرة لمَا زنىٰ، ولو تمعَّن القاتل فيما بعد القتْل مِن قصاصِ الدنيا وجحيمِ الآخرة لمَا قتَل.. ولكنّها الغفلة عن السؤال الذهبيّ: وماذا بعد؟ وقصر النظر الذي يَذهل به صاحبُه عن غده فيَرِد باختياره أتونَ المهالك وسُوء العواقب.. لاهٍ بذلك عن أنّ الحازم –كما قال محمد أحمد الراشد– مَن نظر في العواقب نظر المُراقِب، وغافل عن عن قول الإمام علي رضي الله عنه: مَن راقب العواقبَ سلم من النوائب.

وإذا كان قصر النظر المادّي يتكفّل به أطبّاء العيون، ويداوونه بنظّارة أو عدسة أو جراحة؛ فإنّ قصر النظر المقصود هنا، يتكفّل به أطباء القلوب، في عيادات روحانية، يتجاور فيها المريد مع الشيخ أو العابد مع القرآن أو المرْء مع الجليس الصالح، فيتعاطون كبسولاتٍ إيمانيّة ترفع نسبة المراقبة التي عليها مدار السعادة في الداريْن، ويَدّهّنون بدهان

الإحسان الذي تنعم به حياتهم وتزدهر، ويكتحلون بإثمد الفضيلة الذي يضمن لهم طول النظر وسلامة البصيرة.

وقد يعجَب المرء حين يعلم أنّ جزءًا معتبَرا من حسناته المسطَّرة في صحائف أعماله، تأتي من سيّئاتٍ نوى اقترافها! نعم مِن شرورٍ وآثامٍ عقد العزمَ على اجتراحها، ولكنّه على عتباتها سأل نفسه: وماذا بعد؟ فرأى برهانَ ربّه، وولّاها ظهرَه، وأقلع عن ارتكابها؛ حِسبةً لله، وطمعًا فيما عنده مِن آجِل الثواب. وفي هذا حاشانا أن نفتئتَ على الله الذي يَفعل ما يريد ولا يُسأل عمّا يَفعل، بل نستحضر حديثَ المصطفى الذي رواه عن ربّ العزّة والجلال، وأخبر فيه أنّ مَن نوى سيئةً ولم يفعلها حِسْبة لله، كُتبت له حسنة كاملة.

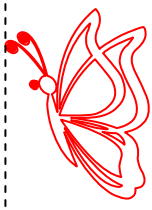

(7) الدُّعابة في الميزان

مِن بين ملايين كادحة تطحنها رحىٰ الحياة بعنف، أعرف أحدَهم أجبرتْه ظروف عمله علىٰ قطع عشرات الكيلومترات بسيارته يوميّا جيئةً وذهابا، لاقىٰ أثناءها صنوفًا من المتعجِّلين في قيادة السيارات؛ فهذا يومض النور العالي ولسان قلبه يقول تنحَّ جانبا فحبيبتي في انتظاري علىٰ أحرّ من الجمر، وذاك يطلق بوق آلة التنبيه ولسان معدته يقول أَفسِح الطريق فأصدقائي في انتظاري علىٰ طاولة الطعام، وثالث لا يجد سبيلًا إلّا السّباب ولسان حاله **يقول:** تبّا لك، إليك عنّي، فلا صديق لي ولا حبيب. وحيال ذلك، استعان صاحبُنا بروح الدعابة وخفّة الظلّ، فكتب بخطٍّ بارز علىٰ مؤخّرة سيارته (أطير مثلا).

والدعابة كما عرَّفها الفيلسوف الألماني جورج هيجل: هي ميل العقل والقلب لقول الحقائق بأسلوب مرح. بينما وصفها الكاتب الفرنسي رابليه **بأنها:** رسالة اجتماعية مقصودٌ منها إنتاج الضحك أو الابتسام. وهي

إحدىٰ السمات الشخصية التي تصنع الفارق بين شخصٍ مرح تبتهج به القلوب وتبشّ له الوجوه ويهشّ لقدومه الحضور، وبين شخصٍ عَبوس تنقبض منه القلوب وتكفهرّ الوجوه وتتمنّىٰ لحضوره غروبًا لا شروق بعده، بل ويتسابقون إلىٰ كسر الجِرار وراءه واحدةً تلو الأخرىٰ. وقد صنّفها علماء النفس والاجتماع كإحدىٰ أنواع الذكاء العاطفي والاجتماعي التي يتمنّىٰ الجميع حيازتها؛ باعتبارها ترسانةً مِن الأسلحة الاجتماعية علىٰ حدّ تعبير عالِم النفس الأمريكي فرانك مكاندرو، وبحسبانها ذات مردودٍ إيجابيّ وفعّال علىٰ الشخص نفسه وعلىٰ غيره، وبوصفها أقصر مسافةٍ بين شخصين إلىٰ حدّ تشبيهها بالكاهن المتخفِّي القادر علىٰ تزويج شخصيْن مختلفيْن. وهي ما رمَىٰ إليه ابن الجوزي مِن وراء قوله: لمّا كانت النفس تملّ من الجدّ، لم يكن بأس من إطلاقها في مزْح ترتاح به. ودعا إليها الجاحظ **بقوله:** مَن كان فيه فكاهة فقد بريء من الكِبْر.

ولا مبالغة في القول بأنّها ركنٌ أصيل في التجربة الإنسانية قديمها وحديثها، وبمثابة لغةٍ عالمية يستجيب لها البشَر من شتّىٰ الأعمار والأجناس والثقافات، سواء كانت في شكلها الملفوظ أو المكتوب أو الحركي. وهي موهبة وسليقة ترتبط بالبيولوجيا والجينات والتنشئة،

وتكثر في الأشخاص ذوي الطبيعة الانبساطية المتسامِحة المتّزنة، وهؤلاء المتّصفين بسرعة البديهة ودقّة الملاحظة، وأرباب المزاج المتفائل الذين ينظرون إلىٰ الوجه المشرق ونصف الكوب المليء ووجه القمر المضيء، وكذلك أصحاب المشاعر الرقيقة والحسّ المرهف الذين يرصدون الذات والآخَرين والعالَم بعينٍ راضية ونظرةٍ باسمة. ولهذا كان المكتئِبون أقلّ سكّانها؛ إذْ إنّ فاقد الشيء لا يعطيه ولا يملك الرادار اللازم لالتقاطه إنْ طاف بمجاله. كما جاء العدوانيون والطغاة في ذيل متعاطيها؛ فذُكر أنّ الفيلد مارشال الألماني (مولتكه) أحد القادة العسكريين اللامعين في فضاء النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كان جادّا متزمّتا لم تعرف الدعابة إلىٰ نفسه سبيلا، ولم يفلح شيطان الضحك معه سوىٰ مرّتين؛ مرّة عندما تُوفِّيت حماته! وثانية عندما أُخبر بأنّ السويديين شيّدوا سورا حول العاصمة ستوكهولم وادّعوا أنه منيع يستعصي علىٰ الاقتحام.

وللدعابة وظيفة نفسية واجتماعية تسهم في تحسين جودة الحياة؛ إذْ تشيع جوًّا من الألفة وتزيل الشعور بالحرج وترفع الكلفة، فتدكّ الحواجز وتسهّل التواصل وتعمّق الصداقات. كما أنها ردُّ فعلٍ ناضج تجاه المواقف المحرِجة، وبديلٌ لطيف للمخاشنة والعنف، وعربةُ إطفاءٍ

للأجواء الملتهبة المتوتّرة، ووسيلةٌ مأمونةٌ ومقبولة نغلّف بها آراءنا النقدية وملاحظاتنا الاعتراضية. فضلًا عن كونها طاردة للسآمة والملل، ومخفّفة للآلام والأحزان، ومعزِّزة للروح المعنوية، وجالبة للسعادة والفرح. بل إنّ فيها الأجْر والمثوبة إذا ما تَمثّل المرءُ قول النبي صلىٰ الله عليه وسلم: **" إنّ مِن أحبّ الأعمال إلىٰ الله إدخال السرور علىٰ قلب المؤمن"**، وقول الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه: **"روّحوا القلوب ساعة بعد ساعة، فإنّ القلوب إذا كلّت عميت"**. ولعلّ هذه هي الخلطة السحرية التي وضع بعض الدعاة أيديهم عليها فحازوا القبول مِن أوسع الأبواب، وتحلَّق حولهم الشباب والشيوخ والنّساء والفتيات؛ أمثال فارس المنابر الشيخ عبد الحميد كشك، والشيخان سليمان الجبيلان ووجدي غنيم، علاوة علىٰ الإمام الشعبيّ الذي أخذ العِلم عن خمسمائة صحابيّ وولي القضاء زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز ومع ذلك اشتُهر بالدعابة والظّرف؛ فرُوي أنّ رجلا استفتاه **قائلا:** تزوّجتُ واكتشفتُ بعد الزواج أنّ امرأتي عرجاء، هل أردّها؟ **فأجاب:** إن كنتَ تزوجتَها لتُسابق بها فرُدَّها. فتبسّم الرجل وقفل إلىٰ زوجته راضيًا بقسمته.

وفي إشارة إلىٰ سلطة الدعابة، وقوّتها في قضاء الحاجات، وقدرتها علىٰ إبداء التبرّم والسخط دونما عنف؛ رُوي أنّ رجلا أتىٰ الوزيرَ العبّاسي عليّ

بن سليمان، فقال له: بالذي أَسبغ عليك هذه النِّعم مِن غير شفع كان لك، إلّا أنصفْتني من خصمي وأخذتَ لي الحقّ منه، فإنّه ظَلوم غشوم لا يستحي من كبير ولا يلتفت إلىٰ صغير، **فقال:** أَعْلِمني مَن هو؟ **قال:** الفقر، فضحك عليٌّ وأمر له بعشرة آلاف دينار. كما رُوي أنّ المحامين بمحكمة الاسكندرية زمن الحكم الروماني لمصر، وإزاء عسف القضاة الرومان وحيفهم، لم يجدوا من سلاح ليثأروا به إلّا الدعابة والفكاهة أثناء مرافعاتهم، فحملَت رسائلهم باقتدار وأوجعت هؤلاء القضاة، فحرَّموا علىٰ المحامين دخول المحكمة. أمّا في أروقة السياسة؛ فذُكر أنّ ونستون تشرشل أغمض عينيه في شبه إغفاءة أثناء حديث طويل ومُملّ لممثّل الحزب المنافس له في مجلس العموم البريطاني، فاحتجّ المنافس لدىٰ رئيس المجلس قائلا بأنّ السِّير تشرشل نائم، ففتح تشرشل عيناه في تثاقل **وقال:** يا ليتني كنت كذلك.

ومع أنّ المدوّنة الحياتية زاخرة بالكثير من الدعابات التي تناقلتْها الأجيال، خاصّة ما تَعلّق منها بالمشاهير فعُدّت من النوادر، أو ما حلّت أثناء أزمات عصيبة وكانت سببا في تفكيكها والتخفيف من وطأتها؛ إلّا أنّ قتامة المادّة التي باتت تصبغ نمط الحياة الحديثة وما جرّته مِن تعقيدات ولأْواء؛ تحتّم علينا كأفراد وجماعات إيلاء جانب الدعابة والطرفة

والمزاح حيّزا معقولا يلذّ به العيش، وتذهب معه الهموم، وينقطع معه الصراخ، ويحلّ علىٰ أثره الأمن والوئام.. ولأجْل ذلك: أَوْجبها الشيخ علي الطنطاوي علىٰ الكُتّاب **بقوله:** الفكاهة حقّ مشروع من حقوق القارئ المثقَل بأعباء الحياة وهمومها. وحرص عليها حبْر الأمّة فيما رُوِي أنّ تلامذته كانوا إذا أكثروا من مذاكرة القرآن وتفسيره وقراءة الحديث وكتابته، **قالوا:** يا ابن عباس أَحمِض لنا قليلا، فيسرد لهم مِن القصص ما فيه فكاهة وطرافة ليُذهب عنهم الملل والضجر. أمّا ابن عيينة فسُئل: المزاح سُبّة؟ فأجاب: بل سنّة لمَن يُحسنه.

والحقّ أن المرء لن يُحسِن المزاح، إلّا إذا أمسك بزمام الخيط الرفيع الذي يدقّ عن شعرة معاوية، فيميّز بين دعابةٍ مقصودة تتوخّىٰ صدق المضمون وبراعة العرض ومراعاة الظَّرف والزمان والمكان، لتصبح كالظلّ في الهجير والنبع في البيداء والعطر في الثياب والفاكهة علىٰ المائدة. وبين أخرىٰ ممجوجة تحفل بالركاكة والسطحية والسخف والكذب؛ وذلك حين تخوض في الأعراض، وتحقّر الأشخاص، وتَسخر من الآراء والمعتقدات، وتدغدغ المشاعر برخيص النكات وساذج الحركات. وهو ما تقوم به مجموعة من البهاليل في المسرحيات والأفلام والمسلسلات وبرامج الكاميرا الخفيّة، علىٰ قاعدة الضحك للضحك والفنّ للفنّ،

وعلىٰ تفسيرٍ عقيمٍ لمقولة **"ساعة لقلبك وساعة لربك"** يجعلون فيها ساعةَ الربّ عبادة وطاعة وساعةَ القلب معصية وفجورا!

ولعلّ أصدق وصفٍ لهذا الخيط الرفيع الفاصل، هو ما قاله بعض العلماء مِن أنّ الإكثار مِن المزاح والخروج عن الحدّ مُخِلٌّ بالمروءة والوقار، بينما التنزُّه عنه بالمَرَّة والتقبُّض مُخِلٌّ بالسنّة والسيرة النبوية المأمور اتّباعها والاقتداء بها. أمّا خير تطبيقٍ لتلك الوصفة السحرية فهو شيخ الإمام ابن حجر، الذي وُصف بأنّه كان معروفًا بحبّ الفكاهة والمزْح واستحسان النادرة، وكان لا يسمح لأحدٍ بالغِيبة. ولله درّ الماوردي حين قال: العاقل يتوخّى بمزاحه أحد حاليْن لا ثالث لهما: إيناس المصاحِبين والتودّد إلى المخالِطين، وأن ينجلي مِن المزاح ما طرأ عليه وحدَث به مِن همّ.

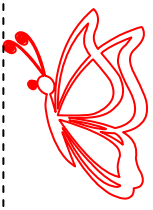

(8) الرّجُل المناسب؟

إذا اختلفْنا حول أبوّة الإدارة الحديثة، التي ينسبها بعضهم إلىٰ الأمريكي فردريك تايلور (1856-1915م) صاحب كتاب الإدارة العلمية، بينما ينسبها آخَرون إلىٰ النمساوي المولد الأمريكي الموطن بيتر دراكر (1909-2005م) صاحب فكرة الموظّف المفكِّر والإدارة بالأهداف؛ فإننا لن نختلف حول أهمية الإدارة كقاطرةٍ عملاقة للنجاح في شتّىٰ مجالات النشاط الإنساني، ولن نختلف أيضا حول الوضع الإداري الهزيل الذي نعيشه في محيطنا العربي وكان سببًا مباشرا في احتلالنا للقاع بجدارة، ذلك القاع الذي يسمّونه تأدُّبا بالدول النامية أو المتخلِّفة، والذي شخّص داءَه ووصف علاجَه بيتر دراكر **بقوله: "ليس هناك دول متخلِّفة اقتصاديا، بل هناك دول متخلِّفة إداريا فقط. فكلّ تجاربنا في الدول النامية تؤكِّد أنّ الإدارة هي المحرّك الرئيسي للتنمية، وبدون توافُر هذا العنصر لا يمكن تحقيق التنمية حتىٰ لو توافرت جميع عناصر الإنتاج الأخرىٰ"**.

والحقّ أنّ عصرنا الحديث لم يَعُد به من الأسرار الكثير، فالإدارة هي أداء الأعمال الصحيحة بطريقة صحيحة، والإدارة الهادفة ترتكز علىٰ مبدأٍ بسيط نعرفه ولا ننفّذه ونلوكه ولكن لا نطيقه ولا نطبّقه، ألَا وهو وضع الرجل المناسب في المكان المناسب؛ فلا يُعقل أن يكون للشباب وزيرٌ تخطّىٰ الكهولة وتبخّرت فيه روح الشباب! ولا يُقبل أن يكون للرياضة مسئولٌ انقطعَت صلته بالرياضة منذ طابور الصباح المدرسي! ولا يُتصوّر أن يكون علىٰ رأس التعليم طبيبٌ شابَ شعرُه بين الأسرّة البيضاء! ولا يُستساغ أن يقود رجلٌ دولةً بينما هو نفسه في حاجة ماسّة إلىٰ مَن يقوده بدنيّا وذهنيّا! وهكذا الحال في العديد من الوظائف القيادية وغير القيادية.. وهذا ما يُهدر الطاقات ويحبط الكفاءات ويبدّد الوقت والجهد والمال، فضلا عن الأذىٰ النفسي والبدني الذي يَلحق بهؤلاء الأشخاص الذين خاصموا إمكاناتهم ومَلَكاتهم، ووَضعوا أنفسهم أو وُضعوا في قالبٍ وظيفي لا يوافقهم وفي ثوبٍ مترهّل لا يناسبهم. ولله درّ الشاعر أبو الحسن التهامي **القائل:**

ومكلِّـفُ الأيـامِ ضـدّ طباعِهـا متطلِّـبٌ في المـاءِ جـذوةَ نـارِ

وفي هذا أذكر يوم ساقتني يد الأقدار إلىٰ العمل في مؤسسة صحية خاصة، أدارها أصحابها علىٰ طريقة لعبة الكراسي الموسيقية، وتعاملوا

مع الوظائف كقبّعات يَسهل نقلها من رأس إلىٰ رأس، ومع الموظّفين كقطع شطرنج يسلس تحريكها مِن خانة إلىٰ خانة؛ إذْ لم يروا بأسا في إحلال ممرّضة محلّ فنّي المختبر أثناء إجازته السنوية، ولم ينتابهم الخجل من تكليف الطبيب بتسيير عمل الصيدلية أثناء غياب الصيدلي لأسابيع وشهور، ولم يؤنّبهم ضميرهم في استغلال حاجة المحاسب إلىٰ الراتب وتكليفه بالوقوف علىٰ الأبواب كحارسٍ ليلي، بل ضيّقوا الخناق علىٰ آخَر وطالبوه بالتفرّغ لمهمّة عامل نظافة! وما يَسري هنا يسري هناك وهنالك ضمن منظومة تحلّلت من شروط الرجل المناسب في المكان المناسب، وضربت عُرض الحائط بفكرة الإدارة العلمية التي قعَّد لها فردريك تايلور.. وكأنّ الأشياء ليست هي الأشياء في بلادنا كما قال الشاعر محمد الفيتوري.

ولعلّنا نتذكّر قصة الجاسوس الذي زرعتْه الولايات المتحدة الأمريكية في دوائر صنع القرار الروسي إبّان الحرب الباردة، وكيف أنه أدّىٰ مهمّته بنجاح وكان أحد المعاول التي هدمَت الاتحاد الروسي في تسعينيات القرن الماضي، دون أن يطلق رصاصةً طائشة أو يفشي سرًّا خطيرا أو يفكّ شفرةً سريّة، بل كان كلّ ما فعله بناء علىٰ توجيه رؤسائه في المخابرات الأمريكية سي آي إيه؛ هو تزكية الرجل غير المناسب،

واختيار الأسوأ لا الأكفأ، وتقديم أهل الثقة علىٰ أهل الخبرة، وذلك طيلة ثلاثة عقود عمل فيها بدأب قبل أن يُفتضح أمره في الوقت الضائع، وقبل أن يُكتشف سرُّه بعد وقوع الفأس في الرأس أو بعد خراب مالطة علىٰ حدّ قول المثل.

والشخص المناسب ليس بسوبرمان قادم من وراء الطبيعة، ولا ساحر يحمل مصباح علاء الدين فيأتي بالخوارق والعجائب؛ ولكنه بَشَرٌ اجتمعَت فيه صفتا القوّة والأمانة حسبما أشارت ابنة نبي الله شعيب علىٰ أبيها قائلة: **"يا أبت استأجره إنّ خير مّن استأجرتَ القويّ الأمين"**[1]، وحسبما قدّم نبيّ الله يوسف نفسَه لتَولِّي إدارة اقتصاد مصر زمن الهكسوس قبل أربعة آلاف عام قائلا: **"اجعلني علىٰ خزائن الأرض إني حفيظ عليم"**[2]. والقوّة هنا هي الإمكانات البدنية والفكرية، أمّا الأمانة فهي المؤهّلات الروحية والخُلُقيّة، وبينما القوّة بلا أمانة طاقةٌ تدميرية، والأمانة بلا قوّة قدمٌ كسيحة ورمادٌ بغير نار، فإنّ الأمانة مع القوّة هما جماع الكمال الإنساني. ومثلهما الحِفظ والعِلم، فلا ريب أنّ الحفيظَ أمين والعليمَ قويّ.

---

(1) القصص 26.

(2) يوسف 55.

والواقع أنّ تلك المقاييس عالميةٌ وليست محلّية، بل هي خالدةٌ خلود الزمن، وشاملةٌ تنطبق علىٰ دقيق الأمور وجليلها؛ فكما كانتا مؤهّلات سيدنا موسىٰ للعمل بالرعْي والحراسة والسُّقيا، كانتا أيضا مؤهّلات سيدنا يوسف لنيل الإمارة وشغل منصب الوزارة. بل امتدّت هذه المقاييس إلىٰ جنس الملائكة والجنّ، فوصف ربُّنا تبارك وتعالىٰ سيّدَ الملائكة جبريل عليه السلام **بقوله: "ذي قوّةٍ عند ذي العرش مكين مطاعٍ ثَمّ أمين"**[1]، وجاء في حقّ الجنّ: **" قال عفريتٌ من الجنّ أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقويٌّ أمين"**[2].

وقد حذّر -النبيّ صلىٰ الله عليه وسلم- من تقديم الرجل غير المناسب، وعدّ ذلك أمارةً علىٰ قرب قيام الساعة **فقال: "إذا وُسِد الأمر إلىٰ غير أهله فانتظر الساعة"**، ثمّ أَعطىٰ -صلىٰ الله عليه وسلم- درسًا عمليًّا حين تَشوّف سيّدُنا أبو ذرّ الغفاري إلىٰ الإمارة، وطلب أن يستعمله النبيّ ويولّيه الولاية الصغرىٰ، فضرب علىٰ منكبيْه وصارحه في غير مواربة بأنه ليس أهلًا لها قائلا: **" يا أبا ذرّ، إنّي أراك ضعيفا، وإني أحبّ لك ما أحبّ لنفسي، لا تَأَمّرَنَّ علىٰ اثنيْن، ولا تَولَّيَنَّ مال يتيم"**. هذا مع أنّ أبا ذر

(1) التكوير 20-21.

(2) النمل 39.

الغفاري رضي الله عنه مِن السابقين الأوّلين، حيث جاء رابعا أو خامسا فيمَن بكّروا بالدخول في الإسلام، ومِن الزاهدين الذين شُبِّهوا في زهدهم بنبيّ الله عيسىٰ عليه السلام، ومِن الصحابة الأجلّاء الذين امتدحهم النبيّ بقوله: **"ما أقلّت الغبراء ولا أظلّت الخضراء مِن رجلٍ أصدق لهجةً مِن أبي ذرّ"**، وكان –كما قال الإمام الذهبي في سير أعلام النبلاء– رأسًا في الزهد والصدق والعلم والعمل، وقوّالًا بالحقّ لا تأخذه في الله لومة لائم. بمعنىٰ أنّ لديه الأمانة الكاملة، ولكنه وحسب رؤية النبيّ يفتقر إلىٰ القوّة، تلك القوّة التي قدّمها ابن خلدون علىٰ الأمانة معلِّلا ذلك بأنّ الأمانة يمكن تعويضها بالتدابير القانونية والضمانات الرقابية.

وفي قصّةٍ رمزيّة توضّح الفرق بين رؤية الرجل المناسب وغير المناسب؛ رُوي أنّ ملكًا حصيفًا تَخطّىٰ أحدَ أصدقائه وعيّن شخصًا غيره للوزارة، ولمّا بلغه غضب الصديق الذي ارتأىٰ أنّه الأحقّ والأجْدر والأنْسب، دعاه إلىٰ مجلسه في وقتٍ تناهىٰ إلىٰ سمعه نباح بالخارج، فأمره بلطف أن يستطلع خبر هذا النباح ويعود، ولدىٰ عودته أخبر الملكَ أنها مجموعةٌ من الكلاب تنبح، ولمّا سأله عن عددها وعمرها ولونها وسبب نباحها؟ لم يُحِر جوابا! ثمّ استدعىٰ الوزيرَ الجديد بينما النباحُ مازال مشتعلا، وأمره أن يذهب لاستجلاء خبر النباح ويؤوب، فأخبره

الوزير بأنها خمسةُ جِراء (جمع جرْو وهو صغير الكلب) تنبح، ثلاثة منها بيضاء والبقية سود، ويبدو أنهنّ فقدن أمّهنّ وينبحْن شعورًا بالحزن والوحدة. وهنا نظر الملِك إلىٰ صديقه قائلًا: أعلمتَ لماذا اخترتُه وتخطّيتُك؟

كما رُوي -على سبيل الدعابة- أنّ وزيرًا للصحة زار مستشفى للأمراض العقلية، ومِن باب الوجاهة سأل مديرَ المستشفى: كيف تميّزون بين العاقل والمجنون؟ فأجاب المديرُ متلعثِما: نملأ هذا البانيو الذي أمام سيادتكم بالماء، ونضع على حافته ملعقةً وفنجانًا ودلوا، ثمّ نأمره بإفراغ البانيو من الماء! فافترّ ثغر الوزير وفرك يديْه قائلًا: طبعا العاقل لا بد سيختار الدلو! فقال المدير وقد بدا رابط الجأش قويّ الشكيمة: العاقل يا سيّدي يرفع السدادة الموجودة في قاع البانيو! هل أحجز لك غرفة خاصة؟!

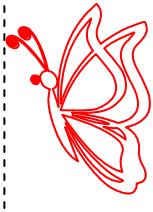

(9) أخلاق الكِبار

الأخلاقُ للرجال[1] مَراقي ومَعارج؛ بها يلثمون خدّ المجد وينالون رضا الربّ ويَسمُون فوق رتبة الملائكة. وبدونها يُمسُون كالدوابّ، ويُصبحون كالأنعام بل أضلّ؛ إذْ كيف يستقيم العيْشُ بلا صدق ولا أمانة ولا تواضُع ولا إيثار ولا إحسان! وهي للحياة دستور؛ إذْ تَبيَّن أنّ أزماتِ العالَم أزماتُ أخلاق لا أزمات اقتصاد، وأمراضَه معنويّةٌ لا حسّيّة. واتّضَح أنّ القانون عيالٌ في محكمة الأخلاق؛ علىٰ اعتبار أنّ المسؤولية الأخلاقية أوسع من المسؤولية القانونية، وبحسبان القانون يحاسِب علىٰ الظاهر والحاكِم فيه بشَر، بينما الأخلاق تحاسِب علىٰ الظاهر والباطن والحاكِم فيها ضميرٌ يقِظٌ ينطلق من مراقبة ربّ البشَر. وهي كذلك للدِّين جوْهر وللمكارِم قرِينٌ وشقيق، حسبما ورد في الحديث النبوي الشريف:

(1) الرجولة هنا صفة تشمل الذكور والإناث على حدّ سواء.

"إنّما بُعثتُ لأتمّم مكارم الأخلاق"، وباعتبار ما أحصاه الشيخ عمر عبد الكافي بأنّ ربع آيات القرآن (1504 آية) تدعو إليها وتؤكّد عليها.

ولعلّنا نذكر أنّ مكارم الأخلاق كانت الشفيع الذي حرّر سُفّانة بنت حاتم الطائي، حين أَسرها عليّ بن أبي طالب ضمن قيادته لسريّة بعثها المصطفىٰ صلىٰ الله عليه وسلم إلىٰ طيّئ في السنة التاسعة من الهجرة النبويّة؛ إذ قال صلىٰ الله عليه وسلم: خلُّوا عنها، فإنّ أباها كان يحبّ مكارم الأخلاق، والله يحبّ مكارم الأخلاق.

وقد عرّف الجرجاني الخلُق بأنّه: "هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويُسر مِن غير حاجة إلى فكر ورَوِيّة، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة عقلًا وشرعًا بسهولة، سُمِّيت الهيئة خُلُقًا حسَنا، وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة، سُمِّيت الهيئة التي هي المصدر خُلُقًا سيّئا".

وبتعبير أبسط: هو منظومة من القيَم تدور مع الخير حيث دار، وتفرّ من الشرّ حيثما كرّ، حتىٰ صار الرقمَ الأبرز في معادلة البقاء الإنساني، وذلك علىٰ قول أمير الشعراء شوقي:

إنّما الأمم الأخلاق ما بقيَت فإن هُموا ذهبَت أخلاقُهم ذهبوا

وقد أسّس له العلماء عِلمًا ذا ماهيّة وموضوع ومباحث، وبه يحكمون علىٰ إرادات البشَر خيرا كانت أو شرّا. وكما في الأعمار صغارٌ لم يبلغوا الحُلُم بعْد، وكبارٌ بلغوا الأشدّ واكْتهلوا؛ ففي الأخلاق صغارٌ لا يملكون منها النزْر اليسير، وأقصىٰ أمانيهم ملء البطون وإشباع الفروج. وفيها الكبار الذين سلكوا للأخلاق كلّ الفجاج، وملكوا منها النواصي والأقدام، وشعارهم في ذلك قول المتنبِّي:

إذا غامرْتَ في شرفٍ مَروم فلا تقنعْ بما دون النّجوم

وكبار الأخلاق هُم أناس رحلوا –كما قال القاضي أبو بكر بن العربي– مِن عالَم الشهوات إلىٰ عالَم القُربات، وسافروا من عالَم المحسوسات إلىٰ عالَم المعقولات، وما باعوا –كما قال الإمام ابن حزم– الياقوتَ بالحصىٰ ولا رضوا لأنفسهم ثمنا إلّا الجنّة. وفيهم قال نبيُّ الهدىٰ والرحمة: **"إنّ مِن خياركم: أحسنكم أخلاقا"**. والواقع أنهم ما

كانوا خيار الناس ولا درّة تاجهم وواسطة عقدهم؛ إلّا لأنهم فعلوا تلك الأخلاق سجيّة دون شرْط، وللجميع دون تمييز، بعد أن تحصَّلوا عليها بفضل سلامة الفطرة وصفائها، ومجاهَدة النفس وتزكيتها، وصحْبة أهل الشِّيم والنهْل مِن مَعينهم، مع التحلِّي بنفْسٍ ساميةٍ تنحاز للروح قبل المادّة، وتنتصر للعقيدة علىٰ حساب ما سواها من المنافع الضيّقة الفانية، علىٰ اعتبار أنّ الدِّين –كما قال غاندي– يغذِّي الأخلاق وينمِّيها وينعشها كما يغذّي الماءُ الزرعَ وينمِّيه.

وكما لكلّ فضيلةٍ علامةٌ تدلّ عليها بالبنان، وأمارةٌ تتحدّث عنها باللسان؛ فقد عدّد (يوسف بن أسباط) عشر علاماتٍ تتجلّىٰ في حَسَنِي الأخلاق **وهي: "قلّة الخلاف، وحُسْن الإنصات، وترْك طلَب العثرات، وتحسين ما يبدو من السيّئات، والتماس المعذرة، واحتمال الأذىٰ، والرجوع بالملامة علىٰ النفس، والتفرُّد بمعرفة عيوب النفس دون عيوب الغير، وطلاقة الوجه للصغير والكبير، ولطْف الكلام لمَن دونهم ومَن فوقهم"**. وهم في هذا لا ينفكّون عن ارتداء ثوب الأخلاق القشيب في محفل تعاملاتهم مع الله والنفس والناس وسائر المخلوقات، ولا يغيب عن أذهانهم استحضار مقولة الكاتب الفرنسي (لامونيه): الأخلاق نبْتة جذورها في السماء، بينما أزهارها وثمارها تعطِّر الأرض.

وفي هذا السياق، وخروجًا من نطاق التنظير إلىٰ أفق التطبيق؛ لازلتُ أذكر إبّان تسطيري لكتاب (مفاتيح القراءة) وتسليطي الضوء علىٰ بعض نجوم تلألأت في سمائها وغرّدت فوق دوْحتها، كيف أنّي التمستُ المفكِّر العلّامة محمد عمارة لأستأنس بثاقب رأيه وفيْض علمه، وحسبتُ أنّ بيني وبين الوصول إليه متاريسَ وحرّاس وحجّاب، أو آلةً صمّاء تأمرني بترْك رسالتي علىٰ أمل الردّ عليها إن عاد الزمن إلىٰ الوراء، أو علىٰ أحسن الأحوال موعدا بعد أيّام نظرًا لانشغاله الدائب والدائم بالفكر والبحث والتأليف. وإذْ بي أُفاجَأ بالرجل يردّ علىٰ الهاتف من فوره دون إبطاء، ثمّ يحدِّث بكلّ ودّ ويتبسّط بكلّ أريحيّة، وذلك في تواضُعٍ يليق بالعلماء الكبار وسماحةٍ جديرة بأمثاله مِن المفكِّرين الأفذاذ. وهو ما ذكّرني بمشهد مصوَّر يسلّم فيه الشيخ الجليل محمد راتب النابلسي علىٰ المفسّر العلامة محمد علي الصابوني وهو جالس علىٰ كرسيّه بعد أن بلغ به الكبر عتيّا، فيحني له جبهته ويقبّل يده ثلاثا، ويحيّيه كأفضل ما يحيّي به ابنٌ أباه وعبدٌ سيّدَه ومولاه.

كما لا أنسىٰ عصر يومٍ تليد[1]، وأثناء بواكير عملي بإحدىٰ المؤسّسات الصحيّة الحكوميّة في سلطنة عمان الحبيبة، حينما لقيتُ

(1) كان هذا في عام 2002م –أو 2003م– ، أمّا الوزير فهو علي بن محمد بن موسى.

أحدَهم واقفا أمام واجهة السجلّات الطبيّة، فحسبْته مريضًا يستشْفي مِن علّة، وعرضتُ عليه العوْن، وإذْ به يسألْني عن مدىٰ معرفتي به؟ ويخبرني بأنّه وزير الصحة! وهو ما لم أصدِّقه للوهلة الأولىٰ؛ إذْ لا موكب أمامه يمهّد له الطريق ويؤمّنه، ولا حرّاس يدفعون النّاس عنه ذات اليمين وذات الشمال، ولا مزيِّفين يفرشون البساط ويجمّلون المكان، ولا مصوّرين يُلهبون الأثير ببريق الكاميرات، ولا حتىٰ فتياتٍ فاتناتٍ يُهدين له الخدودَ والورود؛ بل بدا بسيطًا كالعوام ، ورقيقًا كالأصدقاء، ومتواضعًا كالعظماء، ووحيدًا كأبي ذرّ الغفاري. وساعتها أدركتُ أنَّ الرجل نجح بامتياز في الاختبار الذي وضعه الفيلسوف الفرنسي (مونتيسكيو) **بقوله: "إذا أردتَ أن تعرف أخلاق رجلٍ فضع السلطةَ في يده ثمّ انظر كيف يصنع"**.

والحقّ أنّ الأخلاق إن حُمدت مرّة في العوامّ مِن النّاس، فإنها تُحمد مرّتيْن في عِلية القوم مِن العلماء والوجهاء والأثرياء؛ إذْ يفتح سلطانُ العلم والجاه والمال كوّة لنزغات الشيطان ووساوس جنده، فينفذون منها خلسة، ثمّ يكدُّون في زحزحة أهلها بعيدا عن فضائل أخلاق التواضع والرحمة والرّفق وغيرها من المَكرُمات، وهو ما يتطلّب جهدًا استثنائيا في سبيل دحْر هذه الوساوس والحفاظ علىٰ استقامة الروح وصفائها. ولا

نغفل أنّ أخلاق هؤلاء العِلية من القوم هي أفضل دعوة وأنجع قدوة لغيرهم من البشر الراكضين خلفهم في درب الحياة، وبما يَعني أنّ ثوابهم مضاعَف وعمرَهم مَديدٌ مبارَك.

(10) فنّ حلّ المشكلات

لم يكن أبو الفلسفة الحديثة (رينيه ديكارت) مبالِغًا حين ربط بين الفكر والوجود في مقولته الشهيرة التي نحتَها قبل أربعة قرون **بقوله: "أنا أفكّر إذن أنا موجود"**؛ فكثير من المشاكل التي تجثم علىٰ صدورنا وتهدّد وجودنا وتؤرّقنا أفرادا وجماعات، لا تجد طريقها إلىٰ الحلّ بسبب قسوة الأقدار أو تعطّل نواميس الحياة؛ بل يعود ذلك إلىٰ جمود الفكر وعجزه عن إدراك الأسباب الكامنة وراء تلك المشكلات، أو إلىٰ غشاوة الأبصار ووقوفها علىٰ بواعث غير حقيقية تجعل صاحبها كحاطب ليل يذهب إلىٰ اللاحلّ. بما يعني أنّ حلّ المشكلات لا يرتكز علىٰ سطوة المال وقوّة العضلات بقدر ما يرتكز علىٰ إعمال الفكر وتغيير القناعات.. وغنيٌّ عن الذِّكر، أنّ المشكلةَ هي صعوبة أو قضيّة تحتاج إلىٰ معالجة أو تذليل بغية الوصول إلىٰ نتيجة معيّنة.

والواقع أنّ المشكلات ملح الحياة وسنّة الكون، وعلينا أن نقبلها بكلّ رحابة صدر ورباطة جأش؛ فهي نقصٌ يَسلب الدنيا كمالَها وينصف الآخرة باعتبارها الدار الحيوان كما قرّر ربّ العزّة والجلال: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٦٤﴾[1]. وهي رياضة عنيفة تُضيف إلينا الجلَد وتغرس في روْعنا الصبر، ودرس قاسٍ نُثري به خبرتَنا ونبني منه حكمتَنا، بل إنّ التاريخ الإنساني برُمّته ليس إلّا سردًا لمعضلاتٍ جابهها الإنسان وابتكر لها حلولا نجحت تارة وأخفقَت تارة. وفي هذا تتعدّد ألوان المشكلات كألوان الطيف، وتتباين أصنافها كصنوف الطعام؛ فمنها ما هو اقتصادي أملاه سُعار الاستهلاك الذي انتاب البشريّة مع عصور الرفاهية والانفتاح، ومنها ما هو اجتماعيّ تعقّدت فيه التربية وارتبك دور الأسرة وتناحَر الأقرباء كأشدّ ما يكون الأعداء، ومنها ما هو سياسيّ سطا فيه القويّ علىٰ الضعيف وتوارت الحقوقُ أمام الواجبات، ومنها ما هو صحّيّ تكاثرت فيه عِلل وأسقام مدّت عنقَها مِن نافذة المدنيّة وأطلّت برأسها عبر بوّابة الحداثة.

(1) العنكبوت 64.

وإذْ نقف جميعا في مهبّ ريح المشكلات وتحت سمائها، سواء كنّا مديرين وقادة، أو مربِّين وآباء، أو حكّام وعلماء ورجال أعمال؛ فمِن وجابنا الإلمام بما يُعرف باستراتيجية حلِّ المشكلات التي اجتهد في التنظير لها علماءُ التربية والسلوك والاجتماع أمثال الأمريكي جون ديوي وغيره، علىٰ اتفاق فيما بينهم في المنهجيّة الفكرية واختلاف في تقسيم المراحل وعدد الخطوات؛ فنُقرّ بادئا ذي بدء بوجود المشكلة ونعمل علىٰ تحديدها ونعزم علىٰ مواجهتها؛ فلو كانت المشاكل تُحلّ بالهروب لأصبحنا أبناء نعامات، ولكانت الأرض –كما قال نزار قباني- كوكبا مهجورا. ثمّ بعد تحديدها نبذل كلّ الجهد في التحليل والوقوف علىٰ الدوافع الحقيقية؛ علىٰ اعتبار أنّ السبب إذا عُرف بطُل العجب ووُلد الحلّ. هذا قبل الجلوس إلىٰ مائدة الحلول لتخيُّر أفضلها مِن حيث واقعيّة التطبيق وجدوىٰ التنفيذ علىٰ المدىٰ القريب والبعيد؛ فبعض الحلول الآنيّة قد تقودنا إلىٰ كوارث مستقبليّة، لا لشيء إلّا لأنها افتقدَت بُعد النظر واستراتيجية التفكير. وبعدها تبقىٰ الخطوة الأيْسر وهي تطبيق الحلّ الأجْدىٰ والأنْسب. مع ملاحظة أنّ المشاكل بعضها بسيط يَحلّ نفسَه بنفسه أو ينتظره أكثر مِن حلّ، وبعضها صعب ولكن لا شكّ له حلّ، وبعضها –وهو الأقلّ- معقَّد كذنب الضبّ فلا يجد إلّا نصف حلّ أو يصبح التكيّف معه وتغيير النظرة إليه هو الحلّ.

ولكي تُؤتِي هذه الخطوات أُكُلَها؛ وجب أن تَجرِي في جوّ يخلو من انفعالٍ يشوّش التفكير، ومِن شحنٍ يرفض المنطق ويحتكم إلىٰ العاطفة الهوجاء؛ فالهدوء ترياق الخلاف وإكسير الحلول. كما يجب ممارستها فور بروز المشكلة ودخولها مرحلة النشوء، أو علىٰ أسوأ تقدير حال اكتمالها وتبلْورِها، وقبل الدخول إلىٰ مرحلة الأزمة التي يَضيق فيها الخناق ويَنفرط العقد، إذ ينتصر ساعتها الحلّ لطريقة (كافكا) الانتحارية بقوله:

"اعتدتُ على حلّ المشاكل التي تعترضني مِن خلال السماح لها بأن تفترسني"! علاوة على ضرورة فتح المجال لاستشارة أهل الرأي، واحترام ما يُنتجه العصف الذهني دون تسفيه أو تحقير، والدمج بين التفكيرَيْن التحليلي والإبداعي؛ بإتاحة الفرصة للخيال الابتكاري الإبداعي الذي يديره نصف المخّ الأيمن قبل أن نحكِّم فيه منطقا تحليليا يقوده نصف المخّ الأيسر.. ولعلّ بعضنا قرأ عن تلك السيارة المرتفعة التي انحشرت في سقف أحد الأنفاق، وتَداعَى الجميعُ إلى إخراجها مِن أزمتها، ولم يأتِ الحلّ إلّا مِن صبيّ اقترح تفريغ الإطارات مِن الهواء ثمّ سحْب السيارة إلى خارج النفق.

وقد سطّر التاريخ بحروف مِن ضياء حلَّ الرسول صلىٰ الله عليه وسلم لمشكِل كاد أن يُحدِث في العرب ما لا يُحمَد عقباه، وأوشك أن يُعيد فيهم سيرة داحس والغبراء؛ فقبل البعثة النبوية بنحو خمس سنين، ونظرا لتصدّع بناء الكعبة المشرّفة بفعل السيول، شرع العرب في إعادة بنائها، وتَوزَّع العمل فيما بين القبائل، فكان لكلّ منها جهة تقوم علىٰ هدمها وإعادة بنائها، ولكنْ ما إن اكتمل البنيان وحان وضع الحجر الأسود في مكانه، حتىٰ احتدم الجدال ودبّ الخلاف، إذ رغبَت كلُّ قبيلة في الاستئثار بهذا الشرف الرفيع ولا يمتاز به أحدٌ عليها، علىٰ اعتبار أنّ الحجرَ (الأسْعَد) قطعة سماوية أَتىٰ به زعيم الملائكة جبريل عليه السلام مِن الجنّة. ولمّا أوشكَت القبائل علىٰ سلّ السيوف واستباحة الدماء؛ أشار بعضهم –وهو أبو أمية بن المغيرة والد أم المؤمنين أمّ سلمة رضي الله عنها- بالاحتكام إلىٰ أوّل داخل عليهم، ومِن لُطف الأقدار أنّ الداخل كان الصادق الأمين محمد بن عبد الله، الذي قرأ في عيونهم تشوّفهم إلىٰ السيادة والزعامة، فاقترح وضع الحجر علىٰ رداء يمسك كلّ زعيم قبيلة بطرف منه، حتىٰ إذا وصلوا بحذاء الموضع المخصَّص للحجر وهو الركن الجنوبي الشرقي، أخذه بيده الشريفة ووضَعَه في مكانه، وهو ما

حقَن الدماء وفضّ النزاع، ودلَّل علىٰ أنّ الحلول رغم بساطتها قد تعزب عن الأذهان حين تغلبها العصبيّة وتطغىٰ عليها الشهوة.

وفي هذا ألتقط مِن سجلّات ذاكرتي، أحدَ مرضاي المصابين بسمنة مفرطة وصل فيها الوزن إلىٰ ما يَقرب من مائتي كيلوجرام، وبدأَت العلل تتداعىٰ إليه كما يتداعىٰ الأكلة إلىٰ القصعة، رغم أنه شاب ثلاثيني تفتح له الحياةُ ذراعيها وتستقبله بالورود والزغاريد! ومع أنّه يعترف ويقرّ بفداحة مشكلته؛ إلّا أنّ طامّته الكبرىٰ تكمن في اعتقاده بأنّ سُمنته –كما زعم لي– ناجمة عن تعرّضه لحادث غرق في البحر، تَلقّىٰ علىٰ أثره كوْمة من الأدوية كانت السبب في هذه السمنة! بما يعني –حسب اعتقاده الباطل– أنّه برئ من ذنبها براءة الذئب من دم نبيّ الله يوسف، وأنه –وكما أُثر عن سعد زغلول– لا فائدة! وبهذا يجد المبرّر الكافي للاستلقاء علىٰ قفاه أمام التلفاز والحاسوب بالساعات دون نأمة ولا حركة، كما لا يجد بذلك أيّة غضاضة في المرور علىٰ ما لذّ وطاب من مشروبات غازية وحلوىٰ وعصائر ودهون ونشويات تزخر بالسعرات الحرارية وتُعجِّل بالسّمنة علىٰ طبق مِن مرض.

ولا بأس هنا من تَبنِّي حِيَلًا نفسية تنظر للمشكلة بعين التقليل لا التعظيم وبمنطق التبسيط لا التعقيد، مع التعاطي معها علىٰ أنها شعور أكثر

منها واقع، وفرصة لا حت أكثر منها مصيبة حلّت. ويا حبذا لو تناولنا مشكلاتنا وكأنها تخصّ شخصا آخر؛ باعتبار أنّ ذلك يُسهم في تخفيف الضغط ويُؤمّن الطريق أمام الحلّ. مع ضرورة صرف الانتباه بعيدا عن المشكلة، والاستغراق لبعض الوقت فيما لا علاقة له بها؛ فهذا ممّا يتيح للعقل الباطن العمل عليها والتنقيب عن حلول لها في حديقة الوعي الخلفية، ولا ننسىٰ أنّ الكثير مِن العقبات والمشكلات وجدَت طريقَها إلىٰ الحلّ أثناء النوم أو الاستحمام أو تناول الطعام أو التجوّل في الأسواق والمتنزّهات. وقبل هذا وذاك وجَب العِلم بأنّ السعيدَ ليس مَن خاصمتْه المشاكل، بل هو مَن صالحها وأتقن فنّ التعامل معها، وأدرك أنّ العقبات لا تُعيق الطريق بل هي الطريق ذاته. فالحكمة تقتضي أن نتصالح مع المشكلة ولا نأكل أنفسَنا بتحميلها فوق طاقتها، ثمّ نفعل ما نَقْدر عليه في وقته وزمانه، ونُوكِّل ما لا نستطيعه إلىٰ مولانا ونمُرّ عليه مرور الكرام المُحَوْقِلين الدّاعِين: **"اللهمّ لا سهل إلّا ما جعلْته سهلا وأنت تجعل الحزْن إن شئتَ سهلا"**.

(11) قاتَل الله البطَر

مِن طبائع النفوس السويَّة اقتفاء أثر الحقَّ حين يلوح في أفقها، وشكر النعمة وقتما تحلّ بدارها، والتواضع للنصيحة ما إن تُسدَى إليها؛ أمّا ماعدا ذلك مِن غمْط الحقّ والتنكّر للنعمة والإعراض عن النصيحة، فهو كِبر يخرّب النفوس، وبطَر يدمّر الأمم، وغرور يهلك الأقوام؛ إذ يُورثهم فقرا بعد غِنىٰ، وضعفا بعد قوّة، وذلّة بعد عِزّة.. ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾[1].

وقد حدث ذات يوم أن دخل أحدُهم صيدلية تَصادف وجودي بها، وبحوْزته وصفة طبيّة وكيسا مليئا بالأدوية، فسأل إن كانت الأدوية المسجَّلة بتلك الوصفة موجودة ضمن الأدوية بداخل الكيس أم لا؟ ولمّا

(1) سورة النحل: 112.

كانت الإجابة بالنفي، طلب شراء الدواء الموجود بالوصفة، ثمّ طوّح بالكيس المليء بالأدوية إلىٰ عرض الشارع! وعندها أبَىٰ لساني إلّا أن ينصح قائلا: كان يمكنك الاحتفاظ بهذا الدواء لفقير يحتاجه... فما كان منه إلّا أن أَرغىٰ وأَزبد، مردّدا أنّ هذا ماله وهو حرّ في أن يفعل به ما يشاء! وهذا آخَر لاحظتُ طول أظفاره أثناء فحصه طبيّا، وأرشدتْه بأدب لقصِّها، مذكِّرا إيّاه بحديث سنن الفطرة، فإذا به يتحوّل إلىٰ أسد هصور ويطلق عليّ النار عبر لسانه متعدّد الطلقات...إذْ كيف أجرؤ علىٰ نصحه في خصوصية من خصوصياته! وهذا ثالث؛ طويْلب عِلم يدرس في السنوات الأولىٰ لإحدىٰ الكليّات الشرعية، يرسل الغترة من فوق رأسه إلىٰ رقبته تشبُّهًا بالعلماء، ويحرّك يده اليمنىٰ بالخاتم والساعة كالملوك، ثمّ يتحدّث عن بطلان الاحتجاج بالحديث الضعيف؛ فلمّا عارضْته بجواز الاحتجاج[1] به ضمن الشروط الثلاثة التي وضعها بعض العلماء...نظر إليّ شذرا وأشار بطرف سبّابته **قائلا:** أنت طبيب، مالَكَ والحديث في العلوم الشرعية!

(1) قال بعض أهل العلم بأنه لا بأس من إيراد الحديث الضعيف في فضائل الأعمال وليس في إثبات الأحكام، وذلك بثلاثة شروط: ألا يكون الضعف شديدا، وأن يكون العمل الذي ورد فيه الفضل قد ثبت بدليل صحيح، وألّا يُجزم بنسبته إلى النبي صلى الله عليه وسلّم.

والبطر -كما عرَّفه الراغب الأصفهاني في مفرداته- دهَشٌ يعتري الإنسان من سوء احتمال النعمة وقلّة القيام بحقّها وصرفها إلىٰ غير وجهها، وهو مسلك قديم مارسه الإنسان علىٰ مستوىٰ الأفراد والجماعات، واتّخذ صورا عديدة في الأقوال والأفعال، وغالبا ما ارتبط بالترف والقوّة والجاه، فأبان عن جهل بأبجديات الرزق الذي لا يملك أحدُنا حياله شروىٰ نقير أو قطمير ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[1]، ونجم عن غفلة بمعنىٰ الطغيان الذي يطأ عتبته كلُّ مجاوِزٍ للحدّ وخارجٍ عن طور الاعتدال. وهو يكشف عن علّة قلبية تبدّت في الاغترار بالنعمة والتكبّر علىٰ الخلْق والزهْو بالمنصب وادّعاء حيازة الحقيقة، علىٰ اعتبار أنّ السلوك مرآة النفس وعصارة القلب وظلّ الروح. فضلا عن أنّه يدلّل علىٰ خداع المرء لنفسه في تقدير ملكاته وقواه، وعلىٰ قِصر النظر بمآلات البطر الذي ارتبط بالتلف ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾[2]، وعلىٰ الجهل المطبق بعاقبة الطغيان المُفضي إلىٰ الهلاك ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾[3]. ولهذا كانت الدعوة العبقريّة: **"اللهمّ لا**

---

(1) النحل 53.

(2) القصص 58.

(3) طه 81.

تُذِقني طعم نفسي"؛ وطعْم النّفس هنا هو الكِبر، المقصور صفةً لله جلّ جلاله، ولا ينازعه فيها أحد. وهو ما يفسّره قول ذو النون المصري: **"بمقدار ما يَعرف العبد من ربّه يكون إنكاره لنفسه، وتمام المعرفة بالله تمام إنكار الذات"**.

والواقع أنّ بعض هؤلاء المتكبّرين البَطِرين؛ صنيعة نفر من المنافقين يتزلّفون لأصحاب الجاه، وضحايا لمادحين يحومون حول الدراهم، وجبناء يرتعدون أمام القوي، وغافلين لا يقدِّرون الناس حقّ قدرهم فيضعون الأشخاص في غير موضعهم. علىٰ أنّ هذا لا يعني أننا نعذرهم ونبرِّئهم، بل الصحيح أننا قد نعذر مَن يبالغ في الثناء علىٰ اعتبار أنّ أكثر عيوب النّاس مستورة، ولكنّنا لا نجد ذريعة لمَن يصدِّق هذا الثناء فينتفخ ويتكبّر، رغم علمه بما تحت جوانحه مِن عيوب لو شاء الله لمرّغ بها أنفه في التراب، وفضحه علىٰ رؤوس الخلائق والأشهاد.

وأظنّنا لسنا بحاجة إلىٰ التذكير بأنّ البطر فخّ مِن فخاخ إبليس، نصبه لقارون فأعماه المال وادّعىٰ الإنعام واستحقّ الخسْف، وسقط في حفرته فرعون حين غرّه الجاه فأغرقه الله بجند من جنوده وهو الماء. ولأنّ سنَن الله باقية إلىٰ يوم المعاد؛ فعلىٰ الحصيف أن يأخذ العبرة ويتواضع لله ويخفض جناحه للناس؛ فيقتدي بنبي الله سليمان عليه السلام الذي أُوتي

مُلكا لم يُؤتَه أحد قبله ولا بعده، ولكنه شكر وحمد. وبنبيّ الله محمد صلىٰ الله عليه وسلم، الذي بوّأه الله مكانة ليست لأحد في الأوّلِين والآخِرين، ولكنه مع ذلك كان يخدم أهله ويخصف نعله ويلاطف الأطفال ويردّد أنّه ابن امرأة تأكل القديد. وفي هذا رُوي أنّ إمام الدعاة (الشيخ الشعراوي) ألقىٰ محاضرة بإحدىٰ الجامعات، ففتح الله عليه مِن فيوضاته، وأُعجب الحضورُ أيّما إعجاب، حتىٰ صفّقوا وهتفوا وضجّت بهم القاعة، ثمّ حمله الطلّاب عند خروجه احتفاء به وتكريما، فما كان منه إلّا أن طلب من ابنه أن يُوقف السيارة أمام أحد المساجد في طريق عودتهم إلىٰ البيت، ونزل بعد أن استبقىٰ ابنه ينتظره في السيارة، ولمّا تأخّر، ذهب الابنُ يتفقّده، فإذا به مشمِّر عن ذراعيه وساقيه ومنهمك في تنظيف دورات المياه، فسأله الابن متعجّبا: ماذا تفعل يا أبي؟ **قال:** أؤدّب نفسي وأهذّبها حتىٰ لا تُصاب بالكبْر والغرور.

يكذب مَن يقول أنّ الدبّة قتلَت صاحبها، بل صاحبها هو مَن قتل نفسه بحمقه، حين استصحب معه دبّة لاعقل لها لتحميه عند نومه. وبالقياس، يخسر مَن يظنّ أنّ الغرور يرفعه درجة ويكسبه مهابة، ثمّ لا ينظر إلى كثبان الرمال تحت أقدامه، ولا يفتّش عن الدبّة في أعماقه، ولا يطرد البطَر من قلبه قبل أن يُرديه كما أردت الدبّة صاحبها..

ولله درّ الشاعر الذي **قال:**

تَواضَعْ تكن كالنجم لاح لناظِرِ على صفحات الجوّ وهو رفيعُ

ولا تك كالدخان يعلو بذاته إلىٰ طبقات الجوّ وهو وضيع

(12) يومٌ لا يُنسَى[1]

في يوم غابر مضىٰ عليه زهاء عشرون عاما، وضمن مشهد درامي يندر تكراره ويصعب علىٰ الذاكرة هضمه وامتصاصه؛ افتقد بعض الجيران عجوزًا يعيش وحيدا بلا زوجة تؤنسه ولا ذرّية ترعاه وتخدمه؛ فاقتحموا بابه، وحملوه بحصيره في صندوق السيارة الخلفي، وهرعوا به إلىٰ أقرب مؤسّسة صحيّة قُدِّر لي أن أكون طبيبها في تلك اللحظة. وما إن وقع بصري علىٰ العجوز ممدّدا علىٰ ظهره كأعجاز نخل خاوية، حتىٰ مادت بي الأرض وكادت قدماي تعصف باتّزاني، إذْ بدا شائه المنظر، نتن الرائحة، منتفخ البطن والوجه، إلىٰ حدّ ضاعت معه ملامح الأنف والوجه والعين والفم، وذلك بعد أن تحلّلت الجثّة، وغزاها الدود الذي شرع ينهش جلدًا تفسّخ ويلتهم لحمًا تهتّك وتهرّأ، حتىٰ صار الرجل أبشع هيئة

(1) نُشرت هذه المقالة في مجلة المنار الثقافية الدولية، وفي جريدة الأمة الإلكترونية، وفي جريدة دنيا الوطن الفلسطينية، وذلك في شهر أغسطس من العام 2018م.

من أهل الكهف الذين وصفهم الحقّ سبحانه **بقوله:** ﴿لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ١٨﴾[1].

والواقع أنّه بحالته التي تُبكِي العجماوات من الحيوانات؛ لم يكن في حاجة إلىٰ مساعدة طبيّة، إذْ أكل عليه الموت وشرب منذ أيّام لا ساعات؛ ولكنه كان ولازال في حاجة ماسّة إلىٰ مَن يقتصّ له مِن أصدقائه وجيرانه وأقربائه ومجتمعه الذي تخلّىٰ عنه في أيّام ضعفه، وتركه سجينًا وراء باب مغلَق، ورهينةً تقاسي ألم الحشرجة وعذاب الاحتضار، ونسْيا منْسيّا لم ينتبهوا إليه إلّا بعد أن زكمت الرائحة الأنوف ووصل الجسم إلىٰ هذه المرحلة من التعفّن، ليصدق فيه قول جابرييل جارسيا ماركيز:

"ليس هناك أتعس من الموت وحيدا".

ومعلومٌ أنّ الجسم بعد مفارقة الروح له يمرّ بتغيّرات عديدة يخضع فيها إلىٰ قوانين الفيزياء لا قوانين البيولوجيا، فيشحب لونُه بعد توقّف

(1) الكهف 18.

القلب عن النبض، وتبرد درجةُ حرارته لتصبح في حرارة السرير الذي يرقد عليه والأرض التي تحمله والجدار الذي يستند إليه، كما ترتخي عضلاتُه علىٰ أثر موت أعصابها ونفاد شحنتها. هذا قبل أن يتحوّل لون الجثّة إلىٰ الأرجواني والأزرق؛ نتيجة فعل الجاذبية الأرضية التي تتسبّب في ترسُّب الدم من الأوعية الدموية الكبيرة إلىٰ الأوعية والشّعيْرات الصغيرة، وذلك في المناطق الأكثر انخفاضا في الجسم، وهو ما يُعرف بالرسوب الدموي الرمِّي.

وفي غضون ساعتين من الوفاة، يدخل الجسم مرحلة التيبّس الرمِّي؛ حيث ينفد رصيد العضلات من الكالسيوم وتختلّ الكيمياء الداخلية، فتنتاب عضلات الوجه حالة من التخشُّب تسري إلىٰ العنق ثمّ الأطراف العلوية والسفليّة، ويتحوّل البدن في غضون نصف يوم أو يومين إلىٰ لوح يابس كالخشب، هذا قبل أن يدخل البدن مرحلة ارتخاء ثانية تُحيله من لوح خشبي إلىٰ عجينة رخوة ليّنة. أمّا مرحلة التعفّن؛ فتظهر آثارها في يوم الوفاة الثاني أو الثالث تبعا للظروف المحيطة من حيث درجة الحرارة، ونسبة الرطوبة، وسبب الوفاة، والعمر، والبنْية، والتعرّض للهواء من عدمه. وتبدأ علىٰ هيئة بقعة خضراء في جهة البطن اليمنىٰ مقابل الأعور أو حول السرة، يتبعها انتفاخ البطن والوجه، وظهور الديدان واليرقات،

وانتشار الرائحة الكريهة، وتحلّل الأنسجة وتفسّخها بفعل الجراثيم الداخلية والخارجية. وبعد سنوات قلائل؛ لا يبقىٰ للميت من أثر إلّا عظمة عَجْب الذنَب، بينما ذابت بقيّته وعادت سيرتها الأولىٰ إلىٰ تراب ينتظر نداء البعث ليبدأ طور الحياة الخالد الذي لا موت فيه ولا تخشُّب ولا تعفُّن.

بالطبع لم يكن مطلوبا من أحد أن يصدّ عن العجوز موتا لا يُصَدّ، ولم يكن من الممكن أن ينجح أحدُهم في المباعدة بينه وبين موت يعيش فينا ويبعث برسائله الذكيّة إلينا علىٰ مدار اليوم والليلة، تارة بتساقط الشَّعر وتقشّر الجلد، وتارة بانحناء الظهر ووهن العظم، وتارة بتقادُم الملابس وفناء الأقلام وذبول الأشجار. ولكن المرجو والمأمول؛ كان في رعاية شيخوخة نفضَت عن الرجل قدرته علىٰ تدبير حياته، وولجت به مرحلة الطفولة الثانية التي تتطلّع إلىٰ رفيق يؤنِس وعائل يدبّر وخادم يرعىٰ، وتلك مسؤولية تكافليّة لا تسقط في غياب الزوجة والولد، بل وجب علىٰ المجتمع القريب والبعيد أن ينهض بها وفاء وامتنانا لا منّة وتفضُّلا؛ باعتبارهم الشّهُب التي احترقَت لتضيء لنا الطريق، والأيدي التي كدّت لتبني لنا الجسور، والعقول التي صاغت لنا المعارف والعلوم.

وقد ضرب خليفةُ المسلمين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أروع الأمثلة في تفقّد أمثال هؤلاء الذين انقطعت بهم سبل الرعاية؛ فخصّص من بيت المال راتبا لشيخ ذمّي وقعت عينُه عليه وهو يتكفّف الناس ويتسوّل علىٰ الأبواب؛ إذْ كيف يرىٰ نفسه مسؤولا عن بغلة عثرت في العراق ولا يكون مسؤولا عن عجوز عثرت به قدمُ السعي ووقع في جبّ الفاقة. كما روَىٰ الصحابي الجليل طلحة بن عبد الله رضي الله عنه، أنّه رأىٰ عمر بن الخطاب خرج في سواد ليلة من الليالي، ودخل بيتا من بيوتات المدينة. فلمّا انقشع الليل وأسفر الصبح، ذهب إلىٰ ذلك البيت، فإذا بعجوز عمياء مقعَدة. ولماّ سألها عن سرّ هذا الرجل الذي يأتيها ليلا؟ **قالت:** إنه يتعهّدني مدّة كذا وكذا؛ فيأتيني بما يصلحني، ويُخرج عنّي الأذىٰ. فقال طلحة لنفسه: ثكلتْك أمّك يا طلحة، أعثرات عمر تتبع!

ومن المؤسف أن ترىٰ دولة كالسويد هي التي تبني اليوم علىٰ صنيع عُمَر في الماضي؛ فتضرب المَثل وتتبوّأ المنزلة الأولىٰ عالميا في رعاية المسنّين، حتىٰ لَيحلم كلُّ مسنّ بقضاء شيخوخته فيها؛ إذْ سنّت الدولة قانونا يلزمها بتقديم العون إلىٰ كلّ مسنّ في حاجة إلىٰ المساعدة العملية في حياته اليومية، وذلك عبر موظّفيها للخدمة المنزلية، الذين يساعدون المسنّ في تنظيف منزله وشراء طعامه وترتيب فراشه واستحمامه وحلاقة

ذقنه. إضافة إلىٰ عمّال الإصلاح الذين يأخذون علىٰ عاتقهم توفير بيئة منزلية آمنة، حتىٰ لَينوبون عن المسنّ في تركيب لوحة أو تغيير ستارة بغية تجنيبه الأذىٰ جرّاء سقوطٍ أو تعثّرٍ أو ما شابه. وفي حالة ما إذا كان المسنّ مريضا؛ فإنّ زائرةً صحيّة تتعهَّده بانتظام، لِتفقُّد حالته الصحية، وتوفير الأدوية، وتغيير ضمادات الجروح إن وُجدت. ولا تقتصر هذه الخدمات علىٰ فترة النهار، بل يستطيع المسنّ الحصول عليها في ساعات المساء والليل. أمّا إذا صعبت الحياة المنزليّة علىٰ المسنّ، فمن حقّه الانتقال إلىٰ إحدىٰ دُور المسنّين المجهّزة تجهيزا عاليا جعل الكثيرين يُسمّونها دُور السعادة! ولعلّ في هذا سببا آخر يعضّد مقولة الشيخ محمّد عبده التي أَطلقها إبّان سفره إلىٰ فرنسا واطّلاعه علىٰ أخلاقياتٍ جيّدة حثّ عليها الإسلام وافتقدها في عقر دار المسلمين، وذلك حين **قال: "رأيتُ في الغرب إسلاما بلا مسلمين"**.

ومن الخُبر الذي هو معرفة عن تجربة ومعاينة، إلىٰ الخَبر الذي هو دراية بالسمع أو القراءة، قرأتُ أن الشرطة اليابانية عثرت في مدينة طوكيو عام 2004م علىٰ رفات رجل مسنّ داخل منامة، وبالتحقيق تَبيّن أنه طلّق زوجته عام 1980م وأفلست الشركة التي كان يعمل بها، ونظرا لغلاء السكن في تلك العاصمة المكتظّة، لجأ الرجل الخمسيني إلىٰ بيت

مهجور، واتخذ من إحدىٰ غرفه ملجأ يأوي إليه، وبناء علىٰ جريدة يومية ملقاة بجواره ومؤرّخة بالعشرين من فبراير 1984م، فقد حُدِّدت وفاته بذلك التاريخ، بما يعني أنه تُوفي بنوبة قلبية قبل عشرين عاما ولم يُعره أحدٌ انتباهه! وهو ما علّق عليه باولو كويلهو في كتابه (كالنهر الذي يجري) **قائلا:** لا أقسىٰ من الجوع والعطش والبطالة والألم واليأس، سوىٰ الشعور بأن لا أحد يهتمّ بنا.

(13) جَرِّب

في عصر زلَّت فيه قدمُ الحكمة وسبق الحمقُ الريح؛ دعونا نقطف زهرةً من حديقة الحكمة الصينية تقول: **"النجاح يأتي من القرارات الصائبة، والقرارات الصائبة تأتي من التقدير السليم للأمور، والتقدير السليم يأتي من التجارب"**. ثمّ هلمّوا للتطفّل علىٰ مجلس من مجالس حكيم الصين ونبيّها غير المرسَل (كونفوشيوس)، والذي سأله فيه تلميذُه عن الطرق التي يسلكها المرء ليحوز الحكمة، فأجاب: **"التقليد أسْهل الطرق، والتفكير أنْبل الطرق، والتجربة أشْهىٰ الطرق مذاقا"**.. بما يعني أنّ كلمة السرّ التي عملت عليها الصين فتفوّقت علىٰ أمم الأرض قاطبة؛ هي التجربة. ومِن الصين إلىٰ فرنسا التي سُئل قائدها نابليون: كيف استطعتَ أن تولّد الثقة في نفوس أفراد جيشك؟ فأجاب: مَن **قال:** مستحيل، قلتُ له: جرِّب.

والتجربة هي العقل الثاني الذي نهمل استعمالَه، والسِّفر الجليل الذي نأبىٰ قراءتَه، والناصح الأمين الذي نتلهّىٰ عن سماعه. وهي الفعل الذي نتحاشاه خوفا من الفشل، ونحجم عن خوضه لأنه مجهولٌ يعاديه الإنسان بطبعه، ولا نرتاده لأنه خروجٌ عن المألوف الذي تميل إليه النفس وتأنس به. فضلًا عن أنها –أي التجربة– مجهودٌ إضافي يوسوس لنا شيطان الكسل بأنها أشبه بكتابٍ علىٰ ظهر سلحفاة ومصباحٍ مضيء في ريعان الضّحىٰ؛ أي لا فائدة مِن أمامها ولا طائل مِن ورائها.. مع أنّها طاقة جبّارة بإمكانها تحويل المشاكل إلىٰ فرص والخيْبات إلىٰ انتصارات، بعد تبصيرنا بأنّ العوائق الذهنية التي حالت بيننا وبين التجريب لم تكن سوىٰ نمر من ورق وخيوط من وهم. وقديما قال الحكماء: التجارب ليس لها غاية (أي نهاية) والعاقل منها في زيادة.

والحقّ أنّ الوقائع تنصف التجربة أيّما إنصاف، وتثبت أنها الأساس لكل علم وكل فنّ..فالكثير من المكتشَفات العلمية التي يتنعّم بها الإنسان جاءت وليدة تجارب، أخطأت مرّة وأصابت مرّات، علىٰ طريقة الكاتب الإيرلندي صمويل بيكيت الذي **قال: "هل فشلتَ من قبل؟ لا تقلق، حاول ثانية، وافشل ثانية، لكن افشل بشكل أفضل"**. وجميع الأدوية التي نكفْكف بها دموعَ أسقامنا، مرّت بسلسلة من التجارب علىٰ الحيوان

والإنسان، قبل أن تخرج في صورتها الفعّالة. ومبدأ التجربة والخطأ كان الأساس الذي قام عليه علم الذكاء الاصطناعي، بتطبيقاته المذهلة في استخدام التكنولوجيا، ومن ثمّ تيسير سبل العيش ورفاهية الإنسان. ناهيك عن أنّ أصدق الأدب وأعذب الشّعر، هو ما صدر عن أديبٍ عاش تجربةً شعورية، ثمّ انفعل بها وسطّرها بنانُه في قصةً أو رواية أو قصيدة أو مقالة. وفي هذا قالت شاعرة فلسطين (فدوى طوقان):

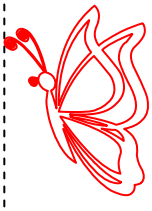

"الكُتب وحدها لا تكفي كمصدر لمعرفة الحياة وما في العلاقات البشرية من تعقيدٍ وتصادم. علينا أن نحيا في الحياة ذاتها، فتجاربنا الخاصة تظلّ هي الينبوع الأصلي لتلك المعرفة".

والواقع أنّ التجارِبَ خبزُ الحياة الذي لا يُستغنَي عنه، والوجه الناصع لحرية الاختيار التي هي جوهر الإنسانية ولبّها، ولولاها لظلّ ابنُ آدم قابعًا

في كهفه يكتسي بأوراقِ الشجر ويأكل في جِفانٍ من حجَر وينام علىٰ التراب والحصىٰ ويشرب ماء البئر والمطر، ولولاها أيضا لَما ركب الإنسان البحر ولا صعد القمر ولا طَبع الكُتب ولا جلس إلىٰ الحاسوب. وبفضلها يكبر الصغيرُ وينمو الغضُّ ويشتدّ عوده، بينما مَن يُولد وفي فمه ملعقة مِن ذهب ويده خالية من التجارب؛ لا يلبث أن ينحني عودُه أمام المحن والشدائد، وتأبىٰ همّته إلّا أن تذوب كذوبان الملح في الماء وتتلاشىٰ كما يتلاشىٰ الدخان في الهواء..

وما ذلك إلّا لأنّ التجربة تَشحذ العقل كما يشحذ المِسَنُّ السكّين، وتُمحِّص الرجالَ كما تمحّص النارُ الإبريز، وتفتح لنا نافذةً نتعرّف من خلالها علىٰ قدراتنا وقدرات الآخَرين. بما يعني أنها المعلِّم الأكبر والواعظ الصامت ولقمان العصر وكلّ عصر، وأنّ عقولَنا وكينونتَنا ليست إلّا أبناءها وبناتها الحقيقيين.. وهو ما أكّده الفيلسوف البريطاني جون ستيوارت مل **بقوله: "يُولَد العقل كصفحة بيضاء ومِن ثمّ تأتي التجربة لتنقش عليه ما تشاء"**، وزاده الشِّعر تأكيدا حين **قال:**

ألــم تــرَ أنّ العقــلَ زيــنٌ لأهلــه وأنّ تمامَ العقلِ في طولِ التجارب

وبالإضافة إلىٰ ما ذكره الشيخ عائض القرني في كتابه (حدائق ذات بهجة) مِن أنّ التجارِب طريقَنا إلىٰ معرفة الزمان والإخوان، وتقلّباتِ الحَدَثان[1]، والصبر علىٰ الامتحان.. فإنّ أفضل ثمرةٍ نجنيها من وراء التجرِبة، هي اكتساب المرونة؛ تلك القوّة الناعمة التي تمكّننا من التحلّي بالمثابرة، فننفتح علىٰ الفشل باعتباره تجربةً ناجحة في غير الاتجاه الذي نصبو إليه، وبحسبانه حصّةَ إحماءٍ تمهّدنا لكسب المباراة. وهو ما طبّقه توماس أديسون فتمكّن من إضاءة العالم بمصباحه، وطبّقه الفأر فتمكّن من الوصول إلىٰ قطعة الجبن في نهاية متاهة ضمن تجربة أجراها العلماء.

وفي هذا أذكر أني أحجمتُ لمدّة عامَيْن كامليْن عن تجربة طريقٍ فرعي، فاعتدْت فيهما الوصول إلىٰ عملي عبر طريقٍ مستقيمٍ لا عوج فيه ومأهولٍ يرتاده الجميع، مع أنّ به ثلاثة مطبّات اصطناعية، ومِثلها مِن التقاطعات، أحدها معقّد يمكن حتىٰ للسائق المحترف أن يتعثّر فيه ويتلعثم. وذات صبيحة يوم مشرق؛ تحمّستُ لخوض غمار هذا الطريق الفرعي، وإذْ بي أكتشف خلوّه من المطبّات والتقاطعات والزحام، وإمكانية الوصول من خلاله بكلّ يسر بل وبفارق ضئيل في الوقت، وبذلك هجرْتُ الطريق المعتاد واعتدْت هذا الطريق المكتشَف بالتجربة!

(1) الحَدَثان هما الليل والنهار

على أنّ للتجربة محاذير وجب مراعاتها والاحتياط لها؛ فتجريب المجرَّب حمْق وجنون؛ إذْ إنّ تجارب الآخرين هي لنا تجارب، والخبرة الإنسانية خبرة تراكمية يأخذ بعضها بيد بعض. وتجريب المعلوم سفَه وغبْن؛ لأننا بذلك لن نضيف جديدا، بل نبذّر حياة تُقاس بالأنفاس والخلجات. وتجريب المحرَّم استخفافٌ بالدّين واستهزاءٌ بالشّرْع والشّارع؛ فتلك حجّة إبليس التي يَنفذ منها إلىٰ ضحاياه السذّج، ظانّين أنّ بإمكانهم عبور البحر دون بلل، واسأل في ذلك أصحاب السيجارة الأولىٰ والكأس الأولىٰ والشمّة الأولىٰ، ثمّ اسمع قصة عالِم الآثار الدانماركي الذي أراد أن يكتب مقالة عن الحشّاشين، فعزم علىٰ أن يخالطهم ويجرّب معيشتَهم ليكون أقدر علىٰ الكتابة وأصدق في التعبير! ولكنه ذهب ولم يَعد ودخل ولم يخرج؛ إذ صار مدمنا يلازم أوكار المدمنين ولا يبرحها، وكان أن خسر عملَه وتدنَّست سمعتُه ودُمِّرت أسرتُه.

علاوة علىٰ ضرورة اجتناب التعميم الذي يؤاخِذ الكلَّ بجريرة البعض، ويُخِلّ بنتائج التجربة ويُفقدها مصداقيتها؛ فالسقوط من فوق حمار لا يعني أن نطلّق ركوب كلّ الدواب، وخيانة صديق لا يسوّغ لعْن الصداقة وهجْر جميع الأصدقاء، وتَعثُّر زواج لا يبرّر التبتُّل والعيْش بلا زواج، وهذا ما يُسمّىٰ بالقوْلبة أو التنميط الذي يُطلِق أحكاما عامّة لا

تستند إلىٰ منطق وعقل، ثمّ ينسف من القاموس كلمات (بعض) و(أغلب) ليخطّ مكانها كلمات (كلّ) و(جميع). مع الأخْذ في الاعتبار أنّ التجارب الناجحة تُستلهَم ولا تُستنسَخ، وذلك بوضْعها علىٰ طاولة البحث، وتفكيكها، ثمّ تطبيق عناصر نجاحها وآليّات تفكيرها، إذْ لكلّ تجربةٍ خصوصيتها وبصْمتها التي يندر التشابه بينها. ولنا في استنساخ تجربة الخندق مِن غزوة الأحزاب في العام الخامس الهجري إلىٰ وقْعة الحَرّة بعد نحو ستين عاما المثَل؛ حيث حفر الثوّار خندقا حول المدينة لعرقلة جيش يزيد بن معاوية، ولكن خطّتهم باءت بالفشل وأبت تجربة الصحابي الجليل سلمان الفارسي أن تُستنسخ، إذْ دخل جيش يزيد المدينة واستباح حرمتَها وفعل بأهلها الأفاعيل!

ولأنّ الأخلاقَ نواةُ البقاء، والنُّبلَ وقودُ الخلود؛ فلا بدّ لتجاربنا أن تتّسم بالنُّبل في نيّتها ومقصدها، وبالأخلاقيّة في آليّاتها ووسائلها؛ وهو ما افتقرَت إليه التجارب التي أجراها العلماء والأطبّاء الألمان في المعسكرات النازية إبّان الحرب العالمية الثانية، حيث قاموا بإخضاع السجناء في معتقلات أوشفيتز ورافينسبروك وغيرهما، لتجارب ساديّة ولا أخلاقية جرحَت الكرامة وبعْثرت الإنسانية ومزّقتها شرّ ممزَّق؛ وذلك حين تمّ غمر المعتقَلين في الماء المتجمّد والمَغلي، وتعريضهم للغازات

السامّة والأمصال والأدوية والأشعّة في صورتها الجَنينيّة غير المقنّنة، وإخضاعهم لعمليات جراحية تخصّ زراعة العظام وتعقيم الذكور والإناث وتجديد الأعصاب والعضلات، كما جرىٰ تجويعهم وقصْر تغذيتهم علىٰ ماء البحر المالح! كلّ هذا بدافع تعزيز القوّة العسكرية والعِلمية، وامتلاك أدوات جديدة للسيطرة علىٰ مقدّرات العالَم. وقد تمّ هذا دون موافقة وعِلم السجناء الذين خرجوا من هذه التجارب بعاهات وإعاقات ووفيات، وجرىٰ إدانته وتجريمه في محاكمات نورمبرغ الشهيرة التي عاقبَت خمسة عشر طبيبا من بين ثلاثة وعشرين متّهما.

هذا لا يعني أنّ ألمانيا شيطان ودول الحلفاء ملائكة وأنبياء؛ إذْ جعلَت فرنسا من الجزائر حقْلا لتجاربها النوويّة أثناء احتلالها الذي دام نحو مائة وثلاثين عاما. وموّلت الحكومةُ الأمريكية بحثًا مفضوحًا دام أربعين عاما (1932-1972م)، قام به معهد توسكيجي في ولاية ألاباما، علىٰ المئات من مرضىٰ الزهري السُّود، لمتابعة تطوّر المرض دون علاج (رغم توفّر العلاج)، ممّا تسبّب في موت أغلبهم.

والمُلاحَظ أنّ أكثر المحتويات الرقمية المطلوبة والمرغوبة مِن قِبل مرتادي الفضاء الإلكتروني؛ هو ذلك المحتوىٰ النصّي أو المرئي الذي يطرق باب التجارب، فيسرد فيه الشخصُ تجربته الحيّة فيما يخصّ

نواحي الحياة مِن تعلُّم أو سفر أو عمل أو علاج أو ما شابه، علىٰ اعتبار أنّ التجاربَ تلد الحكمة وما من حكيم إلّا ذو تجربة. والملاحَظ أيضا أنّ الميل إلىٰ التجريب يكون أقوىٰ ما يكون في سنّ الطفولة والشباب، ثمّ يتراجع مع الكهولة والشيخوخة.. وهو ما يجب استثماره بروح مسئولة تنظر إلىٰ التجربة كبداية لا نهاية وكوسيلة لا غاية، وتمارسها بوعْي عميق ينغمس فيه الفكر والشعور للحصول علىٰ اليقظة والتنوير، وبصبْر جميل نتحصّل من خلاله علىٰ جرعةٍ كافيةٍ تقوِّي حصوننا الداخلية والخارجية، وتطوّرنا نفسيًّا واجتماعيًّا ومهنيًّا.. فكما قِيل: مَن خاض التجارب طابت له المشارب.

الدفتر الثالث

(الغُربة)

(1) جامعة السّفَر

حينما أتأمّل ولَع أطفالنا بالسّفر، وشغفهم بركوب طائرات اختصرت المسافات والأزمان، إلىٰ حدّ صار فيه ركوب السفينة كالإبحار علىٰ ظهر سلحفاة، وأضحىٰ السفر بالسيارات كالارتحال علىٰ ظهور الجمال.. أقول: عندما أتأمّل ذلك؛ أتذكّر أمير الشعراء شوقي الذي كان يأمَن لأسد يجوب به البراري ولا يأمن لطائرة تحلّق به في الهواء، وأمصْمص شفتَيّ مترحِّما علىٰ جدَّةٍ لي كادت تلطم خدّها وتشقّ ثوبها قبل نحو أربعين عاما، عندما علمَت بعزمي السفر إلىٰ القاهرة ضمن رحلة مدرسيّة نزور فيها الأهرامات وحديقة الحيوانات! والتي أيضا حجبَت المياهُ البيضاء نورَ عينها، واضطُرّت للسفر إلىٰ طبيب العيون لإجراء عملية جراحيّة بها، فعصبوا عينيها من الرُّهاب، وأجبروها يومها جبراً علىٰ ركوب سيّارة كانت تخشاها كالموت وتفرّ منها فرار الغزلان من الأسود والحُمْلان من الذّئاب!

وفي هذا لا عجَب؛ إذْ كان بمقدور الشخص حينئذ أن يُولد ويعيش ويموت ولا تسافر قدماه أبعد من بيته وحقله، ولا يتنسّم من الهواء سوىٰ ما تجود به قرْيته أو نجْعه، ولا يتناهىٰ إلىٰ سمعه من أخبارٍ إلّا ما يجلبه له الغرباء في الأسواق. أمّا اليوم، وفي ظلّ انصهار العالَم وسيطرة شبح العولمة؛ بات السفر قدَرا محتوما؛ حتىٰ لا يكاد يخلو بيتٌ مِن مسافرٍ يلهث وراء لقمة العيش، أو طريدٍ يَستجدي نسيم الحريّة، أو طَموحٍ يجدّ في طلب العلم، أو عليلٍ يلتمس الدواء لمرض عضال، أو ناسكٍ يشدّ الرحال إلىٰ أقدس الديار، أو ثريٍّ يفتّش عن المتعة والاستجمام، أو مغامرٍ يستكشف هذا العالَم المجهول.. حتىٰ لَيمكننا القول أنّ السفرَ صار قدرا والغربة أمْست وطنا، خاصة بعد أن أضْحت دولة الغرباء قارّة سابعة وفاق عددُ قاطنيها سكّان الصين والهند اللتان تمثّلان ما يقارب نصف سكّان المعمورة .

وفي تعريفٍ طريفٍ للسفر، كتب ابن بطّوطة المصري **قائلا: "السفر قراءة للدنيا بالقدميْن والعينيْن"**، وابن بطوطة المصري هو الكاتب أنيس منصور الذي ملأ خمسة وثلاثين جواز سفر بالأختام والتأشيرات، وسطّر في أدب الرحلات العديد من الكتب والمقالات، أشهرها كِتاب (حول العالم في 200يوم) الذي جنىٰ من مِداده جائزة الدولة التشجيعية في أدب

الرحلات. أمّا الصينيون؛ أصحاب أقدم حضارة آسيويّة، فيذهبون إلىٰ أبعد من ذلك حين يقارنون بين فوائد السفر والقراءة، فيقولون في أمثالهم: **"مشاهدةٌ واحدة خيرٌ من ألف كتاب"**، هذا علىٰ اعتبار أنّ القراءةَ والسفر توأمان تتحطّم بين سطورهما حدود الزمان وأسوار المكان وحواجز الأفكار والثقافات. ولهذا حثّ القرآن الكريم علىٰ السّير في الفِجاج **بقوله:** ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾[1]، وعدّد قدماء العرب مزايا الترحال **بقولهم:**

"سافِر ففي الأسفارِ خمسُ فوائد

تفريجُ هَمّ واكتسابُ معيشة

وعلمٌ وآدابٌ وصحبةُ ماجد"

والواقع أنّ فوائد السفر لا تُحصَىٰ ولا تُعدّ؛ بحسبانه عالَما فسيحا يموج بجديد الأشخاص والأحداث والأشياء كالمحيط. وباعتباره تجربة استثنائية حيّة تتفاعل معها الحواسّ بعمق، حتىٰ لتحسّ لها طعما ورائحة، وتسمع لها صهيلًا وصليلا، وتشعر لها نبضًا وخفقا. وكما تستحمّ الأبدان في الأنهار لتنشط بعد عقال، فإنّ الحواس الخمس تستحمّ

(1) الحج 46.

في الأسفار لتنتبه من الغفلة وتتعافىٰ من الرتابة، وتلك –وأيْم الله–هي التجارب المكتمِلة التي يجني المرءُ من ورائها جنّاتٍ وحَبَّ الحصيد ..

فبالسفر نكتسب خبرات معرفية وحياتيّة تعزّز لدينا روح الاستقلالية والمسؤولية، وتنمّي قدرتَنا علىٰ تحدّي الصعاب والتكيّف مع الغرباء، وتُضاعِف من ثقتِنا بأنفسنا ومعرفتِنا[1] بإمكاناتها ومواهبها، وتقهر خوفَنا من المجهول، وتُضفي علىٰ تفكيرنا المرونة وعلىٰ سلوكنا رحابة الصدر وسعة الأفق وعلىٰ أحكامنا الحكمةَ والتعقّل. وفيه نصاحب أصدقاء جدد يتعمّق من خلالهم إحساسنا بالأخوّة الإنسانية، وتذوب في ظلّهم النعرات العصبيّة والدعاوىٰ العنصريّة، ونحوز معهم صفة المسافر المثالي الذي قصده الكاتب اليوناني كازانتزاكيس **بقوله: "المسافر المثالي دائما ما يصنع من كلّ مكان يذهب إليه وطنا."**

كما نتمرّد من خلاله علىٰ الحالة الشجريّة التي ينزرع بموجبها بعضهم ويمدّون جذورهم عميقا في الأرض؛ فننتصر علىٰ المكان ونتصالح مع الزمان، وننعم بعدها بحريّة سقفها السماء، ونكسر مَللًا كادت تتشقّق منه النفوس وتصدأ العقول، ونفتح أبوابًا للرزق كثيرا ما

(1) بعدما أَقرّ الكاتبُ إبراهيم نصر الله بأنّ الأسفارَ كَتبَت رُبعَ أعماله الأدبية، ربط بين السفر ومعرفة النفس قائلا: كلّ رحيل في البُعد، لا تكتشف به داخلا، لا يكون رحيلا.

تضنّ بها الأوطان. فضلا عن شحْن طاقاتنا الناضبة، وشحْذ حواسّنا الفاترة، وملْء خزّان الذكريات بالشائق والمثير الذي يَصلح حكايات ومرويّات نسامر بها المعارف والأصدقاء، ونشنِّف بها آذانَ الأبناء والأحفاد. ولا أبالغ إن قلت أنّ السفر قادر علىٰ جعل الصخر ثرثارا، لِما يكتنزه من تجارب وحكايات تستنطق الأبكم وتُسمع الأصمّ.

ولكي نجني هذه الفوائد ونتحصّل علىٰ تلك الثمار، علينا أن نبرمج أسفارَنا ونشمِّر لها السّيقان والسواعد؛ فنخرج بها عن الإطار الاحتفالي الاستعراضي المهووس بالتقاط الصور ومشاركتها عبر منصّات التواصل الاجتماعي بغية الحصول علىٰ إعجابات وتعليقات لا تسمن ولا تغني مِن فائدة. ثمّ نتحلّي بروح الفضول، ونشهر سلاح السؤال؛ وذلك لسبر أغوار العادات التي تلفت أنظارنا، والوقوف علىٰ الثقافات التي تغاير مألوفاتنا، وتفسير الظواهر التي توقظ دهشتنا وتفغر أفواهنا. وهو ما اشترطه بعضهم ومثّلوا له تمثيلًا خشنا ينبع من المملكة الحيوانية، فقالوا بأنّ المسافر يلزمه عينا صقر ليدقّق في كلّ ما يتراءىٰ له، وأُذنا حمار ليلتقط كلّ ما يطرق سمعه فيختزن من اللغات ما يُغني حصيلته ويوسّع مداركه، وظَهْر جمل يمدّه بالجلَد علىٰ تحمّل الصعاب ويسعفه في حمْل ما يتطلّبه السفر من أغراض، وساقا معزة لا تكلّان مِن المشي والاستطلاع ليل

نهار، إضافة إلىٰ محفظة متخَمة بالمال اللازم لسدّ أفواه الطيران والفنادق والتسوّق والهدايا وما شابه، علىٰ اعتبار أنّ أثقلَ الأمتعة محفظةٌ فارغة.

والحقّ أنّ السفرَ أجْدىٰ ما يكون إذا مُورس في سنّ الصغر؛ باعتباره مدرسة تربوية تهذّب، وجامعة تعليمية تثقّف. وأطْيب ما يكون إذا ظفر برفقة طيِّبة صالحة تُذكِّرنا حين ننسىٰ، وتعيننا حين نضعف، وتؤنسنا حين نستوحش، وذلك تصديقا للمثل الإيطالي **القائل: "رفقة جيّدة علىٰ طريق هو أقصر الطرق"**. ومعلوم أنّ السفر ما سمِّي سفَرا إلّا لأنه يسفر عن معادن الناس وأخلاقهم الكامنة، حتىٰ لَيُعَدّ ميزانا للرجولة لا يَغشّ، ومَفْرزة للأصالة لا تُدلِّس، لاسيّما إذا كان سفرا شاقّا يخاصم ذوي النّعال الرّقاق. وأظنّ أن الكثيرين يذكرون كيف أنّ الفاروق عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- استنكر علىٰ أحدهم ادّعاءه معرفة شخصٍ دون أن يكون قد صحبه في سفر بين الوبَر والمدَر.

وقد أحسن الأديب البرازيلي باولو كويلهو صنعا، حين ساق تسع نصائح[1] تخصّ السفر الذي وصفه بأنه الطريقة المثلىٰ للتعلُّم؛ فنبّه إلىٰ تَجنُّب زيارة المتاحف لأنها تخصّ الماضي أكثر من الحاضر، وضرورة

(1) جاء ذلك في مقالة بعنوان (سافروا بطريقة مختلفة)، ضمن سطور كتابه (كالنهر الذي يجري).

ارتياد الأسواق لأنّ فيها حياة المدنيّة، وأهميّة التجوّل في الشوارع والحديث إلىٰ الناس والتفرّس في مفردات حياتهم؛ كيف يعيشون، وكيف يواجهون الواقع، وما في حياتهم من أمور غير عادية، وما يمكنهم أن يعلّموك من دروس. كما نبذ فكرة السفر ضمن أفواج سياحية، وحبّذ للمسافر أن يكون مغامرا، فيضيع في الشوارع ويمشي في الزواريب ويشعر بالحرية في البحث عن المجهول. ثمّ رفع لاءاته الثلاث: لا تُبالغ في الشراء، لا تُقِم مقارنات، لا تحاول أن ترىٰ العالَم كلّه في شهر .

وإتماما للفائدة المُتوخّاة من وراء السفر؛ يتوجّب علىٰ كلّ حصيف أن يفرّق بين المتعة واللهو، وأن يضع نصب عينيه بأنّ دنيا يدبّ علىٰ أرضها مشْيا، ويجوب جنباتها برّا وبحرا وجوّا؛ هي في حقيقتها سفر إلىٰ حياة حقيقية نحطّ علىٰ شاطئها بعد عمر يَقصر أو يطول، وأنّ كلّ لحظة نعيشها ولا تصبّ في هذا الاتجاه لهو الخسران بعينه.. فقمّة الفشل في ضياع الهدف، وخطأ الهدف لا يصوِّبه صلاح الوسيلة، حتىٰ لو كانت تلك الوسيلة سفرًا إلىٰ قمر قيل إنّ نصف ترابه زجاج، وإنّ سطحه زلق ويبدو كطبقة رقيقة من زجاج معتم!

وبالنظر إلىٰ سِيَر المشاهير؛ نجد أنّ بعضَهم بنوا شهرتهم مِن لبنات السفر، وحاكوها من نسيج الترحال والاغتراب؛ فبالأسفار عرفْنا الرحّالة

المغربي ابن بطوطة (1304-1374م)، الذي أمضىٰ ثمانية وعشرين سنة يجوب فيها البلاد والعباد من المغرب الأقصىٰ إلىٰ الصين، قاطعا نحو 120000كم، أي ما يوازي محيط[1] كوكب الأرض ثلاث مرات! وبالأسفار وصلَنا خبر المغامر البريطاني كارل بوشي، الذي خطّط في عام 1998م لرحلة قوامها 36000ميل، اقتطع لها من عمره نحو 20 عاما، وانطلق فيها من تشيلي بالقارة الأمريكية الجنوبية عابرا الولايات المتحدة الأمريكية وكندا، إلىٰ روسيا والصين في القارة الآسيوية، ومنهما إلىٰ وطنه إنجلترا بالقارة الأوروبية! ولولا السفر لما سطّر ياقوت الحموي سِفره (معجم البلدان) الذي خلّد ذكرَه علىٰ مدار تسعة قرون حتىٰ الآن، ولَما كان هناك السندباد الذي ازدانت به قصّة ألف ليلة وليلة وحفلت به الأفلام الكرتونية وعشقه الأولاد والبنات. وفي هذا السياق ذكر الصحافي أسعد طه، أنه ببلوغه سن الستين كان قد سافر إلىٰ زهاء سبعين دولة، وبالطبع خلقَت هذه السفرات منه شخصية جديدة، وفجّرت فيه من القدرات والملَكات مالم تكن من نصيبه لو أنه ظل حبيس مدينته الباسلة التي ولد بها، وهي مدينة السويس المصرية .

(1) يبلغ محيط الكرة الأرضية حوالي 40000كم، ويعود حسابها إلى الجغرافي اليوناني (إراتوستينس)، وذلك في عام 240 قبل الميلاد.

ولولا السفر أيضا لَما برز إلىٰ السطح ضرْب من ضروب الأدب الماتع سُمِّي بأدب السفر أو أدب الرحلات؛ حيث ينوب الكاتبُ عن القارئ في السفر، ثمّ يسجّل انطباعاته ومشاهداته عن سلوك البشر وعاداتهم، ويعرِّج علىٰ أحوال البلاد الاجتماعية والاقتصادية، وما تضمّه الدول بين جوانحها من كنوز الآثار التاريخية، لِيصبح ما سطّره وثيقةً طوع بنان المؤرِّخين وعلماء النفس والفلسفة والاجتماع. ومِن أشهر الكتب التي تنتمي إلىٰ هذا الصنف الأدبي؛ (تخليص الإبريز في تلخيص باريز) لمؤلِّفه رفاعة الطهطاوي، و(رحلة إلىٰ أوروبا) للكاتب اللبناني جورجي زيدان، و(ذكريات في باريس) للدكاترة زكي مبارك، و(مغامرات في الصحراء) للموسوعي مصطفىٰ محمود، فضلا عن كتاب (تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) الذي أوْدع فيه محمد بن عبد الله الطّنجي (ابن بطوطة) خلاصة أسفاره، عبر يراع محرّر أدبي خصّصه له أمير فاس آنذاك.

وفي هذا نتذكّر مقولة الكاتب الأمريكي جون هوبكنز: **"لو أنّي بقيت في الولايات المتحدة الأمريكية لما كتبتُ أبدا، لقد وجب عليّ أن أسافر وأتعلّم وأعرف العالم، هذا أمر ضروري وجوهري"**. كما نذكر رواية الأديب الطبيب محمد المنسي قنديل عن نفسه، حين وقع أسيرا لقلّة

التركيز وفراغ العقل وتعب الروح، وانقطع لفترة طويلة عن الكتابة الروائية، إلىٰ أن سافر في رحلة إلىٰ بلاد وسط آسيا، وانفكّت عقدتُه في مدينة طشقند التي آب منها بروايته الشهيرة (قمر علىٰ سمرقند). إضافة إلىٰ ما ذُكِر أنّ الفيلسوف الألماني (كانط) كان يواظب علىٰ مطالعة كتب أدب الرحلات، لِما يجد فيها من إلهام ووحْي يقوده إلىٰ اكتشاف أعمق أطروحاته الفلسفية!

ويبقى أشرف سفر وأعظم ارتحال؛ هو ذاك الذي ارتحل فيه نبيّ الهدي والرحمة على متْن دابة سماوية ليس كمثلها دابّة؛ فطوَّفت به بين حرم الله في مكّة، وأشرف البقاع في القدس، وسدرة المنتهى في السماوات العلى؛ لِيعود منها بأنفس هديّة إلى البشريّة وهي الصلاة..

﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآ﴾

[الإسراء: 1].

(2)عُمان.. الصورة والحقيقة[1]

قبل نحو عشرين سنة مِن الآن، دأب تليفزيون أرض الكنانة (مصر) في ظهيرة كلِّ جُمعة، علىٰ بثّ برنامج **"عُمان في أسبوع"**؛ ليُلقي مِن خلالِه الضوْء علىٰ ما تواتر من أنباء، ويَنقل ما استجدَّ مِن أحداث في هذا الإقليم القابع في الغرب الآسيوي، والذي صنَّفه الجغرافيون قديما ضمن أقاليم شبه الجزيرة العربية الخمْس، بصحبة أقاليم نجد، والحجاز، والبحرين، واليمن. ثمّ ذكروا أنه أوّل صفْحة عربية تُسطِّر فيها الشمسُ خطوطَها الذهبية كلّ صباح وتحديدا في منطقة رأس الحدّ التابعة لولاية صور بمحافظة الشرقية، بينما تركوا للتاريخ دوره في البوح بأسماء أعلام برزت في سماء هذا الإقليم، وكان لهم في العِلم باع طويل وفي خدمة الإنسانيّة وزن مِن العيار الثقيل؛ أمثال الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي وضَع عِلم العروض، وابن دريْد الذي لُقِّب بأعْلم الشعراء وأشْعر العلماء، والمهلّب

(1) نُشرت هذه المقالة –قبل التعديل– بجريدة الرؤية العمانية في نوفمبر 2017م

بن أبي صفرة الذي مهّد لفتح بلاد السند وولي الإمارة علىٰ خراسان زمن الدولة الأموية، إضافة إلىٰ الملّاح الشهير أحمد بن ماجد الذي لقّبه البرتغاليون بأمير البحر بعدما صحب (فاسكو دي جاما) في رحلته لاكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، وغيرهم.

وقد مثّل لي هذا البرنامج نافذة أَطْللتُ منها علىٰ تلك السلْطنة التي بدتْ مِن خلال الصور المصاحِبة في أبهىٰ صورة وأجمل حلّة وأزهىٰ لباس؛ وذلك مِن حيث التناسق العمراني، وحَداثة المنشآت، وتَوافر الخدمات، إضافة إلىٰ تلألُؤ الأزهار في الميادين، واصطفاف النخيل والأشجار علىٰ ضفاف الطرق وجنبات الشوارع. وللحقيقة لم يكن التَّعاطي مِن قِبَلي مع هذه المشاهد البرّاقة كاملا، وذلك لِعلْمي أنَّ للصورة روْنقا يفوق الواقع وبريقا يَنأىٰ عن الحقيقة، إذْ بإمكان الألوان والأضواء أنْ تُحيل (البوصة) إلىٰ (عروسة) كما يقول المثل، وبمقدور اليد التي تمسك بالكاميرا وتتحكّم في المشهد أن تتخيّر الأجْمل ولا تعرض إلّا الأجْود، علاوة علىٰ سابق تجربتي في إحدىٰ الدول التي عِشتُ فيها بعد أن سمعتُ بها، ثمَّ خذلني الحدْس وخانني التوقَّع، حين تأكَّد لي علىٰ أرض الواقع أنّ الخبَر ليس كالمعاينة وأنّ الصورة لم تكن طبق

الأصل، وأدركتُ عندها أنَّ الصلاحية مستمرّة للمثل العربي الذي **يقول: "أنْ تسمع بالمُعيْدي خيْر مِن أن تراه"**.

شاءتْ الأقدارُ -والخيْر قرين المشيئة- فقدمْتُ إلىٰ عُمان، وعِشتُ بين جنَباتها وخالطْتُ أهلَها علىٰ مدار ما يقرب من عقديْن، فما كذَبتْني الصورةُ ولا خانتْني الشاشة؛ إذْ لم تُخطئ العينُ النظامَ الذي يبسط مظلّته، ولا النظافة التي يفوح شذاها، ولا الهدوء الذي يلفّ الأفق، ولا الطِّيبة التي تغلّف السلوك، ولا التسامح الذي يكسو الوجوه، ولا الأمْن الذي يرفّ جناحاه، ولا الطبيعة التي تفتح ذراعيها فتَجود بنقاء طويّتها وصفاء فطرتها وعليل نسيمها..هذا إذا تجاوزْنا عن حرّ صيفها ولهيب شمسها الذي لم يكن في الحسبان، وكان العزاء أنَّ هذا قدَرُها ولا طاقة لها فيه ولا حيلة.

وإنْ شئتَ مِن الحُسْن بابا ومِن الواقع مثالا؛ فلك أن تتخيّل عجبي مِن الإغراق في تعبير **"سامِحني"** الذي تلهج به الألسنة دون اقتراف أدنىٰ خطأ أو ثمّة إثْم، ولك أن تتمثّل دهشةَ والدي -رحمه الله- حين قدم لزيارتي ونَعمَ سمعُه بغياب آلة التنبيه التي تصمّ الآذان في شوارع دول أخرىٰ، حتىٰ اعتقَد -رحمه الله- أنّ تلك السيارات مُصمَّمة بدون آلات تنبيه! كما لك أن تقرأ سِفْر الوفاء حين لا يَخلو مجلسٌ مِن الاعتراف

بجميل المعلّم المصري ومِن الإشادة بقدراته وإسهاماته في العمليّة التعليمية، في بادرة تنمّ عن الشِّيمة والمروءة، إذْ لا يَعترف بالفضل إلّا أهل الفضل ولا يُقرّ بالجميل إلّا كلُّ جميل...ولعلّ تلك الشمائل التي اتّصف بها أهلُها، والروح السّمْحة التي احتفَت بالمقيمين علىٰ أرضها واحتضنتهم كأبنائها؛ هي ما جعلتْها قبلة يشتاقها الفؤاد ويحمدها اللسان وتهفو إليها النفس.

ومن بين زوّارها العديدين الذين أَثنوا عليها في القديم والحديث؛ سطّر عبد الوهاب مطاوع (1940-2004م) انطباعاته عن زيارته الوحيدة التي دُعي إليها بصفته رئيسا لتحرير مجلة الشباب في أواخر الألفية الثانية، وذلك ضمن صفحات كتابه (الرسم فوق النجوم)؛ فحمد لأهلها بساطة تعاملهم واحترامهم لقواعد المرور، وللبلد هدوءها ونظافة شوارعها وانتشار العمران فيها. أما الشاعر الإماراتي (مانع سعيد العتيبة) فقد هاجت مشاعره وفاضت قريحته بعد أن جاب ربوعها من صحار إلىٰ نزوىٰ ومن صلالة إلىٰ مسقط، فحيّاها تحيّة العاشق الولهان **قائلا:**

"المجد فيكِ حضارة وأمان

فلكِ التحيّة والسّلام عمان

إني أزورك والفؤاد مُتيّم

وإليك يهفو العاشق الهيْمان

فيكِ الجمال مناظر خلّابة

البحر والأمواج والشطآن

وجبال عزّ رحّبَت بضيوفها

هي للإباء وأهله عنوان"

ورغم قطار الحداثة الذي لا يفتُر عن الدوران في ربوع السلطنة ليل نهار، وظهرت آثارُه جليّة في تعميم الخدمات الإلكترونية التي تتمّ مِن خلالها كافة التعاملات الرسمية، فتيسِّر العسير وتختصر الوقت وتوفّر الجهد؛ إلّا أنّ التقاليد العربية الأصيلة ما زالت حاضرة وبقوّة ؛سواء في المطعم والملبس، أو في طقوس الضيافة والأفراح وغيرها. وهو ما يدلّل علىٰ امتلاك زمام الأصالة والمعاصرة، ويؤشِّر علىٰ نهج التوازن والاعتدال الذي اختطَّته السلطنةُ لنفسها داخليا وخارجيا؛ فقفزت فوق الفخاخ المذهبية التي تنهش بعض الدول المجاورة وتمزّقها إربا إربا، ونأت بنفسها عن التحالفات الإقليمية والدولية التي اصطبغت بها السياسة العالمية، فكانت بذلك مثالا للحكمة ورمزا للسلام، وسط عالم يموج بالاضطرابات مِن أقصاه إلىٰ أقصاه. وهو ما جعلها محطّ احترام وتقدير، ووجهة أُولىٰ لزيارة الكثيرين، ورمّانة ميزان في العديد من

الأزمات الإقليمية والدولية، وذلك في هدوء يخلو من الضجيج وتواضع يتنزّه عن المَنّ والأذىٰ.

ولهذا، وغيره، لا عجب أن ترتدي السلْطنة حلّة الفرح في عيدها الوطني الذي يوافق الثامن عشر من نوفمبر كلّ عام والمؤرِّخ لجلوس السلطان قابوس على كرسي الحكم عام 1970م؛ فتزدان شوارعها بألوان علَمها الأبيض والأخضر والأحمر ممْهورة بصور السلطان قابوس، ويُهرع العمانيون –بل والمقيمون أيضا- إلى تزيين السيارات والمباني الحكومية والأندية والمدارس والبيوت، وتُنَظَّم المسيرات في الطرقات، وتنْشط قرائح الكتَّاب والشّعراء مغرّدة بالمنظوم والمنثور..بل هناك مَن اشتعلَت حماستُهم في النسخة الأربعين من العيد الوطني، فساروا على الأقدام مئات الكيلومترات على طريقة الحجّ البوذي، مدشِّنين مسيرة الولاء والطاعة التي استغرقَت ستّة أيام، وصلوا بعدها إلى مقرّ الديوان السلطاني في العاصمة مسقط، لا لشيء إلّا للتهنئة والسلام على السلطان! جدير بالذكر أنّ يوم ميلاد السلطان قابوس وهو الثالث والعشرين مِن يوليو، يُتَّخذ يوما احتفاليا أيضا، تحت عنوان يوم النهضة.

(3) أصابع الاتهام

بقدْر اتّساع صفحة الحياة وامتداد خطّ العُمر، بقدر ما نواجه من عثرات وعقبات، وساعتها يضرب بعضُنا أخماسا في أسداس؛ باحثين عن مشجب نعلِّق عليه الأخطاء، ومُنقِّبين عن (يوسف) جديد نُشْهر في وجهه إصبع الاتهام. قد يرىٰ أحدُنا في البيئة المُحيطة مِشجبَه، فينام قرير العين؛ إذْ ليس في الإمكان أبدع ممّا كان. وقد يرىٰ بعضُنا أنّ غيرَه هو مَن بيده القرار، وكما جنىٰ العسلَ من خليّة النجاح، فعليه أن يحمل وِزر تلك العثرات، وبهذا يرىٰ نفسه سالِما من كلّ سوء، وبريئا براءة الذئب مِن دم ابن يعقوب، وبراءة يوسف من إفك امرأة العزيز. أمّا أن يفتح أحدُنا معجم زلّاته، فيحاكم ذاتَه، ويُوجِّه إصبع الاتهام إلىٰ نفسه؛ فذاك أمْر بعيد المنال ودونه خرْط القتاد!

وفي هذا أَذكر أنّي قبل نحو خمسة عشر عاما، وأثناء سفري من سلطنة عُمان إلىٰ القاهرة علىٰ متن الطيران الكويتي، ألفيتُ أحدَ الإخوة

الخليجيين يلبس قميصا وبنطالا علىٰ عادتهم حين يسافرون ويتحرَّرون مِن لباسهم التقليدي، ومع أنَّ أخانا الفاضل بدا متأنّقا في نظارته وساعته وقلمه وجوّاله وعطره أيضا، إلّا أنّي لا حظتُ أنّ شيئا ما يخمِش وجه هذه اللوحة الأنيقة ويُفسد عليها بريقها، ولم يكن هذا الشيء إلّا في واجهة القميص المائلة، نظرا لأنّ الأزرار ليست مُحْكَمة في عُرُواتها التي توازيها، حيث حلّ الزِرّ الأوّل في العُروة الثانية والزِرّ الثاني في العُروة الثالثة وهكذا، وهو بالطبع خلَل في اللبس لا في الحياكة وفي التكنيك لا في التكتيك، وينمّ عن عدم تمرّس في ارتداء هذا النوع من اللباس، ولمّا نبّهْته إلىٰ تلك العلّة وذلك الخلل، أُسقِط في يده وبُهِت، ثمّ تأفَّف **قائلا:** هذا الهنديّ الذي خاط القميص لا يَفهم!

والواقع أنَّ هذا المشهد يَتكرّر في حياة الكثير مِنّا، حتىٰ لَيصبح منهجا للحياة عند بعضنا، ويشكِّل مَخرجا للخيْبات وتبريرا للفشل عند بعضنا الآخَر؛ فنلوم الناس متناسِين أنّ النّاس ما هم إلّا نحن، ونعيب الزمان وما ندري أنّ الزمان ليس إلّا صنيعة أيدينا وثمرة زرْعنا. وبهذا نضرب بعرض الحائط تلك الحكاية الهندية التي تقول: بأنّ الإنسان الحكيم الذي تسقط حاجةٌ علىٰ رأسه أثناء سيره جنب منزل؛ لا يرفع رأسه ليعاتب الناس، بل يغمض عينيه وينظر في أعماقه؛ ليسأل نفسه عن السبب الذي دفعه ليمرّ

من هنا فيتعرّض لمثل هذا الأذىٰ. كما نصرف بذلك النظر عن التمعّن في النظْم الحكيم الذي ساقه شاعر الفقهاء وفقيه الشعراء (الإمام الشافعي) قبل ألف ومائتي عام تقريبا، **فقال:**

نعيب زمانَنا والعيْب فينا وما لزماننا عيْب سوانا

وليت الأمر يتوقّف عند الأمور الثانوية كاللباس والطعام والشراب، إذَنْ لهان الخطْب، ولعاد الأمر إلىٰ مجراه سريعا علىٰ جناح الطيْر، وفَوْرا كومْض البرْق. بل يتخطاها إلىٰ أمور جوهريّة يتحابّ الناس عليها ويتخاصمون، وذلك حين تمسّ علاقة الأخ بأخيه والصديق بصديقه والزوج بزوجته والجار بجاره والمرؤوس برئيسه. فالأخ لا يَبرّ أخاه ثمّ يتّهمه بقطع الأرحام! والصديق لا يودّ صديقه ثم يَشكو للناس جفاءَه! والزوج يُهمل واجباته ثمّ يصيح من تقصير زوجته! والجار لا يسأل عن جاره ثمّ يَنشد القصاص لحقوقه! والمرؤوس لا ينفِّذ نصائحَ رئيسه ثمّ يُحمِّله مسؤولية فشله! وهم في ذلك أبعد ما يكون عن مقولة (دانتي) في (الكوميديا الإلهية): **"إذا كان العالَم منحرفا وضالّا، فابحثوا عن السبب في أنفسكم"**.

والواقع أنّ هذا مردّه إلىٰ تضخّم الأنا التي تطمس الموضوعية وتهدم المصداقيّة؛ فلا ترىٰ الخير والكمال إلّا في ردهاتها، بينما تَقصر الشرّ والقبح في غيْر شاطئها. كما يعود إلىٰ تغييب خلُق الإنصاف، وإزهاق روح النزاهة؛ فيسمع أحدُنا بأذن واحدة ويرىٰ بعين واحدة وينظر في اتجاه واحد، ثمّ يَحتكر العصمة والقداسة، بينما يرشق غيرَه بسهام النقائص، ويرميه بأحجار المعايب، ويُصدِر في حقِّه أحكاما شوهاء عرجاء لا سند لها من منطق ولا عقْل ولا دِين، وصدَق الحبيب صلىٰ الله عليه وسلم حين ضَرب لهذا مثلا بدِيعا **فقال: "يُبصر أحدُكم القذاة في عين أخيه، وينسىٰ الجِذع في عينِه"**.

ناهيك عن أنّ في هذا دليلا علىٰ قلة احترامنا لغيرنا وهشاشة الثقة فيما بيننا، ومؤشرا علىٰ انتقاصنا من قدْر الآخَرين وطعْننا في إمكاناتهم. كما يبرهن علىٰ العجز عن مواجهة الذات، ويؤكد علىٰ ضيق الأفق وحوَل العقل؛ وكأنّ مرآتنا لا ترانا! أو أنّ ثوبنا قد حِيك لغيرنا! أو أنّ أقدامنا تَسعىٰ بمعزل عنّا! أو كأن العابد الزاهد (عبد الله بن المبارك) يؤذِّن في واد غير وادينا حين ساق نصيحته الثمينة التي تقول:

"لا يقع بصرُك علىٰ أحد إلّا رأيتَ أنّه خير منك"

وهنا وجب علينا أن نتعلّم من قواعد اللغة العربية التي تُقدّم الفعل علىٰ الفاعل، فنركّز اهتمامنا علىٰ الفعل ونضعه في بؤرة الإدراك؛ لنسبر أبعادَه وآثاره، وندلف إلىٰ كيفية معالجته وتوقِّيه، وذلك دون القفز مباشرة إلىٰ نصْب الكمين للفاعل، وتطْويقه بأصابع الاتهام، ومجابهته بسيف العقاب... فكم في الحياة من مظلوم شُهِّر به وانتُقص منه ثمّ تَبيّنت مظلوميته، وكم من برئ غُيِّب خلف القضبان لسنوات ثم تَبيّن أنّ سجّانه هو المذنب، بل وكم مِن قتيل قُتل ثمَّ غسّله وكفّنه وصلّىٰ عليه قاتلُه!

أظنّ أنه أمر مؤسف ومحزن؛ أن نحفر عميقا في جوف الأرض بحثا عن الماء، ونغوص في قعر البحار طلبا للؤلؤ والمَرجان، بينما نضن بذلك عند تعاملنا مع البشر؛ فنهدر كرامتهم ونستبيح أعراضهم؛ بالظنّ لا باليقين، وبالشبهات لا بالبرهان، مع أنَّ كرامة الناس وأعراضهم أعزّ من الماء وأثمن مِن اللؤلؤ والمرجان، ولهذا ورد في الأثر أنّ الخطأ في العفو مقدَّم علىٰ الخطأ في الاتهام، وأنّ الإبطاء في العقاب مقدَّم علىٰ الإسراع فيه، وأنّ درْء الحدود بالشبهات مِن صميم الإيمان. وما أجمل أن نتمثل ما صدّر به جبران خليل جبران كتابه (البدائع والطرائف) **فقال:**

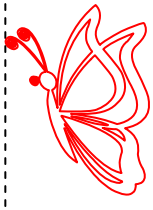

"إنْ رأينا شرطيا يقود رَجُلا إلى السجن علينا ألا نجزم في أيهما المجرم، وإن رأينا رجلا مضرّجا بدمه وآخَر مخضوب اليدين فمن الحصافة ألا نحكم أيهما القاتل وأيهما القتيل، وإن سمعنا رجلا ينشد وآخر يندب فلنصبر ريثما نتثبت أيهما الطَّروب".

ومِن لطيف ما يُروَىٰ في هذا الصدد؛ أنّ خبازا اتّهم فلاحا بالتدليس واللصوصية، بزعم أنّه يغشّ في وزن الزبد الذي يبيعه إيّاه، بل وقدّم للقاضي دليلا دامغا حين أتىٰ بالميزان والزبد، وأثبت أنّ الزبد أقلّ من الوزن الذي ابتاعه مِن الفلاح، وهنا وقف الفلاح **قائلا:** سيدي القاضي؛ اللصّ هو مَن اتهمني بأنني لصّ، لأنني لا أمتلك ميزانا أزن به الزبد، وإنّما كنت أستعين بخمسة أرغفة يخبزها هذا الخباز، وهي في عرف القانون تُساوي رطلا، فلما نقص وزنُ الخبز نقص وزنُ الزبد دون أن أدري أو أقصد، وهنا فغر القاضي فاه حتىٰ قارب فكّه السفلي علىٰ السقوط، وأمَر بفتح باب السجن علىٰ مصراعيه استعدادا لمعاقبة الخبّاز لا

الفلّاح...وصدق الفيلسوف الاسكتلندي توماس كارليل عندما سطر في كتابه (الأبطال) **قائلا:**

"ألأم الذنْب؛ حسبان المرء أنّه برئ مِن كلّ ذنب".

(4) فضيلة الفضول

من بين حزمة الشوْك التي يجنيها بعض مُغتربينا في دول الخليج؛ يغفل بعضنا عن شوكة أراها مؤرِّقة مزعجة؛ وذلك حين يحلّ الغريب منّا ثريدا في قصعة تتناوبها أيدي الفضوليين، أو جثّة علىٰ طاولة تعبث بها مباضع الطفَيْليين؛ فما إن تُسلّم رأسك للحلّاق الهندي حتىٰ يستجوبك في لكنة عربيّة بلون وطعم الكركم، سائلا إيّاك عن بلدك وعملك وطول حبْل غربتك؟ وبقدر تَجاوبك معه أفقيّا بقدر ما يتجرّأ عليك ويغزوك رأسيّا. وما إن تشرع في ربط حزام الأمان وتستوي بجوار سائق التاكسي، الذي غالبا ما يكون مواطنا في البلد المُضيف، حتىٰ يعيد عليك أسئلة الحلّاق ويزيد عليها مستفسرا عن راتبك الذي تتقاضاه؟

ورغم أنّ الكثيرين يعتبرون سؤال الرجل عن راتبه من أخصّ الخصوصيات، تماما كسؤال المرأة عن عمرها وسؤال الطفل عن اسم أمّه؛ إلّا أنّ الطفيْليين من القوم يروْنه برّاقا يغري بالتكرار، وجذّابا يستحقّ

التغوّل فيه.. وفي هذا أذكر أنّ أحد معارفي، زارني في البيت بصحبة جدّه السّبعينيّ، وقبل أن يلتقط الجدُّ أنفاسَه ويجفّف عرقًا حارًّا مسّد جبينَه جرّاء صعود درجات سلّمٍ من طابقيْن؛ إذْ به يباغتني بالسؤال عن الراتب! وحتىٰ بعد أن امتهنتُ العمل الحرّ وافتككْتُ من رقّ الوظيفة، وظننْتُ أنّي بمأمن من السؤال عن الراتب؛ إذْ بأحد المتردِّدين علىٰ العيادة يستفسر في ثنايا حديث له عن الدخل الشهري للعيادة! ومع أنّ هذا الفضول يَكثر بين الغرباء باعتبارهم مجاهيل أمام بعضهم البعض، وبالنظر إلىٰ جبال الجليد التي تفصل بينهم؛ إلّا أنّه قد يَجري علىٰ ألسنة بعض الثقلاء من المَعارف والرفقاء أيضا؛ إذْ ذكَر لي والدي رحمه الله أنّ أحد الزملاء سأله ذات مرّة: كم فدّانا اشتريتَ للدكتور؟

والواقع أنّ الفضول طبيعة في كلّ الكائنات الحيّة، حتّىٰ ليمكننا القول أنّه ملح الحياة، مع التأكيد علىٰ أنّه في الإنسان أقوىٰ طبْعا وأعْمق أثرا؛ باعتباره نزوعًا إلىٰ المعرفة، وانحيازًا إلىٰ الوعي، واقترابًا من الكمال في الإحاطة بالموجودات. وبحسبانه كذلك صوت الحياة الباطن الذي يشحذ الأذهان، وينشّط الأبدان، ويرهف الإحساس. وقد ارتأىٰ فيه أرسطو الغاية من العيش عند الكثير من البشر، ووصفه الكاتب البريطاني صمويل جونسون بأنه أوّل المشاعر الإنسانية وآخرها، وألّف فيه ألبرتو

مانغويل كتابا ولقّبه بالمعلّم العظيم، بينما مجّد الفيلسوف الفرنسي فرنسيس بيكون الفضوليين وخلع عليهم لقب تجّار النور. هذا قبل أن يصفه شادي عبد السلام بأنه مفتاح الحضارات والمفتاح الذهبي إلىٰ عالَم أفضل. ولعلّنا ننتبه إلىٰ ما بين الفضيلة والفضول مِن تشابه حرْفي يصل إلىٰ حدّ التطابق!

والفضول المقصود هنا، هو الذي يلبّي حاجة فطرية جِبلّيّة تقودنا إلىٰ اكتشاف أسرار الكون؛ فنروِي به عطش المعرفة ونهم العلم، ونتكئ عليه في كشف الحُجب وفكّ الألغاز وإيضاح المبهَمات. كما نُضاعِف به الرغبة ونشدّ عزم الإرادة، فضلا عن كوْنه يصلح كمقدّمة لإذابة الجليد وتدشين علاقات إنسانية واجتماعية جديدة. بمعنىٰ أنه يطوّرنا ويزيد خبراتنا ويوسّع مداركنا ويوطّد روابطنا؛ وهو ما يفسّر حضوره القويّ في سنّ الطفولة التي تتشوّف إلىٰ الغريب والجديد وتعمل جاهدة علىٰ تثبيت أقدامها في رمل الحياة، ويبرّر تراجعه مع تقدّم العمر حين يذبل الطفل داخلنا ويزحف الملل علىٰ نفوسنا؛ فنزهد في الجديد ونتشبّث بأهداب القديم. ولعلّ في هذا الفضول ما يفكّ لغز التناقض بين معرفة الإنسان الواسعة بعالمه المحيط، وبين جهله المطبق بنفسه التي بين جنبيْه.

وباستقراء التاريخ الإنساني نجد أنّ هذا الفضول كان دوما قائدنا في الولوج إلىٰ عالَم القراءة، ومركبنا في السفَر حول الأرض، وطائرتنا للسياحة في جنبات الفضاء، ومعملنا لإزاحة الستار عن أعظم المكتَشفات، وجيشنا لغزو هذا العالَم الذي لا تنقضي عجائبه ولا يبوح بأسراره مِن تلقاء نفسه. ويتجلّىٰ هذا بوضوح في حقّ الباحثين والعلماء حين ألهب الفضولُ خيالَهم، وأضاء أمامهم شعلةً مقدّسة لا تخبو ولا تنطفئ؛ فلم يكن لأبي الحسن المسعودي أن يطوف آسيا وأفريقيا ويؤلّف موسوعته التاريخية الجغرافية (مروج الذهب)؛ إلّا إذا كان خزّان فضوله ممتلئًا إلىٰ فوّهته. ولم يكن لتوماس أديسون أن يثابر المرّة تلْو المرّة في سبيل إضاءة العالم بمصباحه؛ إلّا بعد أن نزع سلاح الفضول من غمده ولوّح به للمثبِّطين المخذِّلين. ولم يكن لجون هنتر أن يؤسّس للقاعدة الجراحية الخاصّة بدورة الدم الجانبيّة؛ إلّا بعد أن وسوس له فضولُه وحثَّه علىٰ تتبُّع تأثير ربط أحد الشريانيْن السّباتييْن في عنق زرافته. وأيضا لم يكن لألبرت أينشتين أن يصف نفسه **بقوله:**

"أنا لست موهوبا ولكنّي فضولي"؛ إلّا لإيمانه بأنّ الفضول خصيصة الذهن المتوقّد، وثقته بأنّ الفضول والكسل الذهني لا ينامان في فراش واحد.

وكما للعملة وجهان، فإنّ للفضول وجها آخَر يرسمه قلمُ الفراغ وتُلوّنه ريشةُ الحسد والغيرة وعُقَد النقص، فينحرف عندها عن الجادّة، ويشذّ عن معناه الهادف وغايته النبيلة؛ وذلك حين ينقّب الفضوليّ عمّا لا يعنيه، ويبحث فيما لا يفيده، ويحصر غاية المعرفة في المعرفة لذاتها، وينصِّب من نفسه برج مراقبة يتنصّت ويتلصّص من خلاله علىٰ خصوصيّات الناس ويقتحم عليهم أسرارهم؛ فيُضعْضع الثقة بين النّاس، ويحطم العلاقات الاجتماعية، ويعصف بسلامه الداخلي، ويجرّ علىٰ نفسه الوبال والخسران؛ علىٰ اعتبار أنّ مَن ينبش خصوصيات الناس كمَن ينبش جيوبهم ويَجول في بيوتهم بغير إذْنهم، وبحسبانه يوسِّع دوائر الاهتمام علىٰ حساب دوائر التأثير، ويقدِّم أنموذجا سيّئا للتواصل بين اثنيْن أحدهما يجرح والآخر ينزف، وفي ذلك افتقار إلىٰ الاحترام، ونأْي عن مبدأ (كَسْب كَسْب) الذي يمثِّل أسمىٰ أنواع التعامل الإنساني.

وفي هذا يقول المثل الإنجليزي (الفضول قتَل القطّة)، في إشارة إلىٰ تلك القطّة التي وقفت في ليلة مقمرة علىٰ سطح شاهق؛ وأمام صفحة البدر المتلألئ وتحت ضغط الفضول الداخلي، قفزَت عاليا لتُعانق هذا الكائن العلْوي الخلّاب؛ فسقطَت علىٰ الأرض ميِّتة. كما تحكي الأساطير الإغريقية عن امرأة تُدعىٰ باندورا، زعموا أنها أوّل امرأة هبطت إلىٰ

الأرض وحلّت في مجتمعٍ مسالمٍ آمنٍ سعيدٍ من الرجال، وكيف أنّ الفضول غلبها، فخالفَت الأمر وارتكبَت المحظور بعد أن فتحت الصندوق الذي كان أمانة في حوزتها، ومنه خرجَت الشرور التي عمّت المجتمع من مرض وفقر وجهل وما تلاه من ألم وعنت ونصب. وكأنّ باندورا طبّقَت بأثر رجعي مقولة أحلام مستغانمي: في كلّ امرأة تنام قطّة يقتلها الفضول.

ولعلّ بعضَنا قرأ عن العبارة التي حاربَت هذا النوع القميء من الفضول، ونُقشت علىٰ الدولار الأمريكي قديما **وهي:** اهتم بأمورك الشخصيّة. هذا قبل أن تُستبدَل بعد الحرب العالميّة الثانية بعبارة: نحن نثق في الله.

خلاصة القول: أنّ كلّ غريزة تعدّت إطارها المرسوم تؤول من فضيلة إلىٰ رذيلة، وأنّنا كبشَر بحاجة ماسّة إلىٰ الضغط علىٰ مكابح فضول القول والنظر والسمع؛ فنحفظ قول ربّنا سبحانه: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾[1]، وننقش علىٰ فؤادنا قول النبي الكريم صلىٰ الله عليه وسلم: **"مِن حُسن**

(1) طه 131.

إسلام المرء تركه ما لا يعنيه"، ثمّ نضع نصب أعيننا مقولة ابن مسعود رضي الله عنه: **"إياكم وفضول الكلام، حسب امرئ ما بلغ حاجته"**، وقول إبراهيم النخعي رحمه الله: **"ليس من المروءة كثرة الالتفات في الطريق"**، ونظْم الشّاعر عمر الخيّام حين **قال:**

وأســـــعدُ الخلـــــق قليـــــلُ الفـــــضول

مَـــن يهجـــر النـــاسَ ويرضـــىٰ القليـــل

(5) شيءٌ من العزلة

ربّما لن يجد الفيلسوف ابن خلدون ما يدلّل به علىٰ مقولته بأنّ الإنسان كائن اجتماعي بطبعه، أصدق مِن رجل التقيتُه في بلاد الحرميْن أثناء غربة قصيرة لي هناك لم تتعدّ السنتيْن.. إذْ كان الرجل مديرا لشئون الموظفين بشركة شهيرة، ورغم أنّ الشركة احتفت به وخصّته بسكن مستقِلّ ومؤثَّث؛ إلّا أنّه وبحكم ضعفه أمام وَحدة لا يطيقها ولو لساعة، ألحّ علىٰ موظّفيه بالسّهر عنده كلّ ليلة، وترَك لهم الحبل علىٰ الغارب في تمضية الوقت بمشاهدة التلفاز أو سرْد الحكايات أو احْتساء المشروبات أو لعب الطاولة والشطرنج، علىٰ أن لا يغادروه إلّا بعد أن يلعب النومُ برأسه ويخلد إلىٰ سريره. وفي حالات نادرة يخلّ موظّفوه بالعهد ويتغيّبوا لظرْف قاهر؛ كان يبادر بتطبيق الخُطّة البديلة، عبر الاتّصال بمعارفه، واختلاق الحجج الطارئة ليفزعوا إلىٰ نجدته ويمكثوا بصحبته، أو يصحبهم إلىٰ حيث يريدون. وهكذا دارت الأيام دورتها، إلىٰ أن باغته

صاحب الشركة في ساعة مِن ليْل، وما إن وجد هذا الجمع المحتدم ووقعت عينُه علىٰ ما يشبه المقهىٰ المزدحم، حتىٰ وجم وخرج، ومِن الغد الباكر استدعىٰ المدير صاحبنا، فأنّبه ووبّخه وهدّده بإجراء عقابي، بعد أن لقّنه درسا في قواعد الإدارة بوجوب ترك مسافة بينه وبين موظّفيه تحفظ الالتزام في سيْر العمل ويضمن بها انضباطهم، تماما كمسافة الأمان التي يُنصح بها بين السيارات (5-10م) ضمانا لسلامة المرور.

والواقع أنّ الإنسان جُبل علىٰ العيش وسط الناس لتحقيق غايات التعارف والتعامل والتفاعل والتعاون والتكامل، وذلك تطبيقا لِما جاء في قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾[1]. بل إنّه ما سُمِّي الإنسان إنسانا إلّا لأنّه يَأنس بالنّاس ويَأنسون به، فيَألفهم ويَألفونه، ومِن ثمّ يتداول معهم الأفكار، ويتطارح الرؤىٰ والعادات، وينمِّي شخصيتَه اجتماعيّا وثقافيّا ونفسيا، ثمّ يتبادل معهم المصالح الاقتصادية والأدوار الإنسانية، ويقيم علاقات تتخطّىٰ الجينات، كالصداقة والزمالة والجيرة والمواطنة، لتلتئم من خلالهم المجتمعات والأوطان والأمم علىٰ مَرّ الأزمان. وفي هذا قال الفيلسوف

(1) الحجرات 13.

الروماني شيشرون (106-43 ق. م): **"لو أنّ الآلهة رفعت إنسانا من بين قومه، ووضعتْه في روض أريض بعيدا عن منازل الناس، وجعلت تحت أمره كلّ ما تشتهيه النفس ويسرّ الخاطر، ثم حتّمت عليه أن لا يرىٰ بشرا ولا يساكن إنسانا، لَتخيّر الفقرَ المدقع بين قومه علىٰ نعيم مقيم لا يكلّم فيه إنسانا"**، وهو نفس المعنىٰ الذي سطّره أبو العلاء المعرِّي **بقوله:**

ولــو أني حُبِيــت الخلــدَ فــردا لَمــا أحببــتُ في الخلْـد انفـرادا

ونظرا لاختلاف الأهواء والقناعات، لابدّ أن يتولّد عن هذا الاجتماع الإنساني بشتّىٰ صوره، بعض أزمات وصراعات تشكّل ملح الحياة في حدّها الأدنىٰ، أو تتطوّر إلىٰ صداع ومغص وكدمات في حدّها الأقصىٰ، وعند هذا الحدّ يَلزمنا الخلود إلىٰ الوحدة علىٰ سبيل العلاج، وإلىٰ العزلة طلبا للنقاهة والاستجمام. والعزلة بهذا الوصف، ليست مرضا يشذّ عن الناموس، ولا ضعفا يفرّ من المواجهة، ولا انطواء يتأبّط عقدة نفسيّة؛ بل هي تجربة أصيلة للعيْش وركْن ركين للوجود وجرْأة من نوع مغاير، ومَن لم يتعوّدْها ويعقد معها صلحا عانىٰ كصاحبنا الذي أسلفْنا ذكره؛ ذلك لأنّنا نَقْدُم هذه الأرض فرادىٰ ونغادرها فرادىٰ، ولأنّ أعظم منعطفاتنا التي نمرّ بها تتبدّىٰ فيها الوَحدة بأوضح صورها، حتىٰ لو شاركَنا الآخَرون

بعض رتوشها، كالحمْل والولادة، والخوف والألم، والمرض والموت؛ بما يعني أنّ الوحدة جزء أصيل فينا وليست غريبا وافدا علينا، وأنها إحدىٰ غرائزنا الداخليّة التي ضمرت ولكنّها لم ولن تختفي، وأنها خيط أصيل في نسيج الحياة لا تَصلح إلّا به.

وفي محدِّدات هذه الخلوة ومواصفاتها القياسية؛ يقول ابن عطاء الله السكندري: **"ما نفع القلبَ مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة"**، ويقول الصوفي ابن عربي: **"مَن خلا ولم يَجد فما خلا"**..بمعنىٰ أنّ خلوة وعزلة لا تُنجب بنات أفكار تصفو بها النفوس وترقَىٰ العقول وتنتعش الأرواح، لا جدوىٰ منها ولا جودة فيها، بل هي خَصمٌ من رصيد أيامنا النافد عمّا قريب، وتبذيرٌ لمَسيرنا المقدَّر بالأنفاس لا الساعات. وهي بهذا أشبه ما تكون برحلة قصيرة نتعرّف فيها علىٰ ذواتنا ونعيد ترتيب أولوياتنا، فنعود منها أرقّ أفئدة وأكثر إشراقا وأقلّ عدوانية وأميل إلىٰ حبّ الناس والإقبال علىٰ الحياة، تماما كغريب آب إلىٰ وطنه ومريض أبلّ مِن مرضه، خاصة أنّ هواء الخلوة بِكر لم يعكّره كذب النفاق، ونقيّ لم تلوثه هتافات المادّة، وشفيف لم تحجبه سعار الشهوات.. وذلك لَعَمري، جوّ عُلوي يحلّق بعيدا عن كثافة الطين، ويشبه المصفاة لا المرآة؛ فيلائم أغلىٰ وأنفس ما فينا، وهي نفخة سماويّة تسكن غلاف البدن ونسمِّيها نفسا وروحا.. وفي

هذا كتب تولستوي ضمن يومياته: **"لا يستطيع المرء أن يدنو من الله إلّا وحيدا"**.

وقد كانت هذه الخلوة الملهِمة تمرينا دوريّا يحرص عليه المتأمّلون من أصحاب النّهىٰ والعقول، وكانت تلك العزلة[1] المثمِرة حَمْلا معنويا يخوضه الطامحون إلىٰ ولادة الحقائق واستكْناه الأسرار والترقِّي في مدارج القبول، وكانت كالغياب الذي لا بدّ منه لحضورٍ باذخٍ لائق. وهو ما نجده ديْدنا للأنبياء والمرسَلين، وجسرا عبر عليه العظماء مِن الحكماء والمفكِّرين؛ بدءا بالنبي صلىٰ الله عليه وسلم حين دأب علىٰ اعتزال العالَم بأسره، وسلوك طريق وعر يمتدّ نحو ثلاثة كيلومترات في عمق الجبل، ليتحنّث في غار حراء الذي لا يزيد عن المتريْن طولا وعرضا؛ ناشدا سنن الكون، ومتأمّلا عظمة الخلْق، ومناجيا صاحب الملْك والملكوت. مرورا بالإمام أبي حامد الغزالي؛ عندما طلّق التدريس والمناظرات، ودخل في عزلة قاربت العشر سنين، لزم فيها منارة المسجد الأموي بدمشق وصخرة بيت المقدس في فلسطين وكعبة البيت الحرام وروضة المسجد النبوي، وخرج منها بكتابه الشهير **"إحياء علوم الدين"**،

(1) مجّد بيكاسو هذه العزلة بقوله: بلا عزلة حقيقية لا يمكنك القيام بعمل جادّ.

ووصفها **بقوله: "لستُ أخلو لغفلة وسكون. وفرارٍ مِن الورىٰ وارتياح. إنّما خلوتي لفكرٍ وذكر. فهي زادي وعدّتي لكفاحي"**...

وانتهاء بالعديد من المبدعين في ميادين العلم والأدب والفن، أمثال نيوتن وأينشتين والعقّاد وغاندي[1] وغيرهم؛ وذلك وقتما اعتزلوا مجتمع الأشخاص والأحداث وسكنوا مجتمع الأفكار والمشاعر، ثمّ أنصتوا لهمس الجزيْئات والذرّات وأنتجوا كنوزا خالدة في مجالاتهم؛ وهو ما حبّذه أينشتين **بقوله: "كن وحيدا، فهذا يعطيك وقتا للتأمّل، يعطيك وقتا للبحث عن الحقيقة، ويجعل حياتك ذات معنىٰ"**. ثمّ برّره العقّاد في سيرته الذاتية بعنوان (أنا)، **قائلا: "لقد ورثتُ طبيعة الانطواء عن أبي وأمّي، فلا أملّ الوَحدة وإن طالت، إنّي أقضي بمفردي أيّاما والناس لا تقدر علىٰ قضاء ساعات أو لحظات، ولكنني أشغل وحدتي بالقراءة والكتابة. وإن كنتُ في عزلة وانطواء عن المناسبات، فإنّي لست في عزلة عن أصدقائي وإخواني"**. أمّا المفكّر عبد الوهاب المسيري فسمّىٰ عزلته بالانغلاق النّسبي، ورآها ضرورة يحمي بها نفسه ممّا هو شائع ومألوف، ويقيها مِن شرّ التفاصيل والتفاهات ولغو الحديث والأحداث اليومية.

---

(1) عن الفائدة التي جناها غاندي من عزلته قال: **"انطوائيتي كالغشاء الذي جعلني أنمو بشكل أفضل"**.

أكثر من هذا؛ نجد أنّ صاحب كتاب (بين ثقافتين)، يرىٰ أنّ رجلا لا يعرف كيف يخلو إلىٰ نفسه وينعم بتلك الخلوة قلّ أن يُسمَّىٰ مثقَّفا، بينما الذي يسكن إلىٰ الضجيج ولا يستطيع العيش في غير الضجّة المحتدمة والصراخ والحركة، هو رجل زائف الروح زائف الثقافة. ومِن العجيب أنّ بعض المؤرّخين يُرجع نجاح الإنجليز فيما فشل فيه الفرنسيون، وهو استعمار كندا، إلىٰ طبيعة إنجليزية انعزالية مكَّنتْهم من تحمّل العيش في المجتمع الكندي الجديد والمنعزِل، بعكس الطبيعة الفرنسية الاجتماعية التي جُبلت علىٰ العيش وسط الحفلات والمعارض الباريسية الصاخبة!

مع التأكيد علىٰ أنّ الوحدة في حقّ الناس عامة؛ هي بمثابة المسكِّن لصداع الحياة والمضمِّد لجروحها والجابر لكسورها، ولا يجب بأيّ حال من الأحوال زيادة جرعة المسكِّن طالما أنّ الصداع ولّىٰ، بل ينبغي إزالة الضمادة طالما أنّ الجرح قد برأ، ونزْع الجبيرة طالما أنّ الكسر قد التحم؛ إيمانا منّا بأنّ الشيء إذا زاد عن حدّه انقلب إلىٰ ضدّه، وأنّ الحياة بمَن فيها وما عليها تسكننا وتقيم فينا؛ بإرادتنا أو بدونها، وبرضانا أو رغما عنّا.. وهو ما أشارت إليه دراسة أمريكية استغرقت ستّ سنوات وشملت أكثر من ألفَي شخص تخطّت أعمارُهم الخمسين، وأكّدت نتائجُها أنّ العزلة المُفرطة تفوق أخطارها أخطار السمنة، وتؤدّي إلىٰ عواقب وخيمة

كتلك التي يُسبّبها التدخين والكحول وعدم ممارسة الرياضة، إضافة إلىٰ أنها ترفع مؤشّرات الالتهاب المزمن في الدم والذي يجرّ في ذيله تصلّب الشرايين ويهيّئ للإصابة بأمراض القلب والدماغ الوعائية! وصدق النبيّ الكريم صلوات ربي وسلامه عليه حين **قال: "المؤمن الذي يُخالط الناس ويصبر علىٰ أذاهم، خير من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر علىٰ أذاهم"**، وهو ما فسّره العلماء بقولهم أنّ المؤمنَ الأوّل نفْعه مُتعدّ فينفع نفسه وغيره، أمّا المؤمن الثاني فنفْعه خاص به لا يتعدّاه.

ولعل بعضنا قد قرأ ما ختم به الإمام الخطابي كتابه عن العزلة **بقوله:**

"والطريقة المثْلى في هذا الباب؛ أن لا تمتنع مِن حقٍّ يلزمك للناس وإن لم يطالبوك به، وأن لا تنهمك لهم في باطل لا يجب عليك وإن دعوك إليه، فإنّ مَن اشتغل بما لا يعنيه فاته ما يعنيه، ومَن انحلّ في الباطل جمد عن الحقّ، فكُن مع الناس في الخير وكُن بمعزل عنهم في الشرّ، وتوخّ أن تكون فيهم شاهدا كغائب وعالِما كجاهل".

وفي هذا رُوِي أنّ أحدَ النابهين في كيمياء القلوب، كان يضع الحديد في التراب ويتعهّده، فإذا وجد الصدأ قد طاله، اعتزل الناس لبرهة، علىٰ اعتبار أنّ القلبَ يصدأ كما يصدأ الحديد، والناسَ تراب في المنشأ والمآل.

(6) الانشطار اللغوي

قبل نحو قرنيْن من الزمان، وبينما أتلمّس خطواتي الأولىٰ علىٰ ثرىٰ سلطنة عمان الحبيبة، أَذكر أنّ أحدَ الزملاء –رحمه الله– حلّ ضيفا عليّ، فقدّمتُ له لبنًا باردا اشتريته لتوّي بعد إضافة ملعقتيْن من السكّر كعادتي في شرب اللبن باردا ومُحلًّىٰ بالسكّر، فتأفّف الرجل من طعم اللبن وطلب مزيدا من السكّر، فزدته، ثمّ زدته مرّة ثانية بعد أن استمرّت معاناته مع الطَّعم، وأخيرا ترك اللبنَ جانبا وولّىٰ هاربا. وإذْ بي أكتشف أنّي قد خلطتُ حلوا بحامض بعد أن وقعتُ ضحيّة اختلاف اللهجات التي طالما أحدثَت اللبْس وجرّت وراءها الضحكات .. فاللبن في مصر الكنانة هو الحليب ولا فرق، أمّا في السّلْطنة فاللبن غير الحليب، لأنه شراب مالح لا دسم فيه، ويُشرب بغرض تعويض أملاح ينزفها الجسم مع العرق جرّاء الأجواء الملتهبة في أتون الخليج. وبهذا أكون قد عزفتُ علىٰ وتر مشاهداتٍ للكاتبة السورية غادة السمّان ضمَّنتْها كتابها شهوة الأجنحة،

حينما وصفَت عادات الطهي في بلد السبعة آلاف جزيرة (الفلبين)؛ وذكرَت أنهم يطبخون الفاكهة مع اللحوم، والحلو مع الحامض، والسكّر مع الملح والتوابل الحرّيفة!

والواقع أنّ الحديث عن لهجات متباينة تغطّي سماءنا العربية حديثٌ ذو شجون؛ إذْ كيف للهجة أن تتقدّم علىٰ لغة فتصبح الأكثر تداولا ورواجا، خاصة إذا كانت هذه اللغة التي تولَّدت عنها اللهجة، هي لغة القرآن وعنوان خاتم الرسالات وديوان أيّام العرب وأشعارهم وأمثالهم! وكيف لمَشرِقيّ في الحجاز ومصر والشام أن يحادث مغاربيّا في الجزائر وتونس والمغرب ولا يفهمه! بل كيف لبلد واحد تتعدّد فيه اللهجات بين شماله وجنوبه وشرقه وغربه؛ كما هو الحال في مصر التي تتفاوت فيها لهجات أهل الصعيد عن أهل الاسكندرية عن أهل الريف عن أهل القاهرة عن أهل سيناء! وكما هو الحال في المملكة العربية السعودية التي أحصىٰ أحدُ الباحثين لها ثلاثا وعشرين لهجة، بين قَصيمية ونجْدية وحجازية وإحسائية وغيرها.. وذلك علىٰ طريقة الرجُلين اللذان اختلفا في نُطق كلمة الصّقر، إذ نطقها أحدُهم بالصاد والآخَر بالسين، ولمّا احتكَما إلىٰ ثالث ليفصل بينهما ويفضّ نزاعهما، نطقها بالزّاي!

وتُعرَف اللهجة بأنها خروج عن المألوف الشائع في نُطق أمّة من الأمم، ولا يخلو منها واحدٌ من الألسن العالمية التي تزيد عن ثلاثة آلاف لسان[1]، ويَكثر استعمالها مَحكيّة لا مكتوبة، فتسود في أروقة الشارع والبيت والعمل، وتُسمّىٰ لغة الشعب بالنظر إلىٰ كثرة المتحدِّثين بها، وتلقَّب بالعاميّة باعتبارها لسان العوام من الناس دون النّخبة، وإن كان بعضهم يفرّق بين اللهْجي والعامّي ضمن التقسيم الثلاثي للمستويات اللغوية (فصيح- لهجي- عامي). وبتسليط المنظار علىٰ اللسان العربي؛ يمكننا إحصاء لهجات مصرية وشامية وخليجية ومغاربية وعراقية، وبوسعنا ملاحظة بروز اللهجة المصرية علىٰ غيرها من اللهجات نظرا لعوامل سكّانيّة وثقافية. وفي حين تتقارب اللهجتان العراقية والخليجية؛ فإنّ اللهجة الشامية تتقارب مع المصرية التي تتقارب بدرورها مع السودانيّة، ويرىٰ بعضهم أنّ اللهجة الشامية هي الأقرب للفصحىٰ والمغاربية هي الأبعد.

(1) في تقرير صادر عن المنظمة الدولية المَعنية بالتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو)؛ ذُكر أنّ نحو 2500 لغة من بين ستة آلاف لغة يتحدّث بها سكان المعمورة قد انقرضت، وأنّ ما نسبته 97٪ من البشر يتحدثون بها نسبته 4٪ من لغات العالَم.

ومع أنّ الاختلاف بين هذه اللهجات قد طال طبيعة الأصوات وكيفية صدورها، إلىٰ جانب بنْية الكلمات ونسيجها ومعانيها، إلّا أننا لا ننكر وجود الكثير من المشترَكات اللفظية والدلالية بينها جميعا، وذلك لأنها تدفّقت من نبع واحد وهو اللغة العربية الجامعة التي صهرَت لغات القبائل العربية كافّة وفي القلب منها لغة قريش الأبْين والأفْصح والأرقّ. بما يعني أنّ العلاقة بين هذه اللهجات هي علاقة مصاهرة وقرابة ونسَب، وأنّ العلاقة بينها وبين اللغة العربية الفصحىٰ هي علاقة خاص بعام وجزء بكلّ وأدنىٰ بأعلىٰ ووافد بأصيل، حتىٰ إنّ بعضَ المصطلحات العامية التي نظنّ أنها سوقيّة مبتذَلة، وبعد البحث والتدقيق، نجدها ثاوية بين دفاف القواميس وطيّات اللسان الفصيح.

وقد ذكَر أهلُ اللغة أنّ اللهجات وليدة عامليْن رئيسيين؛ أحدهما الانعزال بين بيئات المجتمع الواحد، وذلك تحت قهر التضاريس الجغرافية من بحار وجبال وصَحار، أو بفعل ظروف الاجتماعية تُفاوِت بين طبقات المجتمع، وتقلّل الرابطة بينها، وتنشئ بيئة لغوية جديدة تبيح الإبدال والقلب والحذف والإضافة والإدغام في ألفاظ ومصطلحات اللغة الأصل. أمّا العامل الثاني، فيعود إلىٰ الصراع اللغوي بين لغة قائمة وأخرىٰ وافدة نتيجة غزو أو هجرة، كما حدث إبّان الغزو الفرنسي

للجزائر والإنجليزي لمصر والإيطالي لليبيا، وكما حدث مع قدوم الفتح الإسلامي بلغته العربية علىٰ مصر بلغتها القبطيّة وعلىٰ المغرب بلغته البربرية الأمازيغية وعلىٰ فارس بلغتها الفارسية وعلىٰ الشام بلغته الآرامية. ولعلّ هذا يفسّر كوْن اللهجة المغربية خليطا من اللغتين العربية والأمازيغية، وكون اللهجة المصرية هجينا من ثلاث عشرة لغة؛ بعضها قديم يعود إلىٰ القبطية والفرعونية، وبعضها حديث يعود إلىٰ التركية والفارسية والإنجليزية والفرنسيّة واليونانية إلىٰ جانب اللغة العربية، ليَصدق عليها قول شاعر النيل (حافظ إبراهيم):

فجاءت كثوبٍ ضمّ سبعين رقعةً مــشكَّلةَ الألــوانِ مختلفــاتِ

وفي وقتٍ يَصعب فيه القفز فوق سُنّة ثابتة مِن السّنن اللغوية[1]، ويستحيل معه محْو هذه اللهجات التي تشكَّلت علىٰ مدار قرون فاستقرّت في الوعي الشعبي وتمدّدت في ميدان نشاطه وحركته؛ فلا أقلّ من التأكيد علىٰ أهمية اللغة الفصحىٰ النموذجية التي تُشكِّل الهويّة العربية والإسلامية، وتُوفِّر حبلا متينا يربط ما تبقّىٰ من أشلاء أمّة تناحرت سياسيا

(1) لعلّ بعضنا نما إلى علمه هذا الجيش العرمرم من اللغات المحلية التي تزخر بها الهند وتُعدّ بالمئات (461)، فضلا عن دول أخرى عديدة كجنوب إفريقيا التي يرطن سكانها بثلاث عشرة لغة محلية.

وتغايرت اقتصاديا واجتماعيا. مع لفْت الانتباه إلىٰ ما يجرّه هذا الانشطار[1] اللغوي القائم مِن خلَل علىٰ صعيد المعرفة والإدراك ، ذلك الانشطار المتمثِّل في لغةٍ سوقيّة للخطاب العادي والحياة اليومية، وأخرىٰ فصيحة للكتابة والتأليف والدراسة، وثالثة هجينة يتشدّق بها الإعلام المرئيّ والمسموع. مع التحذير مِن أنّ التساهل في استخدام اللهجة، والتوسّع فيه إلىٰ حدِّ جعْلها وعاءَ الفكر والثقافة، ولسان النخبة ووسائل الإعلام، وحرف الكُتب والدوريّات؛ هو بمثابة حرب فاجرة علىٰ الفصحىٰ، وانتحار جماعي للهويّة، وخلْقٌ لفجوة اغترابية بين ماضٍ عريق وحاضر عقيم.

وهذا ما نبّه إليه صاحب نوبل (نجيب محفوظ) حين وصف العامية بأنها آفة مدمّرة لا تقلّ عن آفات الفقر والجهل والمرض، وقال عنها صاحب الأيّام: **"إنني أمقت العاميّة ولا أحبّها، ولا أقرأ كتابا يتضمّن**

---

(1) جاء في تقرير لإحدى الجامعات المصرية ما نصّه: **"يتميّز التدريس بالعربية للطالب العربي بأنّ نقل الأفكار يتمّ بطريقة مباشرة سلسة دون حاجة لترجمة داخلية تعوق التلقّي المباشر، واللغة الأمّ تلقي بظلالها على المعاني فتكسبها ثراء واتّساعا وتلخّصها بنفس المتلقّي وذوقه فتترك لديه أثرا باقيا، وقد لاحظنا أنّ اللغة التلقائية تجعل الطالب أكثر ثقة بما يقول وأكثر تعبيرا عن مشكلاته وجرأة على المناقشة والحوار"**.

ألفاظا عاميّة، بل إنّني لا أحبّ الكتّاب الذين يكتبون بها". وربّما هذا ما دعا الثورة الفرنسية إلىٰ إعلان حرب مقدّسة علىٰ اللهجات المحلّية، فوصمتْها بأنها رواسبُ لعهود الإقطاع وذيولٌ للاستبداد، وطالبَت بلزوم غرْز الفرنسية الفصحىٰ الجامعة.

وضمن هذا السياق الذي تتطاول فيها العامية علىٰ الفصحىٰ وتزاحمها مزاحمة الدخيل للأصيل؛ روَىٰ صاحبُ كتاب (مِن أعلام العصر)، أنّ أستاذ الحضارة الإسلامية بجامعة بودابست المجرية (عبد الكريم جرمانوس)، تعلّم اللغة العربية من بطون القواميس، وأسلم في الهند، ثمّ خطر له أن يمثُل بين يدي الأزهر ليتلقّىٰ علوم اللغة والشريعة، ولكنه حين وصل إلىٰ ميناء الإسكندريّة وقدّم جواز سفره متحدِّثا بفصحىٰ أصيلة تَعلَّمها ودرسها، تضاحك الحاضرون وعجبوا، ثمّ ردّوا عليه بعاميّة لا يفهمها، وعندها ضرب كفّا بكفّ، **وقال:**

"لقد خفتُ أن أتحدَّث بغير العربية فأكون أضحوكة في مصر، فلمّا تحدثتُ بها صرت أضحوكة!".

(7) جُونو.. وما أدراك ما جُونو!

بعدد أسباب الموت تتعدّد الخطوب والأحداث التي تلدها الأيام والليالي. ومع أنّ أغلب هذه الأحداث يمرّ مرّ السحاب ولا يبقىٰ منها سوىٰ العنوان، إلّا أنّ بعضها يحفر في الذاكرة بعمق؛ حتىٰ لَيترك أثرًا لا يَزول وعلامةً لا تُمحىٰ، خاصة تلك الأحداث الغريبة العجيبة التي تندهش لها الذاكرة اندهاشة طفلٍ أمام مروحةٍ تدور أو طائرةٍ تقلع. وتلك الأحداث الرهيبة التي تزرع الشّيب في الرؤوس والخفقان في القلوب، وتلتفّ من هولها الساق بالساق، ويظلّ صوتها زاعقا في الأعماق. وتلك الأحداث الحزينة التي ننتحب فيها بصمت فتتعذّر الدموع وتتقرّح الجفون؛ علىٰ اعتبار أنّ للفرح ذاكرة السمك التي لا تلبث أن تتبخّر، بينما للحزن ذاكرة الكُتب التي تقفز فوق حواجز الزمان والمكان.

ومن بين تلك الأحداث التي علقت بالذاكرة وتجلّت في سمائها مشاعر الهلع بأحْلك صوره؛ حادثة إعصار جونو الذي عشْته بكياني في

يونيو عام 2007م. وفيه تعرّضَت السواحل العمانية المفتوحة علىٰ البحر والمحيط لأنواءٍ مناخية استثنائية، اشتدّت فيها الريح بعنف، وتسبّبَت في عواصف رعديّة مصحوبة بأمطار غزيرة، تطوّرت لاحقا إلىٰ إعصار وصل إلىٰ درجته القصوىٰ وهي الدرجة الخامسة حيث بلغت سرعة الريح في مركز الإعصار 260كم/ ساعة. وهو ما هيّج الموج حتىٰ بلغ ارتفاعه عند الشاطئ اثنا عشر مترا، فاجتاح المناطق الساحلية، وكنس في طريقه البشَر والحجَر والشجَر، مخلِّفا وراءه خسارة مادية تخطّت الأربعة مليارات ريال عماني، أي ما يوازي نحو ستة عشر مليار دولار أمريكي، إضافة إلىٰ بضع وسبعين حالة وفاة، وهو ما قد يراه بعضنا عددا ضئيلا إذا ما قُورن بكوارث أخرىٰ، كانفجار مصنع الكيماويات في مدينة بوبال الهندية، والذي حدث عام 1984م، وأَودىٰ بحياة حوالي ستة عشر ألف شخص، وشُبِّه بكارثة هيروشيما النووية فعُرف بهيروشيما الصناعات الكيماوية.. ولكنّنا إذا قارنّا عدد السكان في السلطنة والذي يجرّ قدميه بتثاقل نحو رقم الخمسة ملايين لا غير، بعدد سكان الهند الذي تجاوز المليار وربع المليار نسمة، لَأدركنا أنّ البضع وسبعين وفاة هو عدد ضخم لا يُستهان

به. مع العلم أنّ إزهاق روح واحدة هنا أو هناك، وبصرف النظر عن الكثافة السكانية، هو فجيعة ومأساة.

وكشاهد عيان، رأيتُ كيف فُتحت أبواب السماء بماء منهمر، وأضاءت مُبرِقةً مُرعِدة، وتحوّلَت نسمات الهواء لمارد عاتٍ يطيح أرضا بلوحات الإعلانات وأسقف البيوت، ويقتلع الأشجار مِن الجذور، نعم من جذورها، ولازلتُ أحتفظ في جوّالي بصورةِ شجرةٍ عتيقة اجتُثّت من فوق الأرض مالها من قرار! كما تبدّلَت الشوارع إلي أنهار يتقاذف موْجُها السياراتِ كلعب الأطفال، وتسبح فيها القواربُ كوسيلةٍ وحيدةٍ للإنقاذ، بعدما انهارت الجسور وتآكلَت الأرصفة وتقطّعت الاتصالات.. إذْ قُطعت الكهرباء، وخَرست الجوّالات، وقُبرت شبكة الإنترنت، ورَبضت الطائرات كسيحةً في المطارات. وعندها تمّ إجلاء المناطق الشاطئيّة، وإيواء سكانها في فصول المدارس، وتَنادىٰ الجميع للغطاء والطعام والدواء.. وهو مشهد حشْر بامتياز لا ينقصه سوىٰ انطفاء النجوم، وتَكوُّر الشمس، ونفْخة الصور، وقول علاّم الغيوب: ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾[1]!

(1) الأعراف 29.

قد يُعرّف الجغرافيّون الإعصار بأنه عاصفة هوائية عنيفة، ويفسّره العلمانيّون بأنه غضب الطبيعة! ويصفه الإعلاميّون بأنه حدَث الألفيّة، ويراه الاقتصاديون خرابا يهوِي بالأسهم والسنَدات، ويقرأه بعض الدعاة علىٰ أنه انتقامٌ لشيوع المعاصي وانتشار الآثام. ولكن الحقيقة أنه كغيره من النوازل الكبرىٰ مثل الفيضانات والزلازل والبراكين والأوبئة، فيه من العِبر والعظات ما يجب النظر إليها بعين العقل والقلب.. فأجمل العظات يتلقّاها السليم حين يمرض، والقويّ وقتما يَضعف، والشاب عندما يشيخ، والحيّ ريثما يقف علىٰ شفا الموت.. والعاقل منهم مَن وعَىٰ لا مَن رأىٰ، والنّاجي بينهم هو مَن أتىٰ الله يوم الدِّين بقلبٍ سليم.

وبهذا لم يكن (جونو) غير جند من جنود الله، يدلّل به سبحانه علىٰ عظمته وقدرته، عظمة كمالٍ لا تُوصف وقدرة طلاقةٍ لا تُحدّ؛ ليرتدع الظالم ويتواضع المتكبّر ويرْعوي المتجبّر ويؤوب العاصي ويؤمن الملحد. وبه يزداد المؤمنون إيمانا والأتقياء تُقىٰ؛ فيبيتون سجّدا وقياما، ويخرّون للأذقان يبكون، متبرِّئين بذلك من حوْلهم وقوّتهم، ومفوِّضين أمرهم إلىٰ مَن بيده مقاليد السموات والأرض، تماما كتلميذٍ مذنب ألصق وجهَه في الحائط ورفع يديه الىٰ السماء.

وفي هذا روى البخاري ومسلم في صحيحيْهما من حديث عبد الله بن مسعود قال: "جاء حبرٌ من الأحبار إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال: يا محمّد، إنّا نجد أنّ الله يجعل السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع، فيقول: أنا الملك. فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه تصديقا لقول الحبر، ثمّ قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٧ ﴾ (1).

ورغم ما صحبه من دمار وخلّفه من خسائر، إلّا أنه ظلّ -كغيره- في حدود الابتلاء الذي يُظهر معادن البشر ويصقلها، ولم يصل إلىٰ مرحلة الاستئصال التي يُهلِك فيها الحرثَ والنسل ويَحرق الأخضر واليابس ويوزّع الموت بكرمٍ حاتمي لِيَذَر أممًا بكاملها قاعًا صفصفا، خاصة مع

(1) الزمر 67.

انقضاء سنّة الإهلاك الجماعي بقدوم خاتم الرسل صلّىٰ الله عليه وسلم؛ فلا مجال لطوفانٍ كطوفان قوم نوح، أو ريحٍ كريح قوم عاد، أو صيْحةٍ كصيحة قوم ثمود، أو خسْفٍ كخسف أصحاب المؤتفكات، أو نارٍ كنار أهل مدْين.

وكما دلّل علىٰ طلاقة القدرة الإلهية، فقد كشف لمَن عايشوه ضعفَ هذا الإنسان الذي يصول ويجول في الأرض برًّا وبحرًا وجوّا؛ إذْ أذكر كيف خفّ ضجيج الناس ولفّتْهم حالة من الصمت، وكيف وهنَت أصواتُهم كأنّ بحّةً أصابت حناجرهم أو يبوسةً حلّت بحلوقهم، وكيف شحبت وجوههُم بعدما غاض الدم من عروقهم وبدوا وكأنهم أنصاف أحياء يُساقون إلىٰ الموت وهم ينظرون. كما شُغل الناس أثناءه بالجليل دون الدقيق، وبالعظيم دون الحقير؛ فنسوا الصداع والزكام والمغص والسعال، وخذلتْهم أقدامُهم في التردّد علىٰ العيادات وابتلاع أطنان الدواء. وكأنّي بهم قد أفاقوا من سباتهم، فثابوا إلىٰ رشدهم، ووعُوا فكرة هوان الدنيا وعدم أحقّيتها لكلّ هذا العراك الذي يخوضونه بشراسة الأسود وضراوة النمور، عقب رؤيتهم بأمّ أعينهم كيف أنّ ساعةً من ليل أو نهار يثور فيها بركان أو يحيق بها زلزال أو يعصف بها إعصار، كافيةٌ ليصبح كلّ ما لديهم وقودًا لنار أو زَبَدًا لسيل أو طعامًا لتراب!

وبالمناسبة فإنّ هذا الضعف البشري جِبلِّيّ لا يد للإنسان فيه بناءً علىٰ قول الحقّ جلّ وعلا ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ٢٨﴾[1]، فيرتسم بوضوح في أصل الخلْقة من ماء مهين، وفي انتهائها إلىٰ فتات من عظام وسط ذرات التراب، إضافة إلىٰ ما هو جليّ من ضعف البنْية والقوّة والإرادة والصبر والعِلم والعاطفة، وهو بهذا الوصف لا يعيب الإنسان أو يشينه؛ ولكن العيب يكمن في نسيان هذا الضعف أو التناقض معه عند الزجّ بأنفسنا في دهاليز الغيب ومجاهيله، دون أن نملك للأمر نقيرا ولا قطميرا. وينشأ الشّيْن عند وضع هذا الضعف في إطاره ونسقه الخاطئ، بعيدًا عن ثنائية العبد والربّ، تلك الثنائية التي تقوِّي ضعفنا، وتجبر كسرنا، وتضع في أيدينا مصابيح النور ومفاتيح الكنوز ومقاليد العروج إلىٰ الملكوت. وهو ما أشار إليه المفكّر عبد الكريم بكّار بقوله: "علىٰ الإنسان بما هو عليه من حالة الضعف والعجز والقصور، أن يطامن من نفسه، ويخضع لقيّوم السموات والأرض خضوع العارف بضِعته المُدرك لعظمة خالقه، متّخِذًا من ذلك بابا للأوْبة والتوْبة الدائمة".

وهنا يبرز السؤال.. هل تكمن النجاة في المباني المقاوِمة للزلازل، والمراكز المُعَدّة للإيواء، والمخازن المترَعة باحتياطيات الوقود والغذاء

(1) النساء 28.

والدواء، والخطط المحكَمة للتدخّل السريع والإنقاذ؟ أمْ في العيش بذهنية الممتحَن التي تجعلنا في أتمّ اليقظة والجهوزية، وكأنّ وراء كلّ حدث يمرّ بنا سؤال، وخلف كلّ نمأة كونية نطوف بها تمرين واختبار، وعلينا أن نجتهد علىٰ الدوام في تقديم الإجابات الصحيحة دون غفلة أو لهو؟ أمْ في الحياة بعقلية المسافر الذي يضع في متناول يده راحلته وزاده ومتاعه، حتىٰ إذا ما دقّت ساعة الرحيل، كان بالباب واقفا وللسفر ملبِّيا ومهلِّلا؟ والحقّ أنّ كلّ هذا مطلوب، ولا يُستعاض بأحده عن الآخَر؛ مع التأكيد علىٰ أنّه ليس كالإيمان زاد، وليس كالتقوىٰ راحلة، وليس كالعمل الصالح متاع .. ولله درّ القائل:

إذا كنـــتَ في نعمـــةٍ فارْعهـــا فـــإنّ المعاصـــي تُزيـــل الـــنِّعَم

وحُطْهـــا بطاعـــةِ ربّ العبـــاد فـــربُّ العبـــاد ســـريعُ الـــنِّقم

(8) الدخول في الممنوع

بقدر أسفي علىٰ ما رواه لي أحدُهم، بخصوص معركة ضارية كادت تنشب بينه وبن أحد الركّاب علىٰ إثر التدافع لركوب وسيلة مواصلات عامة، معلِّلا ذلك **بقوله:** إذا تنمَّر لك أحدُهم فاستأسِد له، ومَن انتظر القانون بات جوعانا وعريانا.. فقد سعدتُ أيّما سعادة في ربوع إحدىٰ الدول العربية؛ إذْ شاهدتُ ذات يوم ولدىٰ عودتي من عملي، سيارتيْن علىٰ جانب الطريق صدمَت إحداهما الأخرىٰ من الخلف ونالهما من التلف ما نالهما، وبعد أن اطمأنّ السائقان والركّاب علىٰ سلامتهم، اتصلوا بشرطة المرور، وشرعوا في حديث ودّي انتظارا للقانون الذي يحدِّد المخطئ مِن المصيب ويفصل في كيفية إصلاح ما فسد في السيارتين، هذا دون أن يزعق صوت أو يتهاتر لسان أو تَلوح في الهواء قبضة يد ورفسة قدم.

وهنا تتّضح الفائدة الجمّة والحاجة الماسّة إلىٰ دولة للقانون يُطلَق عليها أيضا دولة العقل ودولة الحقوق، تلك الدولة التي تنضوي تحت مظلّة دستور يفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية؛ بما يمنع تضاربهم وتناحرهم، ويضمن سلاسة أدائهم وكفاءة دورهم. ودولة القانون هذه يسير قطارها علىٰ قضبان ثابتة واضحة نسمّيها قوانين، تحكم العلاقة بين السلطة والشعب، وتضبط الإيقاع بين الناس بعضهم ببعض، وترتكز علىٰ مبدأ المساواة والعدل، وترعىٰ الحقوق وتكفل الحريات، وتقنّن الواجبات وتضبط حركة المجتمع. ومن هذا المنطلق جاء تعريف القانون بأنه: منظومة من القواعد والمبادئ الموضوعة من قِبل سلطة ما؛ للحفاظ علىٰ النظام والسلام، وإقامة العدل في المجتمعات.

ومع أنّ مفهوم الدولة يُعدّ من أعظم تجلّيات العقل الحديث، إلّا أنه يبقىٰ حبرا علىٰ ورق إذا لم يُؤطَّر بقانون يكسر جليد استبداد السلطة، ويعصمها من أن تتحوّل إلىٰ سلطة قمعية تَسير حسب أهواء الحكّام وإرادتهم، فالطغيان –كما قال وليام بت– يبدأ حيث ينتهي القانون، والحياة في غابة –كما قال خالص جلبي– أفضل من الحياة في مجتمع بدون قانون. علاوة علىٰ أنّ الأفراد في ظلّ قانونٍ حاضر وعادل وناجز، تهدأ ثورتهم وتطمئنّ نفوسهم ويعمّ السلامُ والوئامُ أرجاءَهم؛ إذْ يوقنون

أنّ الحقوق تسير إلىٰ أصحابها سير الماء في النهر والهواء في الأفق، ولا يرون حاجة إلىٰ انتزاعها بقوّة يد يبطش فيها القويّ بالضعيف، أو بسطوة جاه يهتك عِرض القوانين والدساتير، أو برشوة مال يُلين الحديد ويفعل بالعقول ما لا تفعله الخمور.

والواقع أنّ روح القانون هي مربط الفرس المعوّل عليها في التطبيق والممارسة، لأنها تنظر إلىٰ القانون نظرة إنسانية تُقدِّر الظروف والملابسات قبل أن تَهوي بنصوصه الجافة الجامدة علىٰ رؤوس المخالِفين، مُوقنة أنّ فلسفة القانون هي التنظيم لا الإيذاء والاحترام لا الانتقام والتنبيه لا التكدير، ومُدركة أنّ الرحمة جوهر القانون ولا يَستخدم القانونَ بقسوة سوىٰ الطغاة.. وذلك علىٰ حدّ تعبير وليم شكسبير.

وفي هذا أذكر أنّ المخالفة المرورية الوحيدة التي حُرِّرت لي حتىٰ الآن بعد قرابة العقديْن أمام مقود السيّارة؛ كانت نتاج تطبيق القانون لا روحه، وذلك حين أمّن الشرطي علىٰ ما سردْته له من حلول الليل وعدم رؤيتي لیافطة ممنوع الدخول، فضلا عن عدم معرفتي الدقيقة بالمكان، ثمّ أصرّ علىٰ تطبيق نصّ القانون الجامد وتحرير المخالفة الجائرة ولسان حاله يقول: القانون لا يعذر الجاهلين ولا يحمي المغفّلين. والعجيب أنّ كثرة

المخالفات التي يحرِّرها الشرطي تُعدّ في بعض الأنظمة دليلا علىٰ همّته ونشاطه، ومسوِّغا لترقيته وظيفيا وتحفيزه ماديّا! مع أنّ كثرة المخالفات القانونية أيّا كان نوعها، تدلّ علىٰ انخفاض منسوب ثقافة احترام القانون، وتلك -بلا شك- آفة مجتمعية تُدين جموع المربِّين والمشرِّعين والإعلاميِّين ورجال الشرطة كذلك.

ولكي يسمو القانون ويتحوّل إلىٰ كائن حيّ له روح، لا بد أن يستنهض رقابة الضمير، ويتغيّا أهدافا تربوية أخلاقية، ويطالع الإنسان من منظور بشري لا ملائكي، وتتوثّق صلته بالتشريع الإلهي الذي يلخِّصه التنزيل الحكيم بقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [1]؛ فيلتمس الأعذار، ويعترف بالأخطاء، ويقرّ النسيان، ويحمي حتىٰ المغفّلين. وفي الوقت ذاته لا يصبح ليّنا مائعا كالماء، وهشّا ضعيفا كخيوط العنكبوت، ورخْوا مطاطا كأحزمة السراويل. فكما يقول المثل الأمريكي: **"القوانين الليّنة لا تُتَّبع والقوانين القاسية لا تُطبَّق"**. ولنا هنا أن ندرك البوْن الشاسع بين الالتزام بالقانون الذي قد يفتقر إلىٰ القناعة الداخلية به وينبع من خوف العقوبة وطلب السلامة ليس إلّا، وبين احترام

(1) البقرة 185.

القانون الذي لا يقتصر علىٰ التزام بنوده، بل يتخطّاه إلىٰ الوعي التام به حتىٰ لَيصبح ثقافة عامة ومنهج حياة، ثمّ تَبنِّيه وحراسته والدعوة إليه.. وهو البوْن ذاته بين نصّ القانون وروحه.

ورغم أنّ روح القانون كمصطلح يعود إلىٰ الفيلسوف الفرنسي مونتسكيو في منتصف القرن الثامن عشر (1748) عبر كتابه (روح القوانين) الذي اعتُبر إنجيلا للثورة الفرنسية؛ إلّا أنه مسبوق كمعنىٰ بما يُعرف بمقاصد الشريعة، ومطبَّق كوقائع ثابتة تتلألأ بين سطور تاريخنا الإسلامي الوضّاء؛ كواقعة المرأة التي زنَت وحملَت سفاحا، ثمّ أتت النبي صلىٰ الله عليه وسلم ليقيم عليها حدّ الرجم المقرّر شرعا، ولكنه استمهلها تسعة أشهر حتىٰ وضعَت جنينها، ثمّ استمهلها عامَيْن كامليْن حتىٰ أرضعَت وليدها وفطمتْه، قبل أن يقيم عليها حدًّا قَدِمت إليه راغبة وأَلحّت مرارا وتكرارا في تنفيذه. وكذلك واقعة حدّ السرقة حين علّقه سيدنا عمر بن الخطاب في عام الرّمادة، وقتما حلّ القحط والجدب بالمدينة في العام الثامن عشر للهجرة.

ويبقىٰ الحديث عن القانون وروحه مَنوطًا بمناخ من الحريّة والديمقراطيّة تُخوّل الأفراد حقّ المشاركة في صياغة القوانين وإبداء الرأي حيال صلاحيتها للتطبيق من عدمه، لِما في ذلك من غرْسٍ للانتماء

وتعميقٍ للولاء وترسيخٍ للمسئولية الكاملة تجاهها والالتحام معها ذهنيّا ونفسيّا، وذلك علىٰ طريقة كونفوشيوس في قوله:

"قل لي وسوف أنسى،
أَرِني ولعلي أتذكر،
أشرِكْني وسوف أفهم
وأحفظ وأنفّذ"..

ولعلّ في ذلك تفسيرا معقولا لظاهرة احترام القانون في دول متقدّمة تُزهر فيها بساتين الحرية والديمقراطية، ولظاهرة التحايل عليه والتلاعب به في دول نامية تذبل فيها شجرة الحرّية وترقد علىٰ ثراها جثّة الديمقراطية. ولأنّ الحريّة للقانون كالسقف، والقانون للحريّة كالسياج؛ فلا مناص من ملازَمة الحرية للقانون ملازَمة الماء للبحر والظلّ للشجر؛ لأنّ نثر بذور الحرية في تربة لا قانون فيها، لا شكّ تنبت أشجارا من فوضىٰ وأعشابا من لهو وعبث، إذْ يحتكم الناسُ ساعتها إلىٰ أعرافهم وتقاليدهم وعاداتهم المتفاوِتة من فرد إلىٰ فرد ومن مجتمع إلىٰ مجتمع،

فتتحلّل عُرىٰ الدولة وتتفكّك أواصرها وتعود القهقري إلىٰ مجتمعٍ قبَلي بدائي.

(9) من وحْي الواتساب

عاتبني أحدُ الزملاء لأني لا أردّ علىٰ ما يُدعىٰ رسائل الجُمعة، تلك الرسائل المنسوخة التي يَعتقد بعضنا أنه يجني من ورائها جبالا من الحسنات، فيواظب علىٰ إرسالها أكثر من مواظبته علىٰ فجْر الجمعة وغُسْلها وكَهْفها. ومع أنّي لا أتجاوب مع هكذا رسائل ليست شخصية ولا تنتظر الجواب أصلا؛ إلّا أنّي بالفعل لم يصلني منه رسائل، وهذا أتذكّره جيّدا لأنّ ما أُرسله وأَستقبله في حكم النادر ويصعب عليّ نسيانه. ولمّا بدا له أن يؤكّد كلامَه، أخرج هاتفَه، وبعفويّة شرعه علىٰ برنامج الواتساب، وإذْ بالرقم (216) يتصدّر واجهة الأيقونة الخضراء، بمعنىٰ أنه وصله هذا العدد من الرسائل ولم يطّلع عليها رغم وصولها، وبالطبع بعضها وصل قبل أيام وربّما أسابيع، بما يعني أنه يأمر بالبرّ بينما هو غارق في الإثم! ولمّا لم يجد ما يعضّد لومه وعتابه، تَعلّل بأنّ ذاكرتَه ارتبكَت من كثرة ما يُرسِل وتشوّشت من فيْض ما يستقبِل، ولكنه –بعفوية أيضا– فضّ

الرسائل المعلَّقة، وإذْ ببعضها رسائل شخصية تنتظر الجواب ولا مجيب، وتنادي عليه ولا مصيخ!

والواقع أنّ زميلي الفاضل ليس استثناءً في مسْلكه، بل الملاحَظ أنّه مع شيوع استخدام برامج المراسلة الفورية، وخاصة الكوكب الأخضر المسمّىٰ واتساب، واستعانة الكثيرين به حدّ الاستغناء عن المكالمات الهاتفية؛ ينتهج البعض حيال رسائله سياسة عدم الردّ، ظنًّا منه أنّ افتراضيّة عالَم التواصل وحواجزها غير المرئيّة تُخلي عن كاهله المسؤولية الأخلاقية، ومتكِّئا علىٰ أنّ في الأعذار التي لا تنتهي متَّسَعا يتهرّب به من واجب الردّ، مع أنّه لا أسوأ من الردّ السيء سوىٰ عدم الردّ. ولا مقارنة هنا بين الصمت في عالم الواقع وعدم الردّ في العالم الافتراضي، فالصمت ردٌّ ناب فيه عن اللسان نظرةُ العين وتعبيراتُ الوجه وإيماءةُ الرأس وغيرها من لغات الجسد البليغة، وأين هذا كلّه من عالَم نتواصل فيه من وراء حجاب نسمّيه شاشة، وعبر رسائل يُعتبَر فيها الردّ ربع ردّ، نظرا لغياب لغة حميمة للجسد تُثري الجواب وتُتمّمه..واقْرأ في ذلك ما قاله خبراء الاتصال من أنّ الكلمة المجرّدة لا تحقّق اتصالا حقيقيا إلّا بنسبة 10٪، وإذا أُضيف إليها الصوت ارتفعَت نسبة الاتصال إلىٰ 40٪،

بينما تتكفّل لغة الجسد بالستّين بالمئة الباقية، وهذا ما لا يتحقّق إلّا بالوجود الفيزيائي وجهًا لوجه ويدًا بيد.

تَخيَّل نفسكَ ترسل رسالةً تسأل فيها عن طارئ أو تستفسر عن موعد أو تطلب خدمة أو ما شابه، ولا تظفر بالردّ إيجابًا كان أو سلبا؛ لا شكّ أنّ الهواجس ستقفز إليك قفْز القرود وتلعب برأسك لعب الرِّيح بالغصون، وسيتداعىٰ إليها أفكار من قَبِيل عدم الاكتراث وقلّة التوقير واللامبالاة والكِبر، خاصة أنّ التكنولوجيا مشكورة قد احترمَت المرسِل وحرصت علىٰ وضعه في الصورة كاملة، فتخبره عبر إشارات لونية مميَّزة بوصول الرسالة من عدمه وبقراءتها أم لا، وكأنها تقيم الحجّة علينا وتلوّح بالمثَل القائل: **"المرعَىٰ أخضر ولكن العنزةَ مريضة"**. ولا مجال هنا للتعلُّل بالنسيان أو الانشغال، خاصة عندما يتكرّر الأمر ويصبح أسلوب حياة، حتىٰ يظنّ بعضهم أنّ عدم الردّ ردّ! مع العلم أنّ الردّ لا يستغرق سوىٰ جزء من الدقيقة، والانتباه إلىٰ أنّ مرسِل الرسالة أيضا مشغول ومن الذوق الحفاظ علىٰ وقته المقتطَع في الانتظار، واحترام ذهنه المشغول بتوقّع الردّ. أكثر من ذلك؛ فإن الردّ المتكاسل المتأخّر يُفقد الجواب قيمته حتىٰ ليصبح كرأي دبير لا يغني ولا يسمن من جوع؛ هذا لأنّ حرارة مشاعر

الرسالة قد بردت، ودفء المحادثة قد ولّىٰ، وعذابات الترقّب قد أودت بكلّ فضائل الجواب.

وفي هذا أذكر أحد المؤلّفين الفضلاء، اتفق مع دارٍ للنشر علىٰ طبع بعض المؤلَّفات علىٰ نفقته الخاصة، وبالفعل كانت الدار رساليّةً ونبيلة حين قدّرت التكاليف بسعر معقول جدّا مقارنةً بما تلقَّاه من عروض دور نشْر أخرىٰ رأسماليّة. وبعد الطباعة، إذْ به يتحوّل إلىٰ دار نشرٍ أخرىٰ، والسبب كما ذكره لي، أنهم لا إبالليين بخصوص رسائل للواتساب يرسلها لهم مرارا، وهو ما اعتبره إهانة وانتقاصا من كرامته. وعندها تذكّرتُ بعض مراسلاتي مع دار نشر أجنبية، وكيف أنه بوصول المخطوطة إليهم يجيبوك علىٰ الفور بالوصول، ويعبّرون عن امتنانهم بالتواصل، ويعدوك بالردّ في موعد محدّد، بل ويؤكّدون من آنٍ لآخر أنّ مخطوطتك قيد القراءة والتقييم، وأنهم علىٰ الموعد لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون.

ولعلّ بعضنا قرأ قصة (وفاة موظف) لرائد القصة القصيرة أنطون تشيكوف، وكيف أنّ هذا الموظف بعدما عطس فبلّل قفا رئيسه في العمل دون قصد، تمزّقَت أحشاؤه وانفجَرت شراينه ومات كمدا، لا لشيء إلّا لأنه لم يجد ردّا مناسبا يحترم اعتذارا بالغ في تقديمه بأكثر من أسلوب وفي أكثر من مناسبة.

مِن هنا ندرك أنّ وسائل العيش قد تتطوّر ولكن الآداب تبقىٰ هي الآداب؛ فتكنولوجيا التواصل الحديثة بشتّىٰ صورها أبعد من أزرارٍ نكبسها وشاشاتٍ نلمسها، بل لها في رقابنا آدابا وحقوقا وجب استيفاؤها لتؤدّي دورها المَنوط بها علىٰ الوجه الأمثل والأكمل، خاصة بعدما صارت امتدادًا طبيعيا للواقع وجزءًا لا يتجزّأ من نظام الحياة شئنا أم أبينا. وما أَشبه هذه الآداب بآداب التحيّة في المجالس، والاستئذان في البيوت، واحترام الكبير، وحفظ الأعراض، والترفّع عن الغيبة، والبعد عن النميمة، وصون الأمانات.

ولا مجال هنا لتأويل الحقوق والواجبات علىٰ أنها من جنس القيود التي تصادر حرّيتنا وتلغي استقلاليتنا، فالواجبات كالإطار الذي يجمّل اللوحة، والسُّور يصون البستان، والجرَس ينبّهنا إلىٰ أنّنا ننتمي إلىٰ العالَم من حولنا. مع التأكيد علىٰ إفساح الصدر لأعذار قاهرة قد تطرأ علىٰ بني البشر، ولكن ليس إلىٰ حدّ ترك الحبل علىٰ الغارب والمتاجرة بمقولة شائعة يعدّها بعضنا حديثا شريفا، بينما هي مقولة نُسبت إلىٰ جعفر بن محمد، ونُسبت أيضا إلىٰ ابن سيرين، وتقول:

"إذا بلغك عن أخيك الشيء تنكره، فالتمِس له عذرا واحدا إلى سبعين عذرا، فإن أصبْته، وإلّا، قل: لعلّ له عذرا لا أعرفه".

ولكي تكتمل الصورة، علينا مراعاة الأوقات التي ندقّ فيها باب غيْرنا برسائلنا، إذ إنّ حساب الشخص كبيْته لا يصحّ أن نقتحمه بلا ضرورة وفي كلّ حين. كما يتوجّب الوعي بأنّ الواتساب وغيره ليس شارعا عاما نلقي فيه ما يحلو لنا، ولا سبّورة نلصق فيها ما يعنّ لنا، فقليلٌ يُفيد ويُثري خيرٌ من كثير يشتّت ويُلهي، وخير الكلام –كما هو شائع ومعروف– ما قلّ ودلّ. فلا يُعقَل أن تُصبّح صديقا برسالة ترويجيّة وتُمسّيه برسالة إعلانيّة، ثمّ تُضجره فيما بينهما بموعظةٍ جليلة ومقطعٍ ضاحك وصورةٍ طريفة، وكأنّ المستقبِل فارغٌ من دنياه مستلْقٍ علىٰ قفاه لا همّ له إلّا استقبال رسائلك والتعليق عليها. ولعلّنا بهذا نهبط بطوفان الرسائل التي تجتاح هذه الوسائل إلىٰ النصف، فننقذ الوقت، ونتيح للذهن فاصلا من الصفاء بتْنا في أمسّ الحاجة إليه.

وللوصول إلىٰ هذه الغاية النبيلة، أرىٰ من المفيد أن يسأل المرء نفسه ثلاثة أسئلة قبل أن يضغط علىٰ زرّ الإرسال في هذا الكوكب الأخضر؛ هل هذا الرسالة ضرورية ؟ وهل يمكن اختصارها؟ وهل هذا هو الوقت المناسب لإرسالها؟

يُذكَر أنّ الواتساب، كما ورد في موسوعة ويكيبيديا، تأسَّس في عام 2009م، علىٰ يد اثنين من موظّفي موقع ياهو الشهير، وهما الأمريكي بريان أكتون والأوكراني جان كوم، ومقرّه ولاية كاليفورنيا. وقد استحوذَت عليه شركة الفيس بوك في عام 2014 م، بموجب صفقة مالية بلغت قيمتُها تسعة عشر مليار دولار! وجاء في إحصائية أُجريت عام 2017م تمريره لستة عشر مليون رسالة كل دقيقة، بعد أن بلغ عدد مستخدميه نحو2و1 مليار مستخدم حول العالَم. ومع أنّ فلسفته قامت علىٰ أنه برنامج للتواصل الفوري الشخصي، إلّا أنّ الكثيرين يلوون عنقَه ويضعوه في زمرة وسائل التواصل الاجتماعي كالفيسبوك وتويتر وغيرها، خاصة بعدما تسلّح البرنامج بخدمة المحادثات وإمكانية تبادل الصور والصوتيات والمرئيات.

ومن طرائف للواتساب أكثر من أن تُعدّ؛ أذكر إحدىٰ الزميلات فاتها قطار الزواج، حتىٰ يئس منها كاتب العقود المسمَّىٰ بالمأذون. وذات

مساء وصلَنا منها رسالة تدعو الجميع إلىٰ حفل خطوبتها، ولمّا كان الخبر مباغتا ومبْهجا، رأت بعضُ زميلاتها أنّ الردّ برسالة لا يكفي، فقرّروا تهنئتها علىٰ طريقتهم، وشدّوا الرحال من فورهم إلىٰ بيتها القريب، وما إن شرعَت لهم الباب حتىٰ انطلقَت منهم الزغاريد وسط دهشتها ودهشة أهلها، إذّ تبيَّن أنها عانس علىٰ وضْعها، وأنّ الرسالة المُرسَلة أتتْها من صديقة وقامت بتمريرها دون تدقيق، وسط مجموعة أخرىٰ من الرسائل تقضي بياض نهارها وسواد ليلها في توزيعها عبر الواتساب بالقسطاس علىٰ هذا وذاك!

أمّا أعجب ما رأيت، فجاري في صلاة المغرب، حين رفع يديه بعد ختم الصلاة وشرَع في الدعاء، وما إن أشار هاتفه إلىٰ وصول رسالة واتساب، حتىٰ قطع الدعاء وطالع الرسالة، ثمّ عاود رفْع اليدين ليستكمل دعاءً لم يستغرق سوىٰ ثوان معدودات! ولولا علمي بأنه عامل في مطعم وعاطل عن العمل لشهور، لظننْته مسؤول أمن العالم وينتظر رسالة من الأمريكي (ترامب) ليتباحثوا في مشكلة كشميرية اشتعل أوارها بين الجارتيْن الهند وباكستان.

(10) الدنيا بخيْر

ذات يومٍ ليس ببعيد، زرتُ زميلًا مريضا بالمستشفىٰ، فحكىٰ لي عن بارحته، أنّه وهربًا من أجواء غرفته الباردة الرتيبة، ككلّ غرف المستشفىٰ التي تغرق طيلة الوقت في بحرٍ من الهدوء والوحدة، راح يستشْرف الشارع عبر النافذة ويسرِّح طرْفه فيما وراءها من حركة الحياة الموّارة، فوقع بصرُه علىٰ ثمانية عمّال آسيويين حضروا بعدّة العمل وعتاده باكرًا قبل السادسة، ثمّ وقفوا متأهِّبين علىٰ جانب الطريق ينتظرون مَن يأتيهم مِن أرباب الأعمال ويطلبهم لعملٍ يدويّ مِن قَبيل التحميل أو التنزيل أو الحفْر أو التنظيف وما شابه.

ولمّا كان يومُه خاليًا إلّا مِن بضع دقائق للطعام والشّراب والصلاة، ومثلها لتَلقِّي الدواء علىٰ يدِ ممرّضة خبيرة، وأقلّ منها لمرور الطبيب ومتابعة ما يستجدّ بساحه من أعراض وعلامات؛ فقد وضع هؤلاء العمّال في بؤرة انتباهه، وجعلهم تحت ناظريْه كبرجٍ للمراقبة، يقلّب الطرْف فيهم

غير كالّ، ويتأمّل حركاتهم وسكناتهم غير مالّ. ومع اقتراب قرص الشمس مِن المَغيب، واستعداد النّهار للانهزام أمام الليل بالرحيل؛ لاحظ أنّهم علىٰ مدار الساعة ما برحوا مكانهم تحت لهيب الشمس ووسط الرطوبة الخانقة، بما يعني أنهم قضوا يومهم بطُوله عاطلين عن العمل! فجاشت نفسُه تجاه قلوبهم الكسيرة، ورقّ فؤادُه لجناحهم المَهيض، إذ كيف يعودون بيديْن خاويتيْن وأمعاءٍ أشدّ خواء، وكيف يبوؤون بخيبة أملٍ وقْعها عليهم أنْكىٰ من عضّة الجائع وظمأ الصّادي! ناهيك عن عوائلهم التي تنتظر هناك علىٰ البُعد فائضًا من أموالهم ليبتاعوا حليبًا لرضيع أو كساءً لصبيّة أو دواءً لعجوز أو كفنا لميّت! فما كان منه إلّا أن نزل من غرفته في الدور الرابع للمستشفىٰ، وفي عروقه مغروزة تلك الإبرة البلاستيكية المسمّاة (كانيولا) ويتعاطىٰ فيها الأدوية والمحاليل، ثمّ مثَل بين أيديهم غريبًا لا يعرفهم ولا يعرفونه، وصامتا لا يُحادثهم ولا يحادثونه، وما زاد علىٰ أن وضع في جيب كلٍّ منهم ما يوازي أجر يومٍ كامل، وعاد إلىٰ غرفته كأسعد ما يكون في مُتّكئِه ومَضْجعِه.

والواقع أن هذه الحكاية التي سطرتُها في بضعة سطور، تكنز بين جوانحها من المعاني النبيلة ما يعجز القلم عن الإلمام بها والوقوف علىٰ كامل مدلولاتها. ولعلّ أهم ما تقوله، أنّ الدنيا بخير، حتىٰ في الأوساط

التي نظنّها أبراجا عاجيّة لا ترىٰ وجوه الفقراء البائسة ولا تسمع أنينهم ولا تتكلّم بلسانهم، ببساطة لأنّ هذا الخير الذي يجري في الحياة جريان النهر أو الجدول هو سرّ ديمومتها، وفي اللحظة التي ينضب فيها هذا الخير ستدوّي نفخة الصور معلنة النهاية، وكأنّ إحساس الإنسان بأخيه الإنسان وتعاطفه معه في محنته هي العمُد التي تقوم عليها الحياة، والسقْف الذي يظلّها، والجدران التي تُسيّجها وتَحوطها. لا داعي إذَنْ لتصدير صورة شرِّيرة عن المجتمعات التي نعايشها، بل علينا أن نبعث الأمل ونزرع التفاؤل بتصدير هذه الحكايات الخيّرة وإذاعتها علىٰ أوسع مدىٰ، إيمانا منّا بأنّ إشاعة الخير ينمّيه، بينما إذاعة الشرّ يوقظه من غفْلته ويبعثه من مرْقده.

ومعلومٌ أنّه ما مِن مجتمعٍ كالملائكة، وما مِن مجتمع كالشياطين، بل كلّ المجتمعات تنطوي علىٰ الخيْر والشرّ، والحكيم مَن يضع الخيْر تحت عدسة مكبّرة، ويضع الشرّ تحت عدسة مصغِّرة، فيُسدي بذلك خدمة جليلة لنفسه ولمجتمعه وللإنسانية جمعاء.

الرسالة الثانية التي يمكن أن نقرأها هنا، هي ذلك المثال الحيّ للأرزاق التي تأتينا من حيث لا نحتسب، وللأفراح التي تهبط علينا في لحظة يبلغ الهمّ منتهاه والليل حلْكته، فقط علينا أن نقتدي بالطير فنروح

خماصا، وفقط علينا أن نستعدّ لاستقبال تلك الأرزاق والرحمات، ونؤمن إيمانا جازما راسخا بأن هناك رازق يدبّر لك، ووكيل ينوب عنك، ومطّلع يرقبك في خفاء ويعلم عن حالك مالم تعلمه. وغنيٌّ عن القول أنّ الفرح علىٰ غير موعد تتلقّاه النفس ببهجة غامرة، والرزق علىٰ غير انتظار تتقبّله النفسُ بارتياح مضاعَف.

ولعلّ هنا إشارة لطيفة إلىٰ مصادر خفيّة للشفاء ينساها الكثيرون في حمْأة المرض وفوْرة الألم، وعلىٰ رأسها الصدقة التي تطفئ غضب الربّ، وأمرَنا بها خيْر الأنام صلىٰ الله عليه وسلّم فقال: **"داوُوا مرضاكم بالصدقة"**، فرُبّ دعوة مُعسِر تُيسّر عليه تكون مفتاح شفائك وعقار علاجك، وذلك علىٰ قول شيخ الإسلام بن تيمية الذي قال في الدعاء:

"الدعاء سبب يدفع البلاء، فإذا كان أقوى منه دفعه، وإذا كان سبب البلاء أقوى منه لم يدفعه، ولكن يخفّفه ويُضْعفه".

وبالطبع لا أجمل مِن أن يكون المرء يدَ الله سبحانه التي يَجبر فيها الفقرَ بالغنىٰ والحزنَ بالاطمئنان والخيْبةَ بالتوفيق، وكما قال الإمام سفيان الثوري: **"ما رأيتُ عبادة يتقرّب بها العبد إلىٰ ربّه مثل جبر خاطر أخيه المسلم"**. مع ملاحظة أن أدوات جبر الخاطر تتخطّىٰ الصدقةَ بالمالَ، إلىٰ البسمة والكلمة واللقمة والهديّة أو حتىٰ اللمسة.

والحقّ أنّ الزميل المريض كان يمكنه أن يطالع من نافذته مناظر أخرىٰ عديدة يعجّ بها شارع رئيسي يتوسّطه مركز تسوّق كبير؛ كأنواع السيارات الفاخرة التي تجوبه، والبنايات الشاهقة التي تحوطه، والنّساء الأجنبيات الغاديات الرائحات في دلال وغُنْج، وغيرها من المظاهر الماديّة التي تخلب اللبّ وتشغل الذهن وتحقّق المراد من تغييرٍ يكسر جمود السأم ويهزم رتابة الملل. ولكن لأنّ النحل لا يقع إلّا علىٰ الزهور، والنورس لا يحطّ إلّا علىٰ الماء، فإنه بنفسه الكبيرة وروحه الراقية اختارت هذا المنظر المفعَم بالإنسانية لترتبط به، ولم تكتف بإلقاء نظرة عاجلة عليه، بل كانت متأمّلة كالحكماء ومتدبّرة كأُولي النهىٰ، فاهتدَت إلىٰ ما لا يهتدي إليه أصحابُ الرؤية السطحية التي تكتفي بالقشور دون اللباب ولا توقن بأنّ مَن جدّ وجد ومَن سار علىٰ الدرب وصل.

ألَا كَم مِن فرصٍ للبذل يضعها الله في طريقنا لننال بها الرضا والفلاح ولكننا لا ننتبه إليها! وكَم مِن جسورٍ تسوقها الأقدار تحت أقدامنا لنعبر عليها إلىٰ برّ السعادة ولكننا لا نبصرها! وكم مِن نداءات إلىٰ الخيْر تصكّ أسماعنا ولكننا لا نسمع لها رِكْزا ولا نصيخ لها سمْعا! والمُوفَّق مَن وفّقه اللهُ فانتبَه وأَبصر وسَمع، ثمّ سعىٰ إلىٰ الله مهرولا، فخيرٌ للإنسان أن يكون مثقَّف القلب جاهل العقل مِن أن يكون مثقَّف العقل جاهل القلب.

وحريٌّ بنا أن نتدبّر قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾[1]، ثمّ نقرأ ما قاله مجاهد[2] رحمه الله مِن أنّ لكل إنسان أربع أعين؛ عينان في رأسه لدنياه، وعينان في قلبه لآخرته، فإن عمِيَت عينا رأسه وأبصرَت عينا قلبه لم يضرّه عماه شيئا، وإن أبصرَت عينا رأسه وعميَت عينا قلبه لم ينفعه نظرُه شيئا.

(1) الحجّ 46.

(2) هو مجاهد بن جبير (642-722م)، تلميذ لابن عباس، وشيخ لابن كثير وعمرو بن علاء البصري. ويُعد إماما ذا باع في الفقه والتفسير والحديث والقراءات، حتى قال عنه الإمام الثوري: خذوا التفسير عن أربعة؛ مجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والضّحاك.

الدفتر الرابع

(المسجد)

(1) مدرسة المشاغبين في المسجد الحرام!

مَنّ الله عليّ بالحجّ مرتيْن؛ مرّة بتدبير وتخطيط أثناء عملي ببلد الحرميْن في الألفيّة الثانية، ومرّة أَتتْني بها الأقدار الكريمة مِن حيث لا أحتسب إبّان عملي بسلطنة عمان الحبيبة في الألفيّة الثالثة، وأذكر في إحداها أنّني عقب طواف الإفاضة، وفي فترة ما بين الظهر والعصر، أويْتُ إلىٰ أحد أعمدة المسجد الحرام، فأسندتُ إليه ظهري وغفوْت، وإذ بأحدهم يُوقظني في عجلة كمَن لدغه حنَش، ثمّ يستفسر عن اسم الممثّل القصير الشهير في مسرحية مدرسة المشاغبين! فعجبتُ لسؤاله وتأفّفتُ من صنيعه **قائلا:**

أَفي هذا المكان تسأل هكذا سؤال؟! فتَعلَّل بأنه رأى هذا الممثل للتوّ وسط الحجيج وعنَّ له أن يتذكّره.

ولمّا كانت العودة إلىٰ الغفوة عسيرة بعد أن قطع حبلَها صاحبُنا قطْع الأطبّاء للحبل السُّرّي، قلتُ أتوضّأ وأتجهّز لصلاة عصرٍ اقترب أوانها، وفي طريقي لأماكن الوضوء الأنيقة داخل الحرم علىٰ مقربة من الكعبة المشرَّفة، لمحتُ الممثّل قيْد السؤال يسير أمامي مرتديا ملابس الإحرام ومتعلِّقا بذراع مرافقٍ يفوقه في الطول ضعفا أو ضعفيْن، وعن اليمين والشمال يتصايح عليه بعضٌ من الحجيج: أستاذ يونس، أستاذ يونس، فيحيّيهم بيده مبتهجا كمسرحيّ أمام جمهور يصفّق له! ولمّا صرتُ بإزائه، همزتُ كتفه ببَناني، فالتفتَ إليّ متهلّلا، بعدما ظنَّني مُعجَبا غذّ السيْر وراءه لمصافحته، فسلّمتُ عليه وقلت: اتقّ الله فيما تقدّمه في التليفزيون والمسرح والسينما، فاستشاط –غفر الله لي وله– غضبا واحتقن وجهه ولوّح بيده قائلا: **"ابعد عنّي يا بويا، خلّيك في حالك"**، هذا قبل أن يبادر مرافقه فيقف كسد مأرب بيني وبينه، علىٰ طريقة الحرّاس الشخصيين للكبار من الرؤساء وأصحاب الجاه.

والواقع أنّ في هذا الموقف شواهد ودلالات عدّة: أوّلها أنّ بعضنا يقطع الفيافي ويفارق الأهل والولد ويتكلّف ما يطيق من المال والجهد ليحجّ، ولكنه لا يظفر إلّا بنصف أجر وربّما يزيد أو يقلّ حسبما يقدّره الله، لا لشيء إلّا لأنه لم يجرّد عقله وقلبه كاملَيْن لهذا النسك العظيم، ولم يتجهّز

كما ينبغي لهكذا شعيرة يمكن كما قال سيّد الأنبياء وخاتم المرسلين أن يعود منها كما ولدتْه أمّه، نقيّا كالغمام وأبيض كالثلج، وهنا لا أعمّم، ولكن أقصد علىٰ وجه الخصوص، ذاك الحاجّ الذي بقي مشغول الذهن باسم ممثّل مسرحيّة هزليّة ذمّها أرباب التربية وقالوا بأنها خرّبت أجيالًا من الطلّاب، ونالت من احترام المعلّم وعادت بالسلب علىٰ مكانته السامية.

أمّا ثاني الشواهد: فهي أنّ المرءَ أعرَفُ الناس بنفسه؛ خيرها وشرّها، صالح عملها وطالحه، ولكنّه مغلوب بهواه، ومنساق لشيطانه، وهو ما تجلّىٰ في استشاطة غضب صاحبنا يونس الذي بدا وكأنّك دعستَ قدمَه المكسورة ونثرتَ الملح علىٰ جرحه الحيّ بمجرد التلميح إلىٰ منكَر يفعله، وتلك بالمناسبة علامة علىٰ أنّ الفطرةَ سليمة والخيرَ باق، وفيها درْس بليغ لأهل الحسْبة مفاده أنّ العاصي مهما عظمت ذنوبُه لا ينبغي أن نيأس منه وننفض أيدينا من نصحه؛ فوحشيّ بن حرب الذي كفَر وفجَر حتىٰ قتل سيّد الشهداء حمزة، هو ذاته الذي آمَن لاحقا واهتدىٰ فقتل الكذّابَ الأكبر مسيْلمة!

أمّا ثالث تلك الشواهد، فهي قيمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في إيقاظ الضمائر وانتشالها من الغفلة، حتىٰ وإن بدا لنا أنه جُوبه لأوّل وهلة بالرفْض والانزعاج، إذ المؤكَّد أن تلك النصيحة التي تُسديها بأدب، وذلك القول الذي تسوقه عفْو الخاطر، لن يمرّ مرور الكرام، بل سيظلّ يدوّي في رأس المنصوح، ويدور معه شهورا وربّما سنوات، حتىٰ يؤتي ثمارًا يانعة لم يتوقّعها الناصح ولا المنصوح، هذا إن أذن الله بالهداية.

وقد استدعىٰ تلك الذكرىٰ من خزانتها المُوصَدة بأقفال طمرها غبار أيّام وأعوام متلاحقة، ما ذكره المؤرّخ عبد العزيز العويد في كتابه (صنّاع التاريخ خلال ثلاث قرون)، ضمن شهادته في حقّ الشيخ عبد العزيز الوهيبي مستشار وزارة الشئون الإسلامية بالمملكة العربية السعودية، من أنّ الممثّل يونس شلبي وبعدما أُصيب في أُخريات عمره بمرض القلب والسكّري وتكفّلت السعوديّة بعلاجه، استقبله الشيخ خير استقبال، فصبّره وعزّاه في مرضه، وحثّه علىٰ التوبة والإنابة وعدم اليأس والقنوط من رحمة الله، وأوصاه بزيارة مكّة والمدينة وشرْب ماء زمزم والإطعام من عجوة المدينة، وهو ما ترك أثرا طيّبا في نفس الرجل قبل أن يلقىٰ ربّه عام 2007م عن عمرٍ بلغ السادسة والستّين.

وغير بعيد عن هذا الإطار، ذكر العلماءُ أنّ للحجّ المبرور الذي يغفر الله به ما سلف من الذنوب، علامتيْن؛ أُولاها أثناء الحجّ، وتتمثّل في أداء النسك بتجرّد وإخلاص، وعلىٰ نحو يوافق سنّة الهادي البشير عليه أفضل الصلاة والتسليم. وثانيها بعد الحجّ، وتلوح في ازدياد صلاح المرء بإقباله علىٰ الطاعات، واجتنابه المعاصي والآثام، والاستقامة علىٰ درب الهدىٰ والرّشاد.

(2) لله درُّك يا أنيس!

في ليلة السابع والعشرين من إحدىٰ الرمضانات الفائتة، وأثناء انتظام المصلّين في المسجد بعد الأذان انتظارا لصلاة العشاء والتراويح؛ دخل الإمامُ متأبّطا شابا كفيفا قصيرا، بدا من هيئته ومشيته أنّ به تشوّهات حركية وحِسيّة عدّة. ثمّ كان أن أَجلسه، وناوله في يده كوبا من الماء، بينما رمقه الحضور بنظرة ملؤها الشفقة والرحمة. وما إن أُقيمت الصلاة حتىٰ فُوجئنا بتقديم ذاك الكفيف للإمامة! ويا لها من مفاجأة رائعة؛ إذ حلّق بنا الشاب مغرّدا بآي القرآن، ومقلّدا لمشاهير القرّاء، بدْءا بالسديس ومرورا بالشّريم وانتهاء بالمعيقلي والجهني، وذلك في حفظٍ واثق وتقليدٍ حاذق، حتىٰ خيّم الخشوعُ علىٰ المكان ونزلَت ملائكةُ الرحمن وسكنت القلوب لبارئ الأرض والسماوات، ثمّ ختم بدعاء للوِتر ذرفَت منه الدموع وشهقَت معه الأنفاس واختلجت علىٰ وقعه الأفئدة. وما إن سلّم حتي انكبّ عليه المصلّون متسابقين في دعوته للضيافة والترحاب، وعندها

خلوتُ به وسكبتُ في أذنه أسئلة حاكت في صدري وألحّت علىٰ خاطري.. هل سافرتَ للحرم ؟ كيف حفظتَ القرآن؟ كيف تمرّستَ علىٰ تقليد أصوات هؤلاء الأعلام ؟ ومنه علمت أنّ اسمه أنيس، ويسكن إحدىٰ القرىٰ في الشمال الهندي، ولم تتحقّق أمنيته في زيارة الحرم، وأنه حفظ القرآن وعاش مع هؤلاء القرّاء سماعا فقط، وبأذنيْن مشوّهتيْن قريبتيْن من الصمم!!

بالطبع لم يسمع أنيس بالمثل الإنجليزي القائل: متىٰ تَوفّرت الإرادة سهُلت الطريقة. ولا بالمثل الألماني القائل: الإرادة الجيّدة تجعل للقدميْن جناحيْن. كما لم يقرأ لعبد الرحمن الكواكبي قوله: الإرادة هي أمّ الأخلاق، ولم يتناهىٰ إلىٰ علمه مقولة سقراط: فاقد الإرادة هو أشقىٰ البشر.. ولكنه بتحدِّيه لعاهاته وتميُّزه علىٰ الأصحّاء الذين اصطفّوا خلفه؛ دلّل بما لا يدَع مجالا للشكّ علىٰ أنّ المكاره تثمر المكارم، والمِحن في كفّها المِنح، والقمّة محجوزة لذوي الهمّة، والإنسان لا تصنعه جيناتُه ولا بيئتُه ولا أسرتُه بل إرادتُه.

والإرادة طاقةٌ ذهنيّة وروحيّة، يَعبر بها الفعلُ من حيّز التخيّل إلىٰ التطبيق ومِن نطاق التجريد إلىٰ الواقع، في تصميمٍ حُرٍّ وواعٍ تتعالىٰ فيه البيئة الداخلية المشبَّعة بإكسير العزم، علىٰ البيئة الخارجية المحتقِنة

بالعوائق والإغراءات. وهي ملَكةٌ يختصّ بها الإنسان دون غيره من الكائنات ضمن صفاته الأساسية الثلاثة (العِلم-الإرادة-القدرة)، فيتحصّل عليها بالمعرفة والخبرة والتربية الذاتية، ويهدف مِن ورائها إلىٰ تحقيق الذات وإثبات الكينونة، بينما تكتفي النباتات والحيوانات والجمادات بوجودها الماديّ فحسب، إذْ لا إرادة لحجرٍ أو شجرٍ أو ثعبان. وهو ما أكّد عليه المفكّر الطبيب مصطفىٰ محمود بقوله: **"القشّة في البحر يحرّكها التيّار، والغصن علىٰ الشجرة تحرّكه الريح، بينما الإنسان وحده هو الذي تحرّكه الإرادة"**. وكذلك الأستاذ سعيد حوّىٰ بقوله:

"المادّة لا تريد، بل تخضع لإرادة. والحيوان وإن كانت له إرادة، فهي إرادةُ غريزةٍ ضمن أُطرٍ معيّنة، إطار الحياة والموت، وإطار الرزق والسفاد، أمّا ما عدا هذا فهو في بهيميّةٍ غامضة، لا يعرف معنى الإرادة حتى يريد. ولكن الإنسان عنده طاقة إرادة، يرجِّح بها بين المتقابلَيْن ويختار من بين الضّدَّيْن".

والواقع أن قوّةَ الإرادة هي بوّابة السعادة ومفتاح النجاح، إلىٰ الحدّ الذي يقدّمها بعضهم علىٰ اختبارات الذكاء كمؤشّر صادق علىٰ العبقريّة؛ إذْ مِن خلالها نتحكّم في غرائز وأهواء غالبا ما تطمس وهج عزيمتنا المشبوبة وتعرقل سيرنا نحو الإنجاز والإبداع. وعن طريقها نتمتّع بشخصية قويّة تميّز القيادِيّين والمؤثِّرين، فضلا عن كونها قاطرة تسعفنا في بناء العادات الحميدة، وتمنحنا فرصة التسامي فوق المتع الزائلة والإشباع الفوري، ومِن ثمّ التركيز علىٰ الأهداف الاستراتيجية التي تُعدّ حجر الزاوية في نهضة الأفراد والأمم.

أضف إلىٰ ذلك أنّ معظم النجاحات الحقيقية لا تأتي كومضة برق أو ضربة حظ، ولا تتحقّق في غمضة عين أو إشراقة شمس؛ بل تأتي إثر دأب علىٰ مدار شهور وأعوام، وتتغذّىٰ علىٰ الصبر والمثابرة، وهو ما لن تجده إلّا في حوزة أصحاب الإرادات الفولاذية الذين يؤمنون بأنّ القليل الدائم خير من الكثير المنقطع، ويضعون نصب أعينهم مقولة العبقري توماس أديسون: النجاح 1٪ موهبة، 99٪ مثابرة، ويتمثّلون خطىٰ أينشتين الذي ذَكر بأنّه لم يصل إلىٰ ما وصل إليه لأنه ذكي جدا ولكن لأنه كان يمكث فترات أطول في حلّ المسائل المعضِلة.

وفي تجربة لطيفة تُنمِّي في الأطفال القدرة على التحكّم في الدوافع، وتربّيهم على مهارة الانضباط الذاتي، وتُبيّن مدى الارتباط الوثيق بين قوّة الإرادة والنجاح؛ قام علماء النفس في جامعة ستانفورد الأمريكية إبّان ستينيّات القرن الماضي، باختيار مجموعة أطفال في سن الرابعة تقريبا، ووضعوا كل طفل على حدة في غرفة مغلَقة مراقَبة بالكاميرات وأمامه طبق به قطعة حلوى من نوع المارشميلو، وخيّروه بين أكل الحلوى أو الانتظار لمدّة عشرين دقيقة يحصل بعدها على مكافأة عبارة عن قطعة أخرى من الحلوى، ثمّ جرَى متابعة هؤلاء الأطفال على مدار ثلاثين عاما، من ناحية التقدّم في الدراسة والعمل والحياة بوجه عام. وقد تَبيَّن للباحثين أن الأطفال الذي تمتّعوا بقوة الإرادة فكبحوا رغبتهم العارمة في التهام قطعة الحلوى، قد أبلوا بلاء حسنا وفاقوا غيرهم مِن الأطفال الذين خارت قواهم وغلبتْهم قطعة الحلوى.

وإذا اعتبرْنا الإرادة أثمن ما فينا من عضلات وأنبل ما نملك من أعصاب، وهي كذلك، فلا أقلّ من تمرينها كما نمرّن باقي عضلاتنا وتنشيطها كما ننشّط بقيّة أعصابنا؛ بدءا من المعرفة التامّة بماهية الإرادة ومكوّناتها، على اعتبار أنّ وعينا بالشيء يزيد من قدرتنا على توظيفه التوظيف الأمثل. مرورا بالحرص على التحلّي بالجرأة والتميّز والثقة

بالنفس، مع البعد عن ضغوط عصبية تستنزف إرادتنا، وفوضىٰ تشتّت انتباهنا، وتعقيد ينهكنا، ومشاعر سلبية توهن عزيمتنا وتفتّ في عضدنا. فضلا عن توسيع دائرة الخيال وقاعدة التصوّر التي منها يبدأ الفعل وينطلق الإقدام. ولعلّ بعضنا قد سمع بتجربة انتظم فيها مجموعتان من الشباب، مجموعة تُريّض عضلات الذراعيْن بواسطة آلة الشدّ الرياضيّة، ومجموعة ثانية تتخيّل وجود الآلة وتمارس عملية الشدّ، وبعد زمن محدّد ووفق قياسات معيّنة، تَبيَّن أنّ قوة العضلة زادت بنسبة 30٪ بين المجموعة التي استخدمت الآلة الرياضيّة، وزادت أيضا بنسبة 20٪ في المجموعة التي تخيّلت وجود الآلة.. وما ينطبق علىٰ عضلة الذراع يمكن بالطبع تطبيقه علىٰ عضلة الإرداة.

وكما يَمرض البدن وتَعتلّ العضلات، فإنّ للإرادة مرضيْن قاتليْن: إمّا أن تُصاب بالوهن والخور والعجْز؛ فلا ترىٰ أكثر من كفَّيها ولا تسكن أبعد من ثيابها.. وهو ما تَعوَّذ منه فاروق الأمّة بقوله: **"اللهمّ إنِّي أعوذ بك من جلَد الفاجر وعجْز الثقة"**. وإمّا أن تحتفظ بقوّتها وصلابتها، ولكنّها تفقد بوصلتَها ويطيش سهمُها، فتَصرف طاقتَها في الطلاح لا الصلاح وتتفنّن في الهدم لا البناء. بما يعني أنّ الإرادةَ إرادتان؛ إرادة خيْر وهُدىٰ، وإرادة شرّ وضلال، وذلك بحسب التصنيف القرآني في قول الحقّ جلّ

وعلا: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء 19، 18].

(3) الله كريم!

كَرَمُ الله مِن المعروف الذي لا يُعرَّف، والثابت الذي لا يُؤكَّد، والمُسلَّمات التي لا تحتاج إلىٰ تقرير؛ فعفْوه وغفرانه عن العُصاة يدلّ عليه، ورزقه للفاجر والكافر يَشهد به، وعطاؤه وبرَكته للمؤمن يُشيران إلىٰ هذا الكرم باليد لا بالبنان؛ إذْ هو كشمس لا يُنكرها في رائعة النهار إلّا كفيف، وقمر لا يَعشَىٰ عن رؤيته في ليلة تمامه إلّا أرمَد.

ومناسبة الحديث عن هذا الكرم تعود إلىٰ يومٍ صائفٍ قائظ، دخلتُ فيه المسجد قبيْل صلاة الظهر، فوقع نظري علىٰ أحد العمّال الآسيويِّين، الراكضين وراء لقمة العيْش تحت لهيب شمسٍ خليجيّة حارقة، جاوزَتْ الخمسين آنئذٍ بقليل؛ فأَلْفيْته غارقًا في عرقه، ومُنتحِيًا قبالة تكييف الهواء البارد ؛ فاغرًا فاه، ومُشرِعًا ملابسه مِن علىٰ صدْره، فنبَّهتُه أنَّ فعْلته تلك قد تضرّ به وربّما تجلب له الزكام أو الالتهاب الرئوي، ونصحْتُه بالابتعاد عن التيّار المباشر للهواء البارد، فما كان منه إلّا أنْ سكن في مكانه بلا

حراك، ثمّ رنا إليَّ ببصره وهزّ رأسَه قائلا: **"الله كريم"**. وهي توازي **"خلّيها علىٰ الله"** التي تجري علىٰ ألسنة العامة في مصر، خاصة سائقو الميكروباصات وسيارات الأجرة، حين تنصحهم بالاحتياط فيما يخصّ السرعة وحزام الأمان.

لم تكن هذه أوّل مرة أسمع فيها تلك المقولة الهلاميّة، وبالطبع لن تكون آخِر مرَّة تصافحها أذُني وآذانكم، بعد أنْ صارتْ ثقافةً شائعة بين بني جلْدتنا ومِلّتنا؛ تعبيرًا عن لامبالاة يُريح بها صاحبُها نفسَه مِن عناء الحذر والاحتياط بدعوىٰ أنَّ الحذر لا يُغني مِن قدَر! ولِيَدخل بها أربابُها في سباتٍ عن التفكير والتدبير وشعارُهم **"يا باسِط"** و**"طنِّش تَعِش"**! كما تنطفئ فيها جذوة الإحساس بالمسئوليّة، ويَهرب بها الكسالىٰ والبلداء بعيدا عن الإيجابيّة والمجابهة، مكْتفِين بالتستُّر وراء هكذا شعارات برّاقة ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب..

والحقيقة أنهم في ذلك مُتناسِين أنَّ الحذَر جزْءٌ مِن القدَر﴿ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴾[1]، وغافلين عن أنَّ الأخْذَ بزمام الأسباب مِن تمام الإيمان ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ ﴾[2]، إضافةً إلىٰ أنَّهم لاهِين عن أنّ الوقايةَ والاجتناب لا

(1) النساء 71.

(2) التوبة 105.

يَقْدحان في العقيدة ولا يَنفيان تمام التوكُّل على الله. وتلك لَعَمري هي اللامبالاة بعينها التي وصفتْها (هيلين كيلر) بأنها أسوأ الشرور، وقالت عنها: **"ربّما أَوْجدَ العِلمُ علاجًا لمعظم الشرور، ولكنه لم يجد بعد علاجًا لأسوأ تلك الشرور، ألَا وهي اللامبالاة"**.

وتُعرَف اللامبالاة بأنها حالةٌ وجدانيّةٌ سلوكيّة، يَتصرّف فيها المرءُ بلا أدنى اكتراث أو اهتمام، سواء في الشأن الذاتي الخاص أو في المجال المجتمَعيّ العام، مع عدم توفُّر إرادة الفعل. وفي حين يَعتبرها الطبّ النفسي عرَضًا لمرضٍ تقف وراءه أسبابٌ عضويّة ونفسيّة واجتماعيّة؛ فإنَّها تبقى نتاج تنشئةٍ هشّةٍ رخوة، وإفرازًا لبيئةٍ قصّرت في التربية وغرْس روح المسؤولية. ومع أنها قد تُعبِّر عن نفسها بصور شتّى، فلا تكترث للذات أو للأشخاص أو للأحداث والزمان، إلّا أنّ مأساتها الكبرى تتركّز حين يُبديها الشخصُ تجاه صحّة هي أغلى موجود وأفْدح مفقود؛ إذْ لا كنز أثْمن من صحّة ولا رزق أوْسع من عافية. أو حين تحلّ ضيفةً على فئة الشباب فتسلبهم الحماس والشغف؛ إذْ هم –أي الشباب– للأمم كالروحِ للبدن والوقود للقاطرة.

نَعَم قد تنجح اللامبالاة في تهدئة العواصف، وتخفيف الضغوط، وإراحة البال، وإغماض الجفون؛ ولكنَّها لا تُنْجِي صاحبَها مِن مصيرٍ

محتومٍ يَصحو فيه علىٰ ارتطامٍ بجدارٍ من فولاذ، أو سقوطٍ في بئرٍ ليس له قرار، أو الاصطلاء بأُوارِ حريقٍ يَشبّ في قعر الدار، وذلك بعد أن منح عقلَه -الذي ما سُمِّي بذلك إلّا لأنَّه يَعقِله ويَحبسه عن كلِّ قولٍ ذميم أو فعلٍ قبيح- إجازةً مفتوحة أَغلَق بموجبها معهد الوعي وحانوتَ الإدراك ومعملَ التخطيط.. ولهذا كان الأديب الطبيب (أنطون تشيخوف) منصفًا عندما وصف اللامبالاة بأنها شللٌ للروح وموتٌ قبل الأوان. وكان الروائيّ الطبيب (أحمد خالد توفيق) علىٰ حقّ حين نسب إليها كافّة المشاكل التي يجابهها الفرد، وذلك حين قال:

"جميع المشاكل بداخلك، سببها أنك تظاهرتَ بالغباء عندما فهمْتَ، وابتسمْتَ وقت الحزن، والتزمْتَ الصمت وقت الكلام".

وتُعتَبر اللامبالاة طليعةً لليأس ومؤشِّرًا علىٰ الإحباط، علاوة علىٰ أنّها مرادفٌ لعدم الانتماء؛ سواء لذات تنبع منها روح المبادرة وشعلة الإقدام، أو لمجتمع محيط يُغذِّي طاقة الحركة ويُنير مصابيح الإيجابيّة. ولن

تذهب تلك اللامبالاة ويعود ذلك الانتماء؛ إلّا في وجود الأنا الواعية الواثقة، وإلّا في بيئةٍ توافرَتْ فيها مقوِّمات حياةٍ إنسانيّة تُسدي الحريّة، وتَحفظ الكرامة، وتؤمِّن العملَ والتعليم والعلاج.

وإذا كانت أمريكا قد استدعتْ قوَّتها العلميّة والسياسيّة والماليّة لتَدارُك ما فاتها حين سبقها الاتحاد السوفيتي إلىٰ أعالي القمَر في عام 1961م، واستنفَرت فرنسا المهتميّن بالثقافة حين استشعرت اهتزاز مؤشّر القراءة بين الفرنسيّين، ووقفَتْ اليابان علىٰ أطراف أصابعها وقدحَتْ زناد فكر رجالاتها وقادتِها للوصول إلىٰ الحيْثيّات التي تسبَّبت في هزيمتها الفادحة إبّان الحرب العالمية الثانية...ألَا تستحقّ قضية اللامبالاة وأزمة عدم الانتماء -التي أصبحت ظاهرةً للعيان- وقْفةً مِن ذوي الرأي والعِلم، وعلاجًا مِن قِبَل أرباب الحلِّ والعقْد؟!..خاصّة إذا آمنّا بأنّه لا أمَل في إصلاح مجتمعٍ لا مبال، ولا ضوء في نفقٍ لا يَنتمي إليه سالكوه.

ولنتذكّر أنه لولا المبالاة لما ثارت الشعوبُ علىٰ المستعمرين، ولولا المبالاة لَما لبّىٰ المعتصمُ نداءَ امرأةٍ صرخت **"وامعتصماه"**، ولولا المبالاة لَما أمر أحدٌ بمعروف ولا نهىٰ عن منكر، ولولا المبالاة لَما انبرىٰ ابن جبير للحجّاج والعزّ بن عبد السلام للمماليك وقطز للمغول وعمر المختار للطلْيان. بما يعني أنّ المبالاة حارسٌ أمين علىٰ الحقوق

والواجبات والمكتسَبات، بينما اللامبالاة –أو الأنا مالية كما يسمّيها شيخنا الشعراوي– خيانة عظمىٰ قد تضاهي بيع الأوطان، ووأْد الأحياء، وقتْل الأنفس بغير حقّ.

والواقع أنّ إدانة اللامبالاة وتجريمها، لا يعني أن نبالغ في الاكتراث؛ فنصيخ السمع لكلّ همْس، وندقّق النظر في عموم مرائينا، ونجهد ذهننا في أدقّ التفاصيل، ونتوجّس ريبةً من كلّ موْج وريح؛ لأننا بذلك سنبيتُ ضحايا للقلق الذي يأكلنا أحياء، وللتوتّر الذي يرمينا بسهام المرض والحزن، وللرُّهاب الذي يقذف بنا خارج دائرة الرُّشد والنُّضج. بينما النّضج كلّ النّضج، يكمن في انتقاء ما يستحقّ الاهتمام والتركيز عليه دون سواه، أو بالأحرىٰ اتّباع نصيحة الكاتب الأمريكي رايان هوليداي بقوله: **"تأتي المرونة والسعادة والحريّة مِن معرفة ما يجب الاهتمام به، والأهمّ مِن هذا أنها تأتي مِن معرفة ما ينبغي عدم الاهتمام به"**. أو تَبنِّي نهْج زميله (مارك مانسون) في كتابه (فنّ اللامبالاة)، والذي لخّصه بقوله: **"ليست شدّة الاهتمام بالحصول علىٰ** (ما هو أكثر) **مفتاحًا لحياةٍ جيّدة، بل المفتاح هو** (الاهتمام أقلّ)**، الاهتمام المقتصِر علىٰ ما هو حقيقيّ وآنيّ ومهمّ"**. وهو ذات المعنىٰ الذي أكّد عليه عالم الاجتماع العراقي (علي الوردي) بقوله: **"فقط عليك أن تعرف ما تريده، وما عليك فعله"**.

وبالعودة إلىٰ العنوان: (الله كريم)؛ قرأتُ أنّ الشاعر الفرنسي غريب الأطوار (آرثر رامبو)، حضرتْه الوفاة في سنّ السابعة والثلاثين، ولمّا استُدعي راهبُ الكنيسة ليهَب روحَه البركة ويحرّرها إلىٰ النعيم، علىٰ عادة الإخوة النصارىٰ، وجده يردّد (الله كريم.. الله كريم)، فرفض أن يهبه البركة ويمنحه تذكرة النعيم، لأنّه –حسب اعتقاده– يردّد عبارات المسلمين وتُدلّل علىٰ إسلامه!

(4) فِقه الفِتنة

لكلٍّ مِنّا فُسيفساء؛ سهر علىٰ تركيب أجزائها مِن مواقف كان فيها لاعبا فاعلا، أو مِن مَشاهد كان فيها حاضرا مُتفرِّجا، أو مِن أخبارٍ تناهَت إلىٰ سمعه بالتّواتُر. ومِن حين إلىٰ آخر يَجد نفسَه مشدودة إلىٰ إحداها، فيُدِيم فيها النّظر ويُجيل حولها الخاطر، ليَقبض علىٰ فكرة أو يَظفر بعِبرة...فبائسةٌ هي الحياة إنْ خلَتْ مِن الفِكرة والعِبرة، وتافه ذلك العيش الذي اقتصر علىٰ العَلَف والخَلَف.

منذ أيام خلَت، صَلّيتُ خلف إمام سَها في صلاته-وجَلّ مَن لا يَسهو- فسجَد للسّهو بأنْ سلّم التسليمة الأولىٰ عن اليمين ثمّ أتىٰ بالسجدتيْن وجلس جلسة التشهّد ثمّ سلّم عن يمينه وشماله، وما إن انتهىٰ مِن صلاته حتىٰ هَمْهم المُصلُّون وأكْثروا اللغط في المسجد، علىٰ خلفية عادتهم مع المذهب الشافعي الذي أَلِفوه واتّبعوه في الإتيان بسجود السهو قبل التسليم، وهو خلاف ما فعله الإمام.

ورَوَىٰ لي زميلٌ، أنه صلَّىٰ وراء إمام صلاة جَهْرِيّة، ولمّا قرأ الإمامُ بقراءةٍ وروايةٍ لم يعهدْها روّاد المسجد مِن المُصلِّين، حسبوه أخطأ القراءة بعدما خانتْه حافظتُه، فشمّروا عن ساعد اللّسان وتباروا في ردِّه ذات اليمين وذات الشمال، حتىٰ صارتْ الصلاة أقرب للحوار وأشبه بالمزاد، مِمَّا أَخلَّ بخشوعها وأَوْدىٰ بطمأنينتها وسكينتها!

ومع أنّ ما فعله إمامُ السهْو واردٌ في مذهب الأحناف ولا غبار علىٰ صحّة الصلاة؛ إلّا أنّه وإن أصاب فِقها فقد أصاب فتنة أيضا؛ إذْ لم يراعِ مذهبَ مَن وراءَه من المصلِّين، فأوْردَهم ما جهلوا وزجَّ بهم فيما كرهوا، بعدما غفل أنّ الإنسان بجبلّته عدوٌّ لدود لما يجهل وصديقٌ حميم لما يَعلم. وهو ما يُقال أيضا في إمام القراءات الذي أخذ برقاب مَن وراءه إلىٰ قراءة لم يَسمعوا بها، وإلىٰ رواية ليس لها في آذانهم سابق معرفة ولا سالف دراية. وهما-أي الإمامان- في هذا مثالان صادقان وتطبيقان حيّان لقول ابن مسعود رضي الله عنه: **"ما أنتَ بمُحدِّث قوما حديثا لا تبلغه عقولُهم إلّا كان لبعضهم فتنة"**. والفتنة هنا بمعنىٰ المحنة التي يختلف فيها الناس ويتنازعون فيما بينهم، فتُبْلبلهم وتُوقعهم في حيْص بيْص.

والواقع أنّ بعض الأئِمَّة والدُّعاة والمُربِّين -أمثال هذيْن الإماميْن الجليليْن- ومِن حيث لا يَقصدون، يقفزون بالنّاس إلىٰ مجاهل يَستحِلّون

فيها الطّعن بسهام العِلم، ويَردون بهم بحارا لا يُجيدون لها السّباحة، فيَجرحون لا يداوون، ويُغرِقون لا يُنقذون، ويشعلون لا يطفئون؛ إذْ لم يُراعوا المستوىٰ العلمي والإدراك العقلي والقبول النَّفسي للمُتلقِّين، فكان أنْ أَفْسدوا مِن باب الإصلاح وضَرُّوا مِن جهة النَّفع وكان الصدّ بديل الدَّعوة. وفي هذا يقول صاحبُ الإحياء ومجدِّدُ المائة الخامسة (أبو حامد الغزالي):

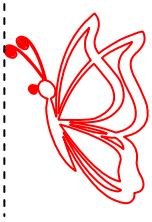

"كِلْ لِكلِّ عبْدٍ بمعيار عقلِه وزِنْ له بميزان فهمه، حتى تَسْلم منه ويَنتفع بك، وإلّا وقَع في الإنكار لِتفاوُت المعيار".

وفي والتحلِّي بالفطنة ومراعاة حال المتلقِّين؛ روَىٰ ابن خلّكان في كتابه (وفيات الأعيان)، أنّ أمير الأندلس عبد الرحمن بن الحكم، وقَع علىٰ جارية له في نهار رمضان، فندم ندامة الكُسَعيّ، واستدعىٰ الفقهاء مستفسرًا عن التوبة والكفّارة؟ فأفتاه الفقيه يحيىٰ الليثي بصيام شهرين متتابعيْن. ولمّا خرج الفقهاء، قالوا ليحيىٰ: مالَك لم تُفْته بمذهب الإمام مالِك الذي يخيّر بين العتق والإطعام والصيام؟ فقال: لو فتحْنا له هذا الباب، سهُل

عليه أن يطأ كلّ يوم ويعتق رقبة، وإنّما حمَلْته علىٰ أصعب الأمور لئلّا يعود.

ولَربّما يَصحّ القول هنا أنّ مكانة الإمامة في الصلاة وعِظم مسئوليتها، هو ما وسّع دائرة شروطها وزاد في متطلّباتها، لتذهب أبعد مِن صوت حسن-وهو مطلوب-، وليَكبح جماح مَن يتسابقون إليها ويُوادُّون ويُعادون عليها، مُكْتفِين منها بالغُنْم دون الغُرْم وبالحقّ دون الواجب، وهم في صنيعهم ذلك لا يذهبون بعيدا عن كلّ صاحب مسئولية أساء فهمَها وأَخَلّ بمتطلّباتها ولم يحقِّق شروطَها.

علىٰ أنّ معاتبة الأئِمّة-والعتاب دليل الحبّ وسليل الودّ ومصفاة النّفوس- لا يكتمل إلّا بمِثله للمأمومين الذين اكتفوا مِن فقه الصّلاة بالقشور ومِن عِلم القراءات بما دون القشور، ثمّ ظنّوا أنفسَهم أصحاب أَخْذ وردّ وأرباب جَرْح وتعديل، فانبروا للنَّقد دون السؤال وللهجوم دون التبيُّن والتثبُّت، وليتهم ارتكنوا إلىٰ منطق العِلم قبل القول والفهم قبل النقْد! ولكن ما تجدي (ليت)، إذا كانوا صورة مُجتمَعيّة مُصغَّرة لعَوارِنا الثقافي، ودليلا قطعيًّا ساطعا علىٰ عَرَجنا المعرِفيّ وسُقمنا في إدارة الخلاف.

ولعلّ هذا يدعونا إلىٰ اقتفاء نصيحة ابن خلدون في مقدّمته حين قال: **"لا تُنكرنّ ما ليس بمعهود عندك ولا في عصرك شيء من أمثاله، فكثير مِن الخواص إذا سمعوا الأخبار الغريبة عن الدول السالفة، بادروا بالإنكار، وليس ذلك من الصواب، فإنّ أحوال الوجود والعمران متفاوتة، ومَن أدرك رتبة سفلىٰ أو وسطىٰ فلا يَحصر المدارك كلّها فيها"**. ثمّ ضرب لذلك مثلا، بأنّ مرويّات ابن بطوطة عن رحلته في بلاد الهند، لمّا حفلت بالعجائب والغرائب؛ استغربها السامعون، وتناجوا في تكذيبه وإنكار مروياته، مع أنّ ابن بطوطة كان ناقل صدق وشاهد عيان ليس إلّا. وضمن السياق ذاته، قصّ الإمام الكسائي قصّة لطيفة في أدب المأموم وحكمة المتلقِّي، فقال: صلّيتُ بهارون الرشيد، فأعجبتْني قراءتي؛ فغلطتُ في آية ما أخطأ فيها صبيّ قط! أردتُ أن أقول: **"لعلهم يرجعون"**. فقلت: (لعلهم يرجعين)! قال: فو الله ما اجترأ هارون أن يقول لي: أخطأت. ولكنه لمّا سلّمت قال لي: يا كسائي! أيّ لغة هذه؟ قلت يا أمير المؤمنين! قد يعثر الجواد. فقال: أمّا هذا فنَعم.

(5) العِلم قبل العمل

في ظهيرة يومٍ حارّ، وأثناء خروجي من صلاة الظهر، وقع بصري علىٰ رجلٍ مُسنّ يعبث بهاتفه الذكيّ علىٰ عتبات المسجد، وما إن لمَحني حتىٰ ناولَني إيّاه مستفسِرا عن رسائل وصلتْه ولكنه لا يدري كيف يَفضّها فضلا عن الردّ عليها، فحللْت له ما اعتبَره لغْزا، وزِدتُه جوابا فوق ما سأل. وهو ما تَكرّر المرّة تلو المرّة في أكثر من صلاة، بما يَشي أنّه لبس جلبابًا أوسع من قدّه واعتمّ عمامةً أكبر من رأسه، وأَخجلُ من القول بأنّه دَلّل بما لا يَدع مجالا للشكّ علىٰ أنّه أقلّ ذكاءً مِن هاتفه، خاصة أنّ صحّته العامّة وحواسّه السمْعيّة والبصريّة واللمْسيّة علىٰ ما يُرام. ويبدو أنّني تجاوبتُ معه بأَرْيحيّة أَطْمعَتْه فيّ، لدرجة أنّه صار يترقّب تسليمتي الثانية، فيبادر بانتظاري علىٰ باب المسجد، ليُفضي إليّ بجهله التّقني. ولمّا زاد الأمر عن الحدّ وبلغ بي الضجر مداه، كدتُ أحتال في الخروج من باب الإمام الملاصق للمحراب، والذي لا يتبيّنه إلّا القلّة من المداوِمين علىٰ

المسجد، وأتركه معلّقا- غفر الله لي وله- بانتظار السّراب علىٰ الباب المعتاد.

وما ينطبق علىٰ الهاتف، ينطبق علىٰ الكثير من وسائل التكنولوجيا الحديثة التي نسارع بامتلاكها ولا نتوانىٰ عن دفع الأثمان الباهظة مقابلا لها، رغم أننا لا نكلّف أنفسنا – وهو أضعف الإيمان- قراءة تعليمات التشغيل المرفَقة، وبالتالي لا ندري كيف نديرها، ونعجز عن توظيف ما بها من إمكانات في سبيل تسيير عجلة الحياة إلىٰ الأفضل. ومَثَلنا في ذلك كمَن يشتري سيّارة لا يعرف كيف يقودها فيصدم الجدران تارة ويفتك بالبشر تارة ويُودي بحياته تارة أخرىٰ. وكمَن يدخل عالَم التجارة دون أن يَدري أحوالَ السوق ويلمّ بمبادئ الاقتصاد ويعرف أحكام البيوع، فيُتلاعَب به ويصبح أضحوكة التجّار وأُمثولة السّوق .

وهنا تُطرح قضيّة العِلم قبل العمل في العبادات والمعاملات والسّلوك؛ تلك القضيّة المحوريّة التي غفل عنها النّصارىٰ فاستحقّوا صفة الضلال كما ورد في الفاتحة أمّ الكتاب. وأَوْلاها الإمام البخاري في صحيحه مَرتبة عُليا، فافتَتح بها كتاب العِلم. وقال عنها المفكّر مصطفىٰ محمود: **"العِلم**

أوّلا، والعلم ثانيا، والعلم ثالثا، والعمل بما تعلَّمناه رابعا". ونبّه إليها الإمام الحسن البصري بقوله:

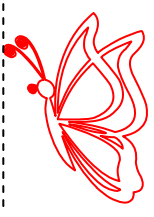

"العامل على غير علم كالسالك على غير طريق، والعامل على غير علم يُفسد أكثر ممّا يُصلح".

والواقع أنّ الغربيّين يُولونها أهميّة كبرىٰ، فيعقدون دوراتٍ لتعليم كلّ شيء؛ مِن تنسيق الزهور وإعداد الموائد، إلىٰ قيادة الحواسيب والطائرات، وهي ما يُقبل عليها العامّة والخاصّة علىٰ حدّ سواء، كلٌّ حسب احتياجاته، وكأنها مسَلَّمة من المسَلَّمات وبديهة من البديهيّات. هذا في الوقت الذي يَزْدري بعضُ بني جِلدتنا تلك الدورات التعليمية؛ فيصعّرون لها الخدّ ويرمقونها بطرْف اللحْظ!

والحقّ أنّ العِلم قبل العمل احترامٌ لقيمة العِلم، وتوفير للوقت والجهد، وحِفظ لسلامة الأجهزة، وتقديمٌ للعقل علىٰ العضلات في إدارة شئون عصرٍ بات يقتات علىٰ المعرفة ويستنشق المعلومات. والأهمّ من ذلك، أنّ فيه استشفاء من مرض عضال يُفتي فيه البعض بدون عِلم، ويتبوّأ

المناصب مَن ليس بها جدير، وينشر ثقافة فهلويّة نتفرّد بها دون غيرنا مِن سائر الأمم .

تُرىٰ، ماذا لو سعىٰ كلّ ربّ أسرة لِتَلقِّي دورة في أساسيات الكهرباء المنزلية، وأعمال السباكة والنّجارة، بدلا من الإقدام علىٰ إصلاح ما لا يتقنه، فيفسد أكثر ما يصلح ويتكلّف فوق ما يطيق. وماذا لو سعَت كلُّ ربّة بيت إلىٰ حضور دورة تدريبية في الطبخ أو الأشغال اليدوية، أو تربية الأبناء والسعادة الزوجية، ألَا يصبّ ذلك في أداء رسالتها علىٰ النحو الأكمل، ويضفي علىٰ حياتها وحياة عائلتها مزيدا من الهناءة والسرور. وماذا لو سعىٰ كلّ شاب وفتاة إلىٰ حضور دورة حول القراءة والكتابة ومهارات التواصل وما إلىٰ ذلك، ألا يُضيف ذلك إلىٰ شخصيتهم، ويجعلهم أقدر علىٰ ولوج عتبة التفوّق وارتقاء منصّة التميز. لا أشك لحظة أنّ مجتمعا يَعمُر بمثل هذه الدورات إنشاءً وإقبالا، إلَّا ويكون مجتمعا فاضلا يتّسم بالوعي والحيويّة وينشد التقدّم والرفعة ويواكب روح العصر ومستجدّاته.

وإضافةً إلىٰ ما طرحه هذا الموقف مِن لزوم العلم قبل العمل، فإنه يشير إلىٰ قضيّة أخرىٰ وهي شراء ما لا يَلزمنا، وامتلاك ما لا حاجة لنا به؛

فصاحب الهاتف الذكيّ كان يكفيه هاتف بسيط يستقبل مكالمة ويردّ علىٰ رسالة، دون الحاجة إلىٰ هاتف ذكيّ أشبه بحاسوب صغير يَرِد به عوالم بعيدة الغوْر يحسبها من خوارق الجنّ وألاعيب الشيطان. ومثَله في ذلك كمَن يمتلك بيتا من أربع غرف ولا يسكن منها سوىٰ غرفتيْن، ويضع في ردْهته مائدةً فارهة تتّسع لثمانية أفراد ولا يكاد يستخدمها في العمر سوىٰ مرّات بعدد أصابع اليد الواحدة، وقِس علىٰ ذلك ما في المطبخ مِن أوان وما في الدولاب من ملابس وما تحت السرير من أحذية، وغيرها من هوامش حياتية نُثقل بها كاهلَنا دون فائدة تُذكر، اللهمّ إلّا إشباع رغبة متوحّشة تمسك بزمام الآدميين، وهي رغبة التملّك والاستحواذ التي نجا منها غير الإنسان فعاش في سعادة وهناء.. وإلّا أَخبِرني من فضلك عن أسدٍ مؤرَّق لا ينام؟! وعن نباتٍ ذبل من الاكتئاب؟! وعن هِرٍّ ضاق صدرُه فانتحر وفرّ من الحياة؟!

أرجو أن لا يُفهم من كلامي أني أصادر علىٰ المسنّ امتلاك جهاز ذكيّ؛ فله ذلك إن أراد، علىٰ أن يتعلّم قبل أن يتملّك، وكما قال العلّامة محمود محمد شاكر في جمْهرة مقالاته: **"ليس في الدنيا أحد هو أعلىٰ مِن أن يتعلّم، ولا أحد أقلّ مِن أن يُعلَّم"**. بل إنّ مثل هذا الهاتف في تلك السنّ قد يكون مصدر تواصُلٍ حميم إبّان مرحلةٍ تتمدّد فيها الوحدة وينفضّ القرين

والجليس، ويصبح في مسيس الحاجة إلىٰ دفء عائلي أبعد من خطوته الضيّقة، ويصعب الوصول إليه إلّا عبر مكالمة أو رسالة أو ما شابه .

كما أرجو أن لا يُتبادَر إلىٰ الذهن أنّني -حاشا لله- أحرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيّبات من الرزق؛ بل غاية ما أرمي إليه أننا بصدد أزمةٍ تحتاج الجدّ لا ترفا يتّسع للهزل، وقصارىٰ ما أصبو إليه أن نتخلّق بأخلاق صفوة سبَرت الدنيا علىٰ حقيقتها، فعرفَت أنّ الغِنىٰ في التَّخلِّي لا في التملُّك، وأنّ الرضا في القناعة لا في الاستحواذ، وأنّ مَن يملك أكثر يخاف أكثر، أو كما قال الطبيب الروائي أمير تاج السر: **"مَن يملك كلّ شيء يخاف من أيّ شيء"**.

(6) مسلمون بالوراثة!

عبر خريطة جينية قدَّر العلماءُ عددَ أفرادها بنحو عشرين إلىٰ خمسة وعشرين ألف جين، يرث المرءُ من والديه نوع فصيلة الدم ولون الشّعر والجلد والعين، ويتحدّد ما إذا كان ذكرا أم أنثىٰ وطويلا أم قصيرا، وهذه عوارض لا تُقدّم ولا تُؤخّر كثيرا في مسيرة أيّ منّا؛ فما عاق ابنَ الهيثم قِصَرُه، ولا عاب بلالا سوادُه، ولا طعنَت في عمر بن الخطاب صلعتُه، ولا قدحَت في ابن مسعود دقّةُ ساقيْه، ولا شان عطاءً[1] عرْجتُه، ولا انتقص من قدْر فاطمة الزهراء أنوثتُها. هذا بخلاف أهمية المعتقَد الذي يرثه المرء أيضا ولكن ليس عن طريق الجينات؛ إذْ يتحدّد علىٰ أساسه ما إذا كان فاعلا أم مفعولا ومؤثّرا أم متأثّرا، كما يتوقّف عليه مآله في الحياة الباقية؛ إمّا إلىٰ جنّة بعرض الأرض والسماء، أو إلىٰ نار وقودها النّاس والحجارة الصمّاء.

(1) كان عطاء بن أبي رباح أسود أفطس أعور أعرج، ثمّ عمي، ورغم هذا كان فقيها محدِّثا، وكان مِن أعلم الناس بالمناسك، حتى خلع عليه الإمام الذهبي لقب شيخ الإسلام.

ومع الإقرار بنعمة عظيمة يمنّ بها الوالدان حين يورِّثان ذريتَهما دينَ الإسلام الحقّ، ويُسبغان عليهم اسمًا ورسمًا يشي بذلك؛ إلّا أنّ الوراثة لا تكفي لحمل الدّين وسبر أغواره والقيام بمسؤوليّاته، بل لابد مع بلوغ الأشدّ وكمال النضج، من إدارة الفكر وإعمال العقل وشرع أبواب القلب، لينتقل الدِّين من طور الوراثة السطحي الباهت إلىٰ طور الاقتناع الراسخ والزّاهر، ثمّ يختلط بالدم واللحم والعظم اختلاط السكّر بالماء الفرات.. وتلك لَعَمري حضارة تعقب البداوة، واستقلالية تلي التبعيّة، وإيمان وإحسان يتقدّمان علىٰ مرتبة الإسلام. واقرأ في ذلك مقولة الفريد الجميل (فريد الانصاري) في كتابه (جمالية الدّين):

"فهْمي للدّين عموما، وللعقيدة خصوصا، مرّ بمراحل ثلاث: التديُّن الوراثي، ثم التديُّن العقلي، ثمّ التديُّن الوجداني".

والواقع أنّ كثيرا من الظواهر المخجِلة التي تَصدر عن بعض المسلمِين في العالمَيْن الواقعي والافتراضي؛ مردّها إلىٰ البقاء قيد الإسلام الوراثي الوِلادي، في ظرف أشبه ما يكون برجل بقي علىٰ طوله في الصبا فصار قزما، أو امرأة استقرّت علىٰ حالة الطفولة الذهنية فباتت متخلّفة

عقليّا، أو جنديّ ورث عن أبيه سيفا من خشب ونِيط به استرداد ملك غصبه جيشٌ يملك الطائرات والغوّاصات وسفن الفضاء!

ولعلّ هذا يفسّر حالة الغثائيّة التي يعيشها المسلمون، ويبرّر غيابنا عن دوائر النفوذ، ويقف وراء سلوك (سيف الإسلام) و(رقيب الدين) و(نور الحقّ).. وسيف الإسلام هنا ليس الصحابي الجليل خالد بن الوليد الذي ركع له المجد وسجدت له الانتصارات في عهود الزهو والإشراق، ولكنه مريض آسيوي أعجبني اسمه، قبل أن أكتشف أنه ليس للإسلام بسيف ولا سكّين ولا حتىٰ عصا؛ إذْ كان لا يقرب المسجد سوىٰ يوم الجمعة، ويعلّق حجابا بحبل مطّاط أعلىٰ ذراعه، ومعلوماته عن الإسلام تضاهي معلوماته عن عدد موج البحر وحصىٰ الأرض ونجوم السماء. وما يُقال عن سيف الإسلام ينسحب علىٰ (كبير الدّين) و(نور الحقّ)، وغيرهم ممّن يمتلكون معتقدا هشّا أشبه ما يكون ببالونات هوائية تصلح للّهو واللعب، وطبل أجوف متأهّب للطبل والزمْر.

وكما يكون الجسم ذو المناعة الضعيفة عرضة للآفات، وتكون الأرض الفضاء التي لا حارس لها مكَبّا للنفايات؛ فإنّ تلك الفئة هم الأكثر عرضة للتلاعب بهم من قِبل المرَدة -جمع مارد- البارعين في

استثمار العواطف وإلهاب الحماسة، ومِن ثمّ الزجّ بهم في نِحَل وطرُق تقوم علىٰ الطقوس والبهرج، ويختلط فيها الحقيقي بالأسطوري، وتقدِّم إسلاما هزيلا يتمايل علىٰ وقع الدفوف ويهرف بما لا يقبله منطق ويَرضىٰ بالفتات من الحياة.

والأخطر من ذلك أنّ هؤلاء مِن الهشاشة والضّعف الإيماني؛ بحيث لا يصمدون أمام عاصفة إلحادية تخلعهم من دينهم، أو ريح صرصر متشدّدة تذهب بهم إلىٰ تكفير الناس وإزهاق النفوس وقطع الرقاب، خاصة في ظل عصر معلوماتي منح الجميع بطاقة مجانية للدخول إلىٰ الشبكة العنكبوتية، فوفّر للبعض ساحة نزال يقتنصون منها ضحاياهم، وستارا جذّابا ينفِّذون من خلاله مخطّطاتهم.

وعلىٰ ذكر هذه النِّحَل، أتذكّر حين دخلتُ المسجد ذات يوم في غير وقت الصلاة، وكيف أنّي عجبتُ مِن أحدهم يكوّر علىٰ رأسه عمامة قطرها نصف متر، ويسند ظهره إلىٰ الجدار الخلفي الأيمن، ويجلس جلسة اللوتس المميِّزة لمُمارسي اليوجا! ثمّ فزعْتُ عندما وجدتُه يتلوّىٰ كمن بكُليته حصاة، وينتفض انتفاضة مَن مسّتْه الكهرباء، وذلك في حركات رتيبة متسارِعة ترتجف معها رأسُه المائلة علىٰ كتفه وذراعه الأيسر؛ إذْ دار بخلدي ساعتها أنه مريض داهمتْه نوبة صرع علىٰ حين

غفلة مِن نصير ومُعين. وأذكر أنّي تحسّستُ بيمناي مفتاح سيارتي، وحدّثتُ نفسي بإسعاف الرجل عبر أقرب مستشفىٰ، بل وراجعتُ في ذهني جرعة دواء الديازيبام الذي يُعطَىٰ في مثل تلك الحالات الطارئة. ولكن ما إن اقتربْت منه وهززتُه بلطف، حتىٰ انتبه لي بهدوء وكأنه كان يرسم أو يكتب أو يعزف، إذْ ما كانت هذه الصرعات -حسب قوله- إلّا طرائق عليا في ذكر الله بالقلب لا باللسان، وما كانت إمالة رأسه إلىٰ كتفه الأيسر إلىٰ تنصُّتا علىٰ القلب ثمّ الارتجاف علىٰ وتيرة خفقاته الذاكرة المسبِّحة، ونغم نبضاته المهلِّلة المكبِّرة المُعَذْبِلة!

ولأنّ هذا الإسلام الوراثي أو الأفيوني كما سمّاه علي شريعتي، لا يُرهب نملة ولا يحرّك قشّة ولا يبني عشّا، فإنّه مرغوب مِن قِبل سلطات استبدادية تراه حطبا بغير نار ورمادا بدون جذوة، بل ومرحَّب به من قِبل مِلل حاقدة ترىٰ فيه قطّا مستأنَسا لا يُعارض وذيلَ جرْو لا يقاوِم وقطيعَ إبل لا يمانِع، وذلك بعدما سجّل حضورَه الفيزيائي والعاطفي، ولكن غاب عنه الوجود الثالث والأهمّ، وهو الوجود الذهني الذي لا يتحقّق الاستخلاف والإعمار إلّا علىٰ أكتافه.. وهو ما أشار إليه المفكّر الطبيب مصطفىٰ محمود بقوله: **"إنّ الغرب لا يخشىٰ الإسلام الطقوسي والشعائري، بل يخشىٰ الإسلام الذي يدعو إلىٰ العلم والعمل والتقدّم والحضارة"**.

وقد فرّق علّامة الجزائر ومجاهدها (عبد الحميد بن باديس) بين الإسلام الوراثي، ونقيضه الذي سمّاه الإسلام الذاتي؛ فذكَر أنّ الإسلام الوراثي يدين به أكثر أهل زماننا، وفيه يُولد المرء من أبويْن مسلميْن فيُعدّ مسلما، ثمّ يشبّ ويكتهل ويشيخ وهو بعد من المسلمين، إذْ تجري علىٰ لسانه وقلبه كلمات الإسلام، وتباشر أعضاؤه عبادات وأعمالا إسلامية، ولكنه في الحقيقة لم يتعلّم شيئا من أصول الإسلام في العقائد والآداب والأخلاق والأعمال، بل أخذ إسلامه بحكم الوراثة كما وجده، وبكلّ ما فيه ممّا أُدخل عليه من عقائد باطلة أو أعمال ضارّة وعادات قبيحة، وهو له متعصِّب ولا يقبل به بديلا.

أمّا الإسلام الذاتي-كما يقول باديس- فهو الذي أمرنا الله به في مِثل قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ﴾ [1]، وهو ما تنهض به الأمم فتستثمر ما في السماوات والأرض وتشيِّد صروح المدنيّة والعمران.

ومع أنّ الكثرة الكاثرة من المسلمين قد وُلدوا وعاشوا وماتوا علىٰ إسلام موروث عن الآباء والأجداد؛ إلّا أنّ هنالك نسبة ضئيلة خالفت هذا

(1) سبأ 46.

المسار، فورثت دينا كِتابيًّا أو إلحاديًّا قبل أن تشقّ نور الهداية طريقَها إلىٰ عقولهم وقلوبهم، وتلك هي الفئة التي نلحظها أرسخ اعتقادًا وأشدّ التزامًا وأعمق تأثيرا؛ وذلك لأنها ذاقت الظلام فعرفت قيمة النور واكتوت بالضلالة فعلمت قدْر الهداية، ولأنها نالت إسلامَها بعد عناء البحث وتَحدّي الصعاب، وعادة كلّ ما يأتي بعد جهد يكون أصلب عودا وأطيب ثمرا. ولأنها أيضا آمنت قبل أن تُسلم، فسلكت بذلك طريق النخبة المسلمة الأولىٰ كعمر بن الخطاب وخالد بن الوليد وغيرهما من سادتنا الكبار.

ومن تلك الفئة القليلة، أنتقي الملاكم الأمريكي الشهير مايك تايسون، الذي ورث الكاثوليكية عن أسرته، ثمّ أسلم في عام 1993م، وقال عن إسلامه: **"لم أكن أقبل أن أُسلم بدون اقتناع، ولهذا كنت متردّدا في بداية الأمر حتىٰ درستُ القرآن ووجدتُ فيه إجابات عن كل أسئلتي حول الحياة والموت، وكان إسلامي بعد هذا الاقتناع أكثر قوّة فيما لو أسلمت دون دراسة أو وعي"**.. ومِن هنا جاءت المفارقة حين جهَش الرجلُ بالبكاء أمام قبر النبي صلىٰ الله عليه وسلم لمدة ساعة ونصف، بينما انشغل مَن ورثوا إسلامَهم ووقفوا موقفه؛ بالتقاط الصور وتسجيل الفيديوهات وبثّها مباشرة علىٰ صفحات التواصل الاجتماعي!

الخاتمة

بعض الجمل تنتهي بنقطة واحدة (.) لتؤشّر علىٰ تمامها وكمالها، وبعضها تجرّ في ذيلها ثلاث نقاط (...) لتؤشّر علىٰ أنّ للموضوع بقيّة وللمعنىٰ تكْملة، وهذا الكتاب جملة من النوع الثاني؛ فطالما أنّ العمرَ مازال ينبض، ستظلّ الأيام تلد الحكايات، وبوسع هذا الذي يركض في ميدان السطور كالخيل ونسمّيه قلما أن يأخذ استراحة محارب، ولكنه أبدا لا يتوقّف عن الركض.

وكما أسلفْنا ليست العبرة فيما تحويه الحكايات من شقْشقة الألفاظ ومفارقات الأحداث وغرائب الأطوار؛ إنّما العبرة بما تلقيه علىٰ مسامعنا من أمثولة وعظة، وبما تخلِّفه فينا من معانٍ وقيمٍ ومبادئ تنتشلنا من قعر الطين إلىٰ فردوس النعيم ومِن حمأة المادّة إلىٰ سكينة الروح.

ولعلّها بذلك تكون حلقةً مِن حلقات توريث المعرفة، ونافذةً لتسريب الخبرة الحياتية إلىٰ أجيالٍ جديدة تتعطّش إلىٰ معرفة الماضي وتتشوّف إلىٰ بناء المستقبل بسواعد الحاضر الفتيّة وعقوله المتوثّبة الذكيّة... والله وليُّ كلّ توفيق ومسدِّدُ كلّ أمْر.

المؤلّف

المؤلِّف في سطور

- **د. منير لطفي محمّد علي**
- مواليد ريف الدقهلية 1965م
- تَخرّج في كلية طب المنصورة 1989م (جيد جدا مع مرتبة الشرف)
- استكمل الدراسات العليا في الأمراض الباطنية جامعة الزقازيق 1996م (جيد جدا)
- تَخرّج في الأكاديمية الإسلامية المفتوحة بالمملكة العربية السعودية (امتياز)
- عضو نقابة أطباء مصر، استشاري الأمراض الباطنية
- له العديد من المقالات المنشورة بالجرائد والمجلات والمواقع الإلكترونية

صدَر له:

1- أطباء فوق العادة، دار عالم الثقافة، 2016م

2- طريقك إلىٰ التميّز، دار عالم الثقافة، 2017م

3- رحلتي مع مرض السكري، دار اليقين، 2018م

4- مفاتيح القراءة، دار اليقين، 2018م

5- بستان العافية، دار اليقين، 2018م

6- حياتنا بعد الستين، دار مدارك، 2019م

7- مقامات أبقراط، دار البشير،2020م

8- معا نرتقي، دار ألوان، 2020م

9- علىٰ خطىٰ لقمان، دار ألوان، 2020م

10- علاوة علىٰ كتب أخرىٰ مخطوطة تحت الإعداد والتهذيب.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨ ﴾ [هود: 88].

أُثِر عن الإمام الشافعي قوله: **"أَبىٰ الله أن يكون كتابا صحيحا غير كتابه"**، فرحِم الله قارئا فَطِنا؛ عايَن زلَلًا، أو لامَس عيبًا، أو وقع علىٰ خطأٍ...فأهداه إليّ.

للتواصل:

Dr36444@yahoo.com

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدّمة	5

الدفتر الأول : (الدّراسة)

(1) فُوتومانيا ..الهوَس بالتصوير	10
(2) مُعلِّمون مِن ذهَب	18
(3) معلِّمون مِن ورق	25
(4) الهواية حياة	34
(5) نزيف قلم	43
(6) التعليم المستمرّ؟	48

الموضوع الصفحة

(7) العصا النبيلة 54

(8) بالمعاناة نصنع الرجال..... 61

(9) ضدّ التيار 68

الدفتر الثاني : (العمَل)

(1) خادماتٌ لا مُلك يمين! 76

(2) بعضٌ مِن دماء الذاكرة 83

(3) الصراحة راحة..... 90

(4) فنّ التكيُّف 98

(5) أزمةُ رجولة 105

(6) وماذا بعْد؟ 113

(7) الدُّعابة في الميزان 120

(8) الرّجُل المناسب؟ 127

الموضوع الصفحة

(9) أخلاق الكِبار 134

(10) فنّ حلّ المشكلات 141

(11) قاتَل الله البطَر..... 148

(12) يومٌ لا يُنسى 154

(13) جَرِّب 161

الدفتر الثالث: (الغُربة)

(1) جامعة السّفَر 172

(2) عُمان.. الصورة والحقيقة..... 182

(3) أصابع الاتهام..... 188

(4) فضيلة الفضول 195

(5) شيءٌ من العزلة 202

(6) الانشطار اللغوي 211

الموضوع الصفحة

(7) جُونو.. وما أدراك ما جُونو! 218

(8) الدخول في الممنوع 226

(9) من وحْي الواتساب 233

(10) الدنيا بخيْر 241

الدفتر الرابع: (المسجد)

(1) مدرسة المشاغبين في المسجد الحرام! 248

(2) لله درُّك يا أنيس! 253

(3) الله كريم! 260

(4) فِقه الفِتنة 267

(5) العِلم قبل العمل 272

(6) مسلمون بالوراثة! 278

الخاتِمة 285

الموضوع الصفحة

المؤلِّف في سطور 287

الفهرس 291

تمّ بحمد الله